بين السياسة والفنون

بين السياسة والفنون

د. رياض نعسان آغا

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٩

القدس عاصمة الثقافة العربية

لا بد أن يذكرنا العنوان بقصيدة شهيرة لمظفر النواب تستحضرها الذاكرة كلما ذكرت مدينة القدس، وفيها سخرية صارخة من تهاون العرب وإهمالهم لمدينتهم المقدسة التي اغتصبها الصهاينة عام ١٩٦٧ وبدؤوا على الفور بعمليات تهويدها والتخلص المبرمج من كل أثر للعروبة والإسلام والمسيحية فيها. وفي هذا العام ٢٠٠٩ أعلنت القدس عاصمة للثقافة العربية وانطلقت فعالياتها من أرض فلسطين وتعهدت كل الدول العربية في مؤتمري وزراء الثقافة العرب في مسقط ٢٠٠٦ ودمشق ٢٠٠٨ بتنفيذ برامج خاصة بهذه الاحتفالية التي يتضح أن هدفها تكثيف الاهتمام العربي بالقدس وتذكير العالم بكونها مدينة محتلة، وبأن كل إجراءات إسرائيل فيها باطلة، وأن الشعب الفلسطيني ليس المسؤول الوحيد عن القدس فهذه المدينة بشكل خاص تحمل المسيحيين في العالم مسؤولية كبرى للدفاع عنها وبخاصة بعد أن هجَّرت إسرائيل مسيحيي القدس الذين كانوا يشكلون خمسين في المئة في مطلع القرن العشرين، وقد انخفضت نسبتهم إلى أقل من عشرة في المئة، وهم في تناقص مستمر، مع أن المدينة مقدسة مسيحياً ففيها ترعرع السيد المسيح وفيها انعقد أول مجمع مسكوني .

وعلى رغم أن الفاتيكان انتقد سيطرة إسرائيل على الأماكن المسيحية المقدسة إلا أن إسرائيل لا تهتم بأي انتقاد. والقدس كذلك مسؤولية المسلمين في العالم لأنها مسرى رسول الله r ، وفيها المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله . كما أن القدس مسؤولية دولية لأن العالم مسؤول عن تنفيذ قرارات مجلس الأمن . وعلى رغم وفرة المسؤوليات الدولية فإن الفلسطينيين بخاصة والعرب مسلمين ومسيحيين، هم المطالبون أولاً بتحرير القدس وإنقاذها من الاحتلال. ومهمة احتفالية القدس أن تحرك السواكن في المشاعر الباردة نحو قضية العرب الكبرى، ومن المعروف أنه لا يموت حق وراءه مطالب، وأما الحق الذي يتنازل عنه أصحابه طوعاً فسيصير حلالاً رغداً على من اغتصبه . ولئن كان الوجدان العربي الإسلامي والمسيحي العام مسكوناً بالقدس فإن الجانب الرسمي يبدو وكأنه يغض الطرف عن حركة التهويد التي تحدث اليوم بقوة وتسارع، ويبدو إصرار إسرائيل على جعل القدس عاصمة لها مسألة غير قابلة للتفاوض سلمياً حول أكثر من منطقة صغيرة من بقايا البلدة القديمة في القدس الشرقية التي يُهجّر سكانها منها اليوم وتهدم بيوتهم ونحن نتذكر ما عرضته إسرائيل مراوغة في كامب ديفيد الثانية حين قسمت الحلول إلى ما فوق الأرض وما تحت الأرض، وإلى رقعة صغيرة مهددة بالانهيار لكثرة ما حفر فيها من أنفاق. وسياسة إسرائيل في تهويد القدس تنفذ رؤية إستراتيجية قديمة أعلنها هرتزل مؤسس الصهيونية حيث قال في مؤتمر بال بسويسرا عام ١٨٩٦ «إذا حصلنا ذات يوم على القدس فسوف نزيل كل ما هو غير مقدس عند اليهود، وسوف ندمر الآثار التي مرت عليها القرون» . وللأسف تمكنت إسرائيل من تحقيق حلم هرتزل أمام عيون العرب والعالم وفرغت القدس من عروبتها

واستأصلت كل أثر لتاريخ المدينة الكنعانية العربية الأصيلة .

وعلى رغم تمسك الفلسطينيين بأرضهم ودفاعهم المستميت عنها إلا أن القتل اليومي المريع والجرافات التي أعلن أولمرت مؤخراً ضرورة عودتها إلى هدم المنازل العربية وكل البنى التحتية حولها، ومطالبة ليفني العلنية بطرد كل عرب الـ٤٨، يجعل المقدسيين في خطر، وهم عاجزون وحدهم عن تحمل هذه المسؤولية التي ينبغي أن تنهض بها الأمة الإسلامية كلها. وكانت الحكومة الإسرائيلية قد عملت وفق خطة منهجية لتهويد القدس منذ عام ١٩٧٣ أيام غولدا مائير حيث أوصت لجنة وزارية بألا يتجاوز عدد السكان العرب ٢٢ في المئة من مجموع السكان آنذاك، وسارعت الحكومات المتعاقبة لسحب هويات العرب واستقدمت عشرات الآلاف من المستوطنين واختارتهم من اليهود المتطرفين كما استولت على مئات الدونمات من الأراضي العربية حول القدس . وفي التسعينيات وسعت المدينة إلى القدس الكبرى التي ضمت عدة مستوطنات مجاورة باتت يهودية صرفة مثل جبل أبو غنيم، وأخيراً أقامت جدار الفصل العنصري . وقد لقيت دعماً كبيراً في تنفيذ مخططها من دول أوروبية كبرى صمتت على هذا التعدي، كما دعمها بعض أعضاء الكونجرس الأميركي، ونذكر هنا مشروع قرار قدمه «برودنباك» عام ٢٠٠٥ للاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ومنع تقسيمها. ونحن ندرك حجم الالتفاف الخطير على الشرعية الدولية منذ «اتفاقات أوسلو» التي أبقت القدس إلى ما سمته مفاوضات الحل النهائي ووضعتها خارج نطاق السلطة الفلسطينية .

والخطر أن يشتغل الساعون إلى السلام اليوم على تسويات تضيع معها حقوق العرب والمسلمين والمسيحيين في القدس، وهي المدينة التي ضمت كل الديانات في تاريخها . بل إن الخليفة عمر **t** لم يكن يمانع من وجود اليهودية فيها لولا إصرار مسيحيي القدس على ألا يساكنهم فيها يهود كما جاء في الوثيقة العمرية . والمفارقة أن الإسرائيليين بذلوا جهوداً مضنية للبحث عن جذور لهم في القدس وعن الهيكل المزعوم فلم يجدوا شيئاً ولن يجدوه. وبعض المؤرخين الإسرائيليين ضاقوا ذرعاً بالطموحات السياسية التي تبحث عن ذرائع تاريخية فأعلن المنصفون منهم أنهم لم يجدوا في التوراة أية مصداقية تاريخية، وقد ذكرت في مقال لي عن تل القاضي الذي تريد إسرائيل أن تسجله باسمها على لائحة التراث العالمي وهو موقع سوري في الجولان المحتل قول يسرائيل فنكلشتاين (وهو رئيس المعهد الأركيولوجي في جامعة تل أبيب): «لم يظهر التنقيب أي أثر مادي يؤكد رواية التوراة . لقد فقد كتاب التوراة أهميته كمصدر تاريخي فهذا الكتاب هو وثيقة متأخرة جداً كُتبت فصولها الأولى في القرن السابع وفق منظور لاهوتي وأيديولوجي وسياسي» . والإسرائيليون ينتظرون الانتهاء من تهويد القدس لإعلانها عاصمة أبدية، وليطالبوا الولايات المتحدة بنقل سفارتها إلى القدس، وسيلحق بها حلفاؤها، ومن الخطر أن يصبح ذلك واقعاً ولاسيما أن الأبحاث السياسية تمهد له بقوة وتعرض مناطق عربية مجاورة مكاناً لإقامة الفلسطينيين .

ومن أهداف الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية تعريف الأجيال العربية الشابة بمدينتها المغتصبة ودورها العظيم في إثراء ثقافة الأمة عبر العصور وتنبيه العالم إلى خطورة التهاون الدولي إزاء ما تفعله إسرائيل، ولكي لا نكون متشائمين أو يائسين فإن بوسعنا أن نذكر الأجيال بأن القدس تعرضت للاحتلال الصليبي مئتي عام، وقد حول الصليبيون المسجد الأقصى إلى إسطبل، ولكن التمسك

الوجداني بها مكّن الشعب العربي والمسلم من تحريرها حين وحد القائد صلاح الدين الأيوبي مصر وسورية وكل قوى الأمة التي تختزن إلى اليوم في وجدانها تعلقاً ضخماً بالقدس، فقد ولدت منظمة المؤتمر الإسلامي حين تعرض الأقصى لحريق عدواني عام ١٩٦٩، كما قامت انتفاضة الأقصى الضخمة دولياً يوم اقتحم شارون المسجد، وأحسب أنه كان يريد أن يختبر موقع القدس عند المسلمين، وأن يتأكد من وجود أمة إسلامية، وقد فوجئ بقوة ما وجد، وهذه القوة الكامنة في الأمة تحتاج باستمرار إلى فعل ثقافي يحرك سكونها كي تنهض بالمسؤولية وتستعيد القدس وكل الأراضي العربية المحتلة . ونحن إذ نبارك لأشقائنا الفلسطينيين والمقدسيين بخاصة إطلاق احتفالية القدس، فإننا ندعو إلى أن يكون الاحتفال بالقدس ذا بعد عملي عبر تأهيل البنى الثقافية في القدس وإقامة مشاريع عربية فيها وتمكين العرب من البقاء، في بيوتهم وهم يمسكون جمر الحق بأيديهم ويناضلون نيابة عن الأمة كلها .

ثمن الحرية

هل فوجئ الفلسطينيون في غزة بالعدوان الإسرائيلي عليهم؟ بالتأكيد لا، فهم يعيشون حالة الحرب المعلنة من إسرائيل ضدهم منذ أن طردت إسرائيل الشعب الفلسطيني من أرضه فلجأ عدد ضخم إلى غزة التي بقيت ملحقة بمصر حتى عدوان إسرائيل على العرب عام ١٩٦٧، حيث قامت إسرائيل باحتلال غزة وضمتها إلى سلطتها المباشرة، يومها لم تكن صواريخ المقاومة موجودة، ولم تكن غزة تهدد أمن إسرائيل، ولم تكن المقاومة الفلسطينية قد نضجت بعد، فقد جاءت معركة بالكرامة التي حققتها فتح بعد عام واحد من النكسة لترد للعرب شيئاً من كرامتهم المهدورة قبل أن تخوض الأمة حرب أكتوبر، وقد توالت انتصارات المقاومة الفلسطينية في معارك شهيرة وعمليات فدائية كان الشارع العربي كله يهلل لها، بل إنها وجدت صدى دولياً ضخماً حتى صارت الكوفية الفلسطينية تعبيراً من مثقفي وأحرار العالم عن تضامنهم مع شعب فلسطين، يومها لم تكن إسرائيل قد اهتدت إلى كلمة إرهاب، وإنما كانت تطلق على الفدائيين لقب (المخربين) وحتى عام ١٩٧٠ حققت حركات التحرير الفلسطينية دوياً عالمياً، وكان طبيعياً أن تندس بينها حركات تشاغب عليها، ولم تكن هي كذلك مبرأة من الأخطاء التي صارت ذرائع للتعبير عن الضيق الرسمي بها في بعض الدول العربية، وقد اضطرت المقاومة أن ترحل من الأردن إلى لبنان بعد حرب أيلول، وفي لبنان تحول الجنوب إلى ساحة عمليات فدائية ضخمة، تنافست في أدائها المنظمات والحركات والأحزاب، وبرزت ظاهرة الاستشهاديين وبالطبع لم يكن أحد يسميهم إرهابيين، فقد تحولت سناء محيدلي مثلاً إلى رمز من رموز البطولة العربية وسميت عروس الجنوب بعد أن فجرت نفسها بسيارة ضمن تجمع لقوات إسرائيلية عام ١٩٨٥، وقد لحقت بها قوافل من الفدائيين، وكان الوطن العربي كله يفخر بكونهم يقدمون أرواحهم فداء للوطن وثمناً للحرية، لكن إسرائيل استطاعت بعد اجتياح لبيروت أن تطرد المقاومة الفلسطينية من لبنان، وأن تصفي قياداتها الوطنية بالقتل والاغتيال، بل لاحقتهم إلى تونس، وارتكبت مجزرة حمام الشط، التي وقع ضحيتها ثمانية وستون شهيداً، قبل أن تظهر الصواريخ التي تتذرع إسرائيل بأن هدف عدوانها اليوم على غزة هو إيقاف تهديد الفلسطينيين لها، وقد قام الشعب الفلسطيني بانتفاضته الأولى عام ١٩٨٧ وشارك فيها شعب فلسطين بكل فصائله وتياراته، وكانت غزة رائدة في انتفاضتها حتى بات اسم أطفال الحجارة في غزة مصدر نشوة عربية ومصدر تعاطف دولي عالمي، وباتت قصيدة نزار قباني التي أشاد فيها ببطولات أطفال الحجارة تتردد على شفاه العرب في كل أقطارهم، وصارت غزة كابوساً يجثم على قلوب قادة إسرائيل الذين كانوا وما يزالون يحلمون أن يبتلع البحر غزة حتى وإن صارت ركاماً.

وقد اضطرت إسرائيل تحت ضغط ملاحم المقاومة التي أرهقتها إلى القبول بقيام السلطة

الفلسطينية لتشكل دولة فلسطين، وتوقفت المقاومة سنوات كانت فيها إسرائيل تشغل القيادات بالتفاوض الذي لم يصل إلى شيء، وشعر كثير من قادة النضال الفلسطيني بأن المفاوضات باتت عبثية تكاد تجهض القضية الفلسطينية وتفقدها التعاطف الدولي الحار معها، فقد بات العالم ينظر إلى الصراع الفلسطيني الإسرائيلي (بعد أن فقد صفته العربية عبر خطأ تاريخي منهجي) كأنه صراع على ملكية عقار بعيداً عن مفهوم الحق الوطني والتاريخي، وتم تأجيل القضايا الرئيسة كقضية القدس والمستوطنات وحق العودة إلى ما سمي بمفاوضات الحل النهائي، ولكن الفلسطينيين أدركوا أن إسرائيل ليست جادة في توجهها نحو السلام، فهي ترفض الاعتراف بحق العودة وبعروبة القدس كما ترفض إزالة المستوطنات، ولم توافق القيادات الفلسطينية على ما عرضته إسرائيل من حلول هزيلة في جولات المفاوضات التي أشرف عليها الرئيس الأمريكي كلينتون، ولكي يرغم الفلسطينيون على قبول ما لا يمكن قبوله قام شارون باقتحام المسجد فاندلعت انتفاضة الأقصى (الثانية) التي ضحى فيها الشعب الفلسطيني بما يزيد على السبعة آلاف شهيد، وخمسين ألف جريح، وبات واضحاً أن إسرائيل تريد القضاء على روح المقاومة عند الشعب الفلسطيني، كي يصير مجبراً على قبول الفتات الذي تقدمه له إسرائيل، وكي تجعله يتخلى عن المطالبة بالقدس، وكي يتنازل عن حق العودة، وكي يكف عن المطالبة بتفكيك المستوطنات، وأهم من ذلك كله، كي يتوقف عن الحديث عن دولة فلسطينية حتى وإن كان الرئيس بوش قد وعد بها، فالإسرائيليون لن يقبلوا بقيام دولة ملاصقة لدولتهم وعينهم على يهوذا والسامرة، ولن يقبلوا عبر الحوار والمفاوضات أن يتكدس على باب الدار (التي يعرفون أنهم اغتصبوها قسراً من أصحابها) ملايين الفلسطينيين، ولن يضمن لها الجدار العازل عيشاً آمناً مستقراً وهي تلتهم أكثر من ثمانين في المئة من أرض فلسطين، ومستوطناتها تشكل سرطاناً خبيثاً ينتشر في الأرض الفلسطينية، ومادامت هناك قوى تقاوم المشروع الصهيوني فلا ضمان ولا مستقبل لإسرائيل مهما تلقت دعماً من أوروبا وأمريكا، فعليها أن تقلع الشوك الفلسطيني بيدها، وحسبهم أنهم يقدمون لها المال والسلاح، تلك هي الأسباب التي دفعت إسرائيل إلى ارتكاب محرقة غزة، لأن المقاومة الوطنية بكل فصائلها تمكنت من أن تدافع عن نفسها، وأن تتحصن ضد المؤامرات التي استهدفت اقتلاعها مرات عديدة، ولقد جربت إسرائيل اقتلاع المقاومة اللبنانية قبل عامين، فإذا إسرائيل هي التي تقتلع من أرض لبنان، وكان على القيادة الإسرائيلية بعد هزيمة تموز ٢٠٠٦ أن تحقق نصراً بعد أن شعر الإسرائيليون بأن مستقبل إسرائيل كله بات في خطر ما دامت المقاومة قادرة على التحدي والصمود، فاختارت غزة ولاسيما بعد أن أوضحت لها الانتخابات الفلسطينية أن المقاومة هي خيار الشعب الفلسطيني في غالبيته العظمى، وقد افتعلت انشقاقاً في الصف الفلسطيني، وكادت تقع حرب أهلية تداركها العقلاء من الطرفين، ولكنها وضعت المقاومة في موقف محرج، فأمامها أحد خيارين إما أن تستسلم وتعلن انتهاء المقاومة، وتصطف على باب البيت الأبيض في انتظار موعد من مسؤول في الخارجية الأمريكية وأن تتبادل القبلات التلفزيونية مع أولمرت وأعوانه من مجرمي الحروب، وإما أن تتمسك بحق الشعب الفلسطيني بالدفاع عن نفسه حتى ينتهي الاحتلال، وتعود للشعب حقوقه التي ضمنتها له الشرعية الدولية، وقد اختارت المقاومة أن تتمسك بالحق، فجاءها العقاب المرير لها وللشعب الذي اختارها محرقة تأكل

الأخضر واليابس، وتهدم البيوت والمؤسسات وتقتل الأطفال والنساء بحجة أن صواريخ المقاومة تهدد أمن إسرائيل، ولم يفطن منتقدو المقاومة إلى أن إسرائيل حكمت بالموت البطيء على أهل غزة عبر الحصار، وأنها هي التي خرقت الهدنة حين قتلت أكثر من أربعين فلسطينياً أثناء الهدنة فضلاً عن الذين اعتقلتهم، وتجاهل منتقدو المقاومة أن إسرائيل هي التي تهدد أمن العالم كله وليس أمن العرب وحدهم، وهذا ما قالته استطلاعات الرأي في أوروبا، وأعترف بأنني أشعر بفجيعة كبيرة بما آل إليه حال الأمة فبات فيها من يتبنى موقف إسرائيل ويمشي في ركابها علناً، ويهاجم المقاومة في الوقت الذي تحقق فيه المقاومة تأييداً عالمياً يجعل غزة أمثولة أمام البشرية في الدفاع عن الوطن، وفي تقديم الدم والأرواح ثمناً للحرية والاستقلال.

حقائق تقدمها غزة

تبدو الحقيقة الأولى التي ينبغي أن يستفيدها العرب من العدوان الهمجي على غزة هي أن السلام مع إسرائيل وَهْمٌ لا يمكن تحقيقه، وأن الطمأنينة إلى أهداف إسرائيل ونواياها سذاجة أو هرب من مواجهة الحقيقة، فقد برز بوضوح حجم ما يكنه شعب إسرائيل من حقد وكراهية للفلسطينيين وبالطبع للعرب والمسلمين جميعاً، فالغالبية العظمى من شعب إسرائيل كانت مؤيدة بقوة لمزيد من القتل والسفك والتدمير، مما جعل قادة إسرائيل المتنافسين في ميدان الانتخابات يتقربون إلى شعبهم ويتبارون عبر مزيد من الجرائم والإبادة الجماعية لسكان غزة، دون أن نسمع من داخل إسرائيل صوتاً ذا دوي إلا ما ندر يستنكر هذه الوحشية التي تترفع عنها الوحوش ذاتها.

وأما الحقيقة الثانية فهي أن حق الشعوب في الدفاع عن نفسها حين تتعرض لغزو أو عدوان، راسخ لا يمكن اقتلاعه حتى لو سمي هذا الدفاع إرهاباً أو تعرض لإدانات أو حصار وقمع، فهو مرتبط بالطبيعة والسنن الكونية، فحتى الحيوانات تدفع عن نفسها أي شر أو أذى أو ضرر يحيط بها بردة فعل عفوية، وكل من يحلم أن بوسعه تغيير سنن الطبيعة وحرمان الشعوب من حق الدفاع عن نفسها هو واهم، ولن يحصد من تجربته غير ارتكاب الجرائم ضد البشرية.

وأما الحقيقة الثالثة فهي كون ضمير العالم ما يزال حياً رغم أننا عتبنا عليه صمته في أحداث جسام سابقة، فقد امتلأت كل مناحي الأرض بالمحتجين الغاضبين وهم يصرخون في الشوارع والساحات (أوقفوا العدوان) ويعلنون تضامنهم مع شعب فلسطين وغزة بخاصة، ويؤيدون حق الفلسطينيين بالدفاع عن أنفسهم، بل إن ضمير العالم يؤسس تحالفاً قانونياً دولياً لمقاضاة مجرمي إسرائيل الكبار أمام المحاكم الدولية.

والحقيقة الرابعة التي كشف عنها مجمل الموقف الدولي الرسمي ولاسيما الغربي الأوروبي، هي أن نفوذ الصهيونية العالمية الضخم يمتد إلى قصور كثير من القادة وحواشيهم، إلى حد أنهم باتوا يرون الحق واضحاً فلا يجرؤون على الوقوف معه، ويرون الجرائم مريعة فظيعة فلا يجرؤون على استنكارها، وهذا ما كشف عن وجود شرخ كبير بين شعوب الأرض وبين الغالبية العظمى من قادتها، وقد كان مثيراً أن تمتلئ شوارع واشنطن ذاتها بالمحتجين على طغيان إسرائيل، في الوقت الذي كانت فيه قيادتها تطلب مزيداً من الإبادة لشعب فلسطين.

وسنبقى نقدر لشعوب العالم تاريخياً تضامنها مع الحق العربي، واستنكارها للجريمة وتحديها للتطرف العنصري الذي يعبر عنه من يكرهون العرب والمسلمين وهم ما يزالون يستلهمون الحروب الصليبية، من أمثال

بوش الراحل وفريقه الذي كان كارثة كبرى على البشرية، وهؤلاء يستهينون بشعوبهم، ويزجون بها في حروب قذرة، ولا يحققون من أهدافهم سوى القتل والتدمير والزهو بالنصر على الضعفاء.

والحقيقة الخامسة أن شعار الحرب على الإرهاب صار مجرد ستار لقمع حقوق الشعوب، وقد بدت شعوب العالم غير معنية بتوصيف إسرائيل للإرهاب، فتزييفها للحقائق مفضوح، فمن ذا سيقتنع بأن عدوانها على غزة كان مكافحة للإرهاب عبر قتلها الأطفال والنساء والشيوخ واستخدامها أسلحة محرمة دولياً، فضلاً عن هدمها البيوت والمساجد والمدارس بما فيها مدارس الأمم المتحدة؟ ولقد فشلت إسرائيل في تصوير القضية أمام الرأي العام الدولي على أنها قضية تهريب أسلحة للإرهابيين، فقد رأى العالم جرائمها واستعادت قضية فلسطين وهجها أمام شعوب الأرض التي لم تعد بحاجة إلى إقناع بأن قادة إسرائيل هم الإرهابيون الكبار الذين يجب أن يحاكموا.

ولقد صنعت إسرائيل عبر جرائمها في غزة أجيالاً من المستضعفين من الأيتام والثكالى والأرامل والمشردين الذين سيدفعهم ما ذاقوا من الظلم والفواجع إلى الثأر والانتقام مستقبلاً غير معنيين بما سيطلق عليهم أعداؤهم من ألقاب.

وأما الحقيقة السادسة التي بدأ كثير من المثقفين الإسرائيليين بتأملها بأناة هي أن (القوة لا تصنع نصراً) ومن يقرأ الصحافة الإسرائيلية يجد فيها كل يوم وفرة من المقالات التحليلية منذ انتهاء الحرب تسأل قادة إسرائيل (عن أي نصر تتحدثون؟ إنكم لم تجلبوا لإسرائيل سوى كراهية شعوب الأرض لكم) وبوسع القارئ العربي أن يتأمل مقالات من مثل مما كتب جدعون ليفي تحت عنوان (فشل وثكل، يقول: لم نفد شيئا من هذه الحرب، سوى مئات القبور، وفيها الصغار، وآلاف المعوقين، والدمار الكثير، وضعضعة صورة إسرائيل) ويقول ميرون بنبنستي (يستطيع الإسرائيليون الافتخار بانتصارهم وهم عميٌ عن إثارة الإنسانية، إنهم يخرجون أنفسهم من جماعة الشعوب الحضارية التي يتبجحون بالانتماء إليها) وفي يديعوت أحرونوت يكتب افيعاد كلاينبرغ تحت عنوان ألف سنة حرب يقول (الآن التقطوا نفسا تاريخيا طويلا واسألوا أنفسكم: هل أنتم مستعدون لنحو ألف سنة إرهاب؟ إذا كان نعم، فيمكن المواصلة بالطريق الذي نسير عليه الآن؟ أتستمتعون بالحرب في غزة؟ سيكون لنا المزيد والكثير منها، التجربة تدل على أن اليأس لا ينبت المساومة بل العناد والتزمت الديني).

والحقيقة السابعة هي أن أكبر قوة تعتمد عليها إسرائيل هي ليست السلاح المتطور والمحرم دولياً، ولا قوى الإبادة التي تمتلكها، وإنما هي الانقسام والتمزق العربي الذي يترك الأمة ضعيفة مستباحة، ونحمد الله أن الأمة بدأت خطوة على الطريق الصحيح في قمة الكويت، ولكننا نطمح أن يتم حوار عربي داخلي يوحد رؤية الأمة للأحداث الكبرى، ويؤسس لمستقبلها الذي تهدده إسرائيل بإصرارها على استخدام القوة واستمرار الاحتلال والعدوان ورفض كل الأسس والمرجعيات التي نهضت عليها المبادرة العربية للسلام، ولعلنا نستبشر خيراً عبر إعلان كل الدول العربية التزامها بدعم حقوق الشعب الفلسطيني وحقه في الدفاع عن نفسه وتقرير مصيره.

أخيراً نأمل من الإدارة الأمريكية الجديدة أن تفي بوعدها بإعادة النظر في موقف الولايات المتحدة من العالمين العربي والإسلامي، وأن ينتهي عصر الحروب ليبدأ عصر الحوار والتفاهم والتعاون بين الشعوب، فقد جربت الولايات المتحدة في عهد بوش سياسة القوة والحروب الاستباقية فلم تحقق سوى القتل والتدمير، وحولت العالم إلى بؤر صراعات وحروب دامية، وفوق ذلك أنهت الإدارة الأمريكية الراحلة عهدها بتدمير اقتصاد العالم كله، ولئن كنا نشارك شعب الولايات المتحدة تفاؤله بشعار التغيير الذي أطلقه الرئيس أوباما، فإن تفاؤلنا حذر، لأننا ندرك حجم الصعوبات التي تواجه الرئيس الجديد، ولاسيما أنه ليس وحده من يقرر سياسات الولايات المتحدة.

بين الاعتدال والممانعة

تحول العدوان الإسرائيلي على غزة إلى سؤال عن مصير أمة، ولم يعد مجرد مفاوضات حول الهدنة أو فتح المعابر وإنهاء الحصار، صار السؤال بحاجة إلى إجابة واضحة، أتريد الأمة أن تسلم سيادتها واستقلالها بالمطلق إلى إسرائيل التي تستعد لأن تكون قائدة الشرق الأوسط دون منافس أو معترض، أم ما تزال الأمة تمتلك إرادة الحفاظ على قرارها وسيادتها وحقوقها؟ كان المريع دخول الإعلام الصهيوني على شكل الإجابة عبر خديعة تسللت إلى الإعلام العربي في كثير من منابره، حين قسم الأمة إلى معسكرين، سماهما معسكر الاعتدال ومعسكر الممانعة. وأعجب كيف يتداول بعض الإعلام العربي هاتين التسميتين دون فحص الدلالة، حيث لا بد من تحديد المواصفات لمعنى الاعتدال المقصود، ولمعنى الممانعة، كي لا يفهم المتداولون أن الاعتدال يعني التنازل عن الحقوق العربية وهذا غير معقول، وأن الممانعة تعني الإصرار على الحرب ورفض رؤية سلام عادل وشامل، ولقد حددت المبادرة العربية سقف الاعتدال الممكن، ووافقت عليها كل الدول العربية، فصار النزول تحت سقفها نزولاً تحت سقف الاعتدال، كما صار التمسك بها إذا فقدت فاعليتها وصلاحيتها تفريطاً بالحق وبالسلام معاً. وأما كلمة الممانعة فلابد من تعريف لها كذلك، أهي منع للتفريط بالحقوق أم منع للحصول عليها عن طريق المفاوضات؟ إنني أجد أن وضع كلمة الممانعة في مقابل الاعتدال يسيء إلى المفهوم ما دام يصر على التمسك بحقوق الأمة ويؤكد أنه لا يفرط بها.

لقد ظهر ما يمكن أن يسمى اعتدالاً (تجاوزاً) كناية عن قبولنا بفكرة السلام بعد لاءات الخرطوم التي ركزت على أن لا صلح مع إسرائيل، وكنت شخصياً ممن استغربوا حديث عبد الناصر بعد نكسة حزيران عن شعار (إزالة آثار العدوان) وكنت أتساءل هل يقصد عبد الناصر أن نقبل بالعدوان ونكتفي بإزالة آثاره؟ وأذكر أنني كنت أحد الرافضين لـ «مبادرة روجرز»، وأحد المتمسكين بلاءات الخرطوم، لكنني تغيرت قليلاً، وأوشكت أن أصير معتدلاً حين قلت ربما يكون ممكناً أن نحصل على حقوقنا العربية عبر مفاوضات للسلام ما دامت الحروب المتتالية لم تحقق عودة للحقوق، ولم أكن واثقاً لمعرفتي طبيعة الفكر الإسرائيلي وآفاقه الدينية المغرقة في الأصولية اليهودية. ولكن الاعتدال الجوهري الاستعداد النفسي للتفاوض مع إسرائيل وهو يعني الاستعداد التدريجي للاعتراف بوجودها إذا وصلنا إلى حقوقنا العربية التي أقرتها الشرعية الدولية، وكنا تربينا على رفض هذا الوجود لأن إسرائيل لا تملك أي حق في أرضنا العربية لا في الحاضر ولا في التاريخ، ولكننا قلنا صحيح أنها لا تملك أي حق، ولكنها أصبحت أمراً واقعاً، وبات فيها نحو ستة ملايين إنسان، وبتنا نعترف بأن فكرة رمي إسرائيل في البحر تشبه فكرة إسرائيل في إمكانية إبادة شعب فلسطين أو ابتلاع البحر لغزة. وبدأنا نعتدل وكانت ذروة الاعتدال أن نقبل بحدود الرابع من حزيران ٦٧ قابلين بما كان قبله، ومتجرعين ما قد يقتضيه السلام من

تداعيات مؤلمة، ودخلنا المفاوضات على مبدأ واضح هو «الأرض مقابل السلام»، واشترطنا في سوريا أن يكون السلام عادلاً لا ينتقص فيه حق من حقوق العرب، وأن يكون شاملاً لحرصنا على ألا ننجو بأنفسنا ونترك أشقاء لنا وحدهم يصارعون من أجل حقوقهم، ويكون بوسع إسرائيل أن تنفرد بهم بدل أن نكون كتلة واحدة متضامنين في السراء وفي الضراء وفي الحرب والسلم لكوننا نؤمن بأننا أمة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وأحسب أن مبادئ مؤتمر مدريد هي حد الاعتدال وسقفه الأعلى، وعليها تأسست المبادرة العربية التي قبلنا بها مع إصرارنا على حق العودة دون أي تلاعب دولي فيه، ولابد من مراجعة نص مهم يجعل المبادرة حية وقد ورد فيها وهو «أن تعلن إسرائيل أنها تجنح للسلم وأن السلام العادل هو خيارها الإستراتيجي كذلك، وأن تؤكد التزامها به»، وبالموافقة العربية الشاملة على هذه المبادرة صارت الأمة كلها معتدلة ما دام مفهوم الاعتدال هو هذا الحد وهذا السقف. فإن قيل إن المبادرة تعلن خيار السلام وحده، فإن الجواب السريع أن المبادرة ما تزال إلى اليوم عرضاً مفتوح المدى لم تقبل به إسرائيل كي نبدأ العمل بها، بل إن إسرائيل قالت كلمتها في المبادرة على لسان بيريز حين وصفها بأنها لا تساوي الحبر الذي كتبت به، وقبله رد شارون على المبادرة عسكرياً لحظة إعلانها، ومع ذلك انتظر العرب وعود الرئيس بوش ست سنين، وكان وعده الذي زعم أنه وعد إلهي هو إقامة دولة فلسطينية، ولقد بات واضحاً أن الإسرائيليين لا يقبلون بدولة فلسطينية متاخمة لدولتهم اليهودية، ولا يقبلون بأن يكون للفلسطينيين أي حق في القدس، ويرفضون رفضاً قاطعاً حق العودة، ويبنون المزيد من المستوطنات بدل أن يتخلوا عنها. وحين سحق شارون جنين عبر عن رؤية الإسرائيليين لطريقة الحل التي ينشدونها، وحين قتلوا عرفات عبروا عن تقديرهم لشريك رابين الذي قتل قبله، ولقد تصاعد العدوان على شعب فلسطين والمبادرة ما تزال قائمة، ومعبرة عن الاعتدال العربي، ولئن كان بعض القادة العرب قد طالبوا صراحة بسحب المبادرة في قمة غزة الدولية في الدوحة، فإن الذين رأوا إبقاءها في قمة الكويت لم يكونوا يعولون عليها، وقد قال خادم الحرمين الشريفين إن هذه المبادرة لن تبقى إلى الأبد على الطاولة، إذن أين يمكن أن نتلمس الفوارق المنهجية بين الاعتدال وبين الممانعة؟ أهي في الموقف من حق الشعب في صد العدوان حين يتعرض له؟ ما أظن أحداً يمكنه أن يمنع شعباً من أن يدافع عن نفسه، ولا يعقل أن يكون لدى العرب فريق يرى إسرائيل محقة في عدوانها على غزة، واسمعوا المزيد من التصريحات الإسرائيلية عن نوايا إسرائيل ومعتقدات الأكثرية من شعبها، وقد أكدت الانتخابات خيار إسرائيل للاستمرار في العدوان وشن الحروب على العرب، والمستقبل القادم مظلم، فأين سيكون موقف الاعتدال وأين سيكون موقف الممانعة وكلنا في الهم شرق؟

وأما التقسيم الإعلامي الصهيوني للأمة إلى اعتدال وممانعة فهو يهدف إلى تحويل الصراع إلى داخل البيت العربي فضلاً عن محاولته إقناع العرب بأن عدوهم ليس في إسرائيل، وهدفه توريطهم في عداوات جانبية كي يصرف جهدهم مرة أخرى بعد الثمانينيات بعيداً عنها. إنني أرجو أن يتحاور المثقفون العرب حول خيارات الأمة لأنهم مسؤولون تاريخياً أمام شعبهم، ولأنهم يعبرون عن رأيه، ولابد من أن يحافظ المتحاورون على أدب الحوار، كي لا يُفسد الانفعال والحكم المسبق والولاء الضيق للود قضية، أملاً

في أن تبقى القضية عربية وليست فلسطينية فقط.

آفاق التغيير المرتقب

رفع الرئيس أوباما شعار التغيير، وجعله عنواناً ضخماً لرئاسته، وقال للشعب الأمريكي ليلة الفوز (التغيير آت إلى أمريكا) واستبشر العالم خيراً، وكان التغيير الهام الذي ترجوه شعوب الأرض، هو استعادة الولايات المتحدة لمنظومة قيم أخلاقية افتقدتها منذ إعلان النظام الدولي الجديد، وظهورها قوة عظمى قادرة على التحكم بمصير البشرية، وقد شنت حربين كبيرتين قتلت وشردت فيهما ملايين الناس من العرب والمسلمين، وكانت تستلهم الحروب الصليبية ضدهم، وبدت كأنها ولاية كبرى تابعة لإسرائيل حين وظفت كل قواها لصالح المشروع الإسرائيلي، بل إن رئيس الوزراء الإسرائيلي أصر على فضح حقيقة تعامله مع الرئيس بوش حين طلب منه أن يخرج من محاضرة ليكلمه هاتفياً ويتلقى منه الأوامر الإسرائيلية بأن تمتنع كوندا عن التصويت في مجلس الأمن حين عقدت الجلسة الفاشلة من أجل إيقاف العدوان على غزة، مما عرض أولمرت لانتقاد من صحافته لأنه كشف بعض حقيقة العلاقة بين قادة البيت الأبيض وقادة إسرائيل، وهذا يذكرنا بالصفعة التي وجهها نتنياهو للرئيس كلينتون حين أعلن أنه سيحرق واشنطن بعد أن صفق له الكونغرس طويلاً أمام كلينتون الذي لم يكن يريد أن يراه رئيساً لوزراء إسرائيل، وفعلها الإسرائيليون بلطف حين أحرقوا واشنطن بفستان مونيكا، فصغر شأن رئيس الولايات المتحدة أمام شعبه وأمام العالم، ولقد كانت الصفعة التي نالها ريتشارد نيكسون عام ١٩٧٤ أخطر لأنه كان مقبلاً على محاكمة بسبب فضيحة ووتر جيت لولا أن الرئيس جيرالد فورد أصدر أمراً بالعفو عنه، قبل ذلك بأحد عشر عاماً قتل جون كيندي حين أطلق الرصاص عليه مجهول، وقد أدين شخص اسمه هارفي أوسولد، لكنه قتل سريعاً على يد يهودي صهيوني اسمه جاك روبي قبل انعقاد المحكمة، وقيل إن كيندي قتل لأنه أصر على تفتيش مفاعل ديمونة الإسرائيلي ومعرفة ما إذا كان يحتوي على قنابل ذرية، ويبدو أن الرئيس بوش كان يعي الدرس جيداً، وأنه فضل ألا يعرض نفسه للمشاكل فقبل أن يتلقى أوامر من إسرائيل، وأن يدمر العراق ليخلص إسرائيل من وجود قوة عربية في المنطقة، وأن يحاصر سورية، وأن يهدد إيران، وأخطر من ذلك أن يغض الطرف عن جرائم كبرى كانت ترتكبها إسرائيل بشكل همجي كما في مجزرة جنين ثم في جنوب لبنان ثم في غزة، وكان يضمد النزيف الأخلاقي الذي عانته أمريكا في ولايتيه، بوعود كاذبة كوعده بإقامة دولة فلسطينية، والسعي لتحقيق سلام عبر إقامة دولتين، كل هذا يعرفه الرئيس الجديد أوباما، وبالتأكيد يعرف أكثر منه بكثير، فالرجل الذي غيرت به أمريكا لون رئيسها، يمتلك ثقافة عالية، ولديه معرفة عميقة بالقوى الفاعلة في التغيير الذي ينشده، وقد كتب بصراحة عن نفسه وعن أبيه وأمه وأسرته ليقدم نفسه للعالم، بل لقد أفرد مساحة واسعة للحديث عن موقف أمه من الدين، وأكد ابتعادها عن الأديان كلها، وأصر على أن أباه كان

ملحداً ولم يكن مسلماً حقيقياً، كما أصر على مسيحيته وانتمائه إلى كنيسة القس الأسود جيريمايه رايت جنوب شيكاغو، وكل ذلك واضح الهدف، وينبئ عن براغماتية بامتياز، وعن ذكاء حاد برز كذلك في توجهه للشباب الذين كانوا في نظر المرشحين للرئاسة الأمريكية مهملين كناخبين، كما كان ذكياً في تفضيله الاهتمام بشؤون الداخل الأمريكي ولاسيما لكونه ورث أسوأ أزمة مالية عرفها العالم بعد أزمة ١٩٢٩ التي أفضت إلى حرب عالمية، وقد أعلن أن الولايات المتحدة تواجه انهياراً اقتصادياً، وقد ضاق الشعب الأمريكي بما يحدث حوله، وبدا لا حول له ولا قوة أمام شبكة خفية وظاهرة تتحكم بقدراته الفذة، بل وبمصيره، وقد صرخ الشرفاء مثل السناتور بول فيندلي صاحب كتابي (من يجرؤ على الكلام)، و(لا صمت بعد الآن) وسواه كثير ممن عبروا عن فهمهم لحقيقة ما يحدث، لكنهم لم يستطيعوا أن يحدثوا تغييراً حقيقياً حتى في الفهم العام، فصوت آلة الإعلام الصهيوني أعلى من أصواتهم جميعاً، لدرجة أنها حرمت شعب أمريكا من رؤية ما كان يحدث في العراق وأخيراً ما حدث في غزة، والمهم أن الرئيس أوباما أعلن شعاراً جميلاً هو (نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا) مبشراً بانتهاء زمن الاعتداءات الأمريكية على الشعوب وقصفها وهدم مدنها، كما أعلن قبل أيام أن الولايات المتحدة ستشهد عصراً جديداً في الدبلوماسية، وكل ذلك يبدو جيداً ويدعو شعوب الأرض للتفاؤل، ولكن تصريحات الرئيس أوباما الداعمة بشكل مطلق لإسرائيل لم تعط الفلسطينيين أية جرعة أمل، وربما كان الرئيس الجديد مضطراً للاستفادة من تجارب من سبقوه إلى البيت الأبيض، وعلينا أن ننتظر موقفه المرتقب من السلام في منطقتنا، وأن نتعامل مع الوقائع أكثر مما نتعامل مع التصريحات، وفي الوقائع حول ما يخصنا في منطقتنا العربية وبخاصة في سورية، بدأت الشخصيات الأمريكية المؤثرة في القرار تتوافد إلى سورية وتجدد الحوار، وبالطبع لا يمكن بناء رؤية واضحة لنهاية الطريق لأننا لم نمض بعد أكثر من خطوات تمهيدية، ولسنا مستعجلين، ولاسيما بعد أن فقد العالم ما كان متبقياً من أمل في السلام بعد حرب غزة، وبعد تقدم اليمين الأكثر تطرفاً لحكم إسرائيل، مع أنني لا أرى فرقاً بين اليمين واليسار في إسرائيل، فهم جميعاً يتنافسون على قتل شعبنا الفلسطيني، ولكن قدوم نتنياهو سيكون مشكلة لمن يريدون السعي نحو السلام بجدية، وقد عبر الاتحاد الأوروبي عن هذا القلق، وسيؤثر تعنت إسرائيل على مصداقية شعار التغيير الذي ينشده أوباما إذا رغب الانخراط في عملية السلام كما انخرط كلينتون الذي اشتغل فترة رئاسته بالملف العربي الإسرائيلي أكثر مما اشتغل في ملفات الولايات المتحدة الداخلية، وقد ترك رسالة في درج مكتبه لعل خليفته يقرؤها، لكن بوش وصل إلى البيت الأبيض عبر ولاءات مسبقة مهدها له والده الذي حقق لإسرائيل ما يفوق أحلامها، حين أوقع الفلسطينيين في فخ المفاوضات التي لا تنتهي حتى صار التفاوض بديلاً عن المقاومة بالنسبة لمن اعتبر السلام خياراً وحيداً، ولم يجن الفلسطينيون من مدريد وأوسلو سوى مزيد من تهويد القدس ومزيد من المستوطنات، ومزيد من الرفض لحق العودة، ومزيد من الحصار والدمار والإبادة، والرئيس أوباما يعرف هذا كله جيداً، ويدرك أن إسرائيل لن تقبل المبادرة العربية تحت أي ضغط، فهي تتطلب أن تعود إسرائيل إلى حدود عام الـ٦٧ وهذا ما سماه بيريز نهاية لإسرائيل، ولاسيما بعد أن فشلت إدارة بوش في تحقيق مشروع الشرق الأوسط الجديد رغم محاولة فرضه بالقوة فقد أسقطته حرب الوعد الحق عام ٢٠٠٦، ومحت ذيوله تضحيات

شعب غزة وصموده رغم فداحة المصاب، ولا ندري كيف سيحقق أوباما أفق التغيير المرتقب ما لم تستعد الولايات المتحدة موقفاً أخلاقياً ينظر إلى الصراع العربي الإسرائيلي بعين الاعتدال والتوازن إن لم نقل بعين الحق والعدالة، ولكي لا يتعرض العرب لمزيد من خيبات الأمل، ينبغي أن يعمقوا إيمانهم بأن انتصار قضيتهم مرهون بهم وبقدرتهم على التمسك بحقوقهم والدفاع عنها ولن يأتي الحل منحة أوربية أو أمريكية.

نجاح الدبلوماسية العربية

مع تفاؤلي بما ستسفر عنه قمة الدوحة من قرارات وتوجهات، أجد هذا النجاح للدبلوماسية العربية في حل الخلافات أو الاتفاق على إدارتها وإيجاد آليات وأساليب للحد من تأثيرها على العمل العربي المشترك، مفتاحاً لانطلاقة نوعية لآفاق السياسة العربية، وإذا نجح الأداء في تطبيق الرؤى الجديدة التي أعلنت تحت يافطة طي صفحة الخلافات والانتقال إلى العمل المشترك حول المتفق عليه وهو الأوسع مساحة بكثير من مساحة الاختلاف، فإن الأمة ستجدد طاقاتها وإمكاناتها وتتفرغ لتحديد أهداف قابلة للتنفيذ، وأهم ما في المتفق عليه من الأهداف العامة الكبيرة تحرير الأرض العربية المحتلة، فالجميع متفقون على أن الاحتلال هو جوهر المشكلة، والمجتمع الدولي على اختلاف توجهاته ما يزال متمسكاً بقرارات مجلس الأمن التي تقضي بحق العرب باستعادة أراضيهم المحتلة بعد الرابع من حزيران ٦٧، وبما أن المبادرة العربية للسلام لم تلق استجابة من إسرائيل فإن إلغاءها أو تعليقها أو الاستمرار فيها لن يغير شيئاً من حقيقة كونها باتت عديمة الفائدة وأنها وصلت إلى الطريق المسدود، وبات ضرورياً أن يتم البحث عن خيار آخر لتحقيق الهدف المتفق عليه، ونحن نعتقد أن المقاومة هي الخيار العملي رغم كونه مكلفاً جداً لأنه يعرض الشعب الذي يحتضن المقاومة لتضحيات وخسائر جسيمة، ولكن هذا قدر الشعوب التي تتعرض للعدوان، وثمن حريتها، وقد رددنا مذ كنا صغاراً بساطة قول شوقي (وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق) ولسنا نجد خياراً آخر بعد إخفاق تجربة العمل السياسي على مدى عشرين عاماً ونيف، حيث باتت المقاومة الوسيلة الوحيدة التي تجعل إسرائيل مستعدة للجلوس إلى طاولة المفاوضات بجدية وليس لكسب الوقت كما فعلت عبر عقود، وطبيعي أن تسعى إسرائيل إلى تصفية المقاومة كي تستمر في احتلالها للأرض العربية وهي غير عابئة بقرارات مجلس الأمن الذي لا يبدي أي اهتمام لتنفيذ قراراته التي تتعلق بحلول الصراع العربي الإسرائيلي، وخيار المقاومة موضوع اختلاف تباينت حوله الآراء ووجهات النظر، فهناك من يرى أن الفرصة ما تزال سانحة لمزيد من العمل السياسي، وهناك من يرى أن هذا العمل استنفد فرصه وبات نوعاً من السياحة السياسية التي تمارسها الوفود حتى باتت موضع تهكم من مثل الحديث عن وفود خارطة الطريق الذين أضاعوا البوصلة والطريق، بينما كانت إسرائيل تتابع توسيع مساحات الاستيطان وتهويد القدس وتهديد السكان الأصليين من عرب ١٩٤٨ بالترحيل، فضلاً عن برامج القتل اليومي والاعتقال والأسر والترويع المستمر للشعب الفلسطيني، مما جعل الشعب العربي كله يفقد الثقة بمسيرة السلام، وقد فقدها منذ جاء نتنياهو في التسعينيات ليبدل مبدأ مؤتمر مدريد فيجعل السلام مقابل الأمن أو السلام رافضاً مبدأ الأرض مقابل السلام، ونتنياهو العائد إلى السلطة في إسرائيل اليوم مدعوم بتطرف إسرائيلي متوحش كشف حقيقته للعالم عدوان إسرائيل على غزة وما حدث من جرائم هي اليوم موضع دهشة دولية ولاسيما بعد اعترافات الجنود الإسرائيليين

بجرائمهم القذرة، والذين يؤيدون استمرار المقاومة يدركون أن بعض الدول العربية مرتبطة باتفاقيات والتزامات دولية تجعلها تتمسك بخيار العمل السياسي وحده، وهنا بوسعي أن أتساءل: هل ثمة ما يمنع العرب من توزيع الأدوار؟ فبوسع الدول التي لا توجد لديها اتفاقات دولية تمنعها من دعم المقاومة أن تفعل ذلك، وبوسع دول أخرى لديها اتفاقيات أن تدعم العمل السياسي لكون الجميع متفقين على خيار السلام، ولا أفق واضحاً للخلاص من جوهر الخلافات إلا بالعمل على الخيارين معاً دون أن يشكل ذلك اختلافاً ينعكس على العلاقات العربية البينية، فإن بدا في المستقبل أن إسرائيل قابلة بالعمل السياسي وجادة في التوجه نحو السلام، فإنني أتوقع أن تجنح المقاومة للسلم إذا تحققت الأهداف الواقعية، أما أن يطلب من المقاومة أن تتوقف شكلاً وموضوعاً دون ظهور أي أفق للسلام أو حتى مجرد قبول بأداء مستحقاته فإن ذلك سيجعل الأمة في حالة ضعف وانهيار واستسلام.

ولقد عانت الأمة من الاختلاف حول الحلول للقضية الفلسطينية عقوداً طويلة منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وكان لابد من أن ينتهي الخلاف إلى مصالحة وحلول منهجية تأسست عليها العلاقة بين سورية ومصر دون أن يتطابق موقفهما، لكنه لم يتناقض في الأهداف الكبيرة المشتركة، وحالة نفي التناقض هي التي تمكن العمل العربي المشترك من التكامل، وثمة هدف كبير آخر يتفق العرب عليه، وهو تحقيق المصالحة الفلسطينية، ونعتقد أن الوقوف على مسافة واحدة من الأطراف يسرّع دفعهما إلى التفاهم، ولابد أن كل طرف سيعيد تقويم موقفه على ضوء النتائج التي حققتها رؤيته، وعلى ضوء المستجدات الدولية التي أفرزت مواقف جديدة بات التفاعل معها مفتاحاً لتصويب الرؤية، فقد أفرز صمود غزة توجهاً دولياً سيتصاعد نحو الحوار مع المقاومة بوصفها صاحبة قرار ولكونها واقعاً فرض ذاته بقوة ولا فائدة من تجاهله دولياً حيث لم تنجح على الإطلاق محاولات إسرائيل وجهودها لتمكين الخلط بين المقاومة والإرهاب، بل قل باتت شعوب الأرض كلها مقتنعة بأن إسرائيل هي الدولة الإرهابية التي تمارس الإرهاب وتشجع المنظمات المتطرفة وتدعمها لتحقيق هدفها بخلط مفهوم المقاومة بمفهوم الإرهاب، وقد اكتشف العالم بعد سنوات من إعلان الولايات المتحدة على الإرهاب أنه ازداد بدل أن ينقص، والسر المفضوح كون هذا الإرهاب منظماً ومدعوماً من إسرائيل التي أغرقت العالم بالإرهاب كي تجر القوى الكبرى بخديعة جريمة سبتمبر إلى تحالف عسكري ضخم يقف إلى جانبها ويدعمها للقضاء على المقاومة بوصفها إرهاباً، وهاهي ذي إسرائيل تعلن في حكومتها الجديدة أن هدفها الأول هو تصفية المقاومة، وأنا متفائل بقدرة الأشقاء الفلسطينيين على تحقيق وحدة وطنية متينة بعد قمة الدوحة وانطلاقاً من رؤيتها التصالحية والتوافقية العامة وبخاصة لكون الجميع يدركون أن الخطر كل الخطر أن يترسخ الانقسام، ويدعم تفاؤلي كون الفصائل الفلسطينية كلها متخرجة من ذات مدرسة النضال والكفاح المسلح، ومن ثقافة التضحية والبسالة والصمود، فأما الهدف الثالث المتفق حوله عربياً فهو الحرص على استقلال العراق وسيادته، والإصرار على خروج القوات الأمريكية وفق الجدول الزمني، وبالنسبة لسورية فقد حققت تفاعلاً ممتازاً مع الحكومة العراقية لتحقيق تعاون أعمق، وأكثر نفعاً للبلدين، وثمة أفق واسع لتمتين هذه العلاقات في المستقبل القريب، وأما العلاقة السورية الإيرانية فهي في نظرنا مفتاح قوة للعرب، لأنها تشكل جسر

تواصل، مع تقديرنا لما بين بعض الدول العربية وإيران من علاقات ثنائية هامة تفوق في بعض جوانبها الاقتصادية ما بين سورية وإيران، ولست أرى أي خطر إيديولوجي أو عقائدي أو عسكري من إيران على العرب، فعلاقات الصداقة والجوار العميقة الجذور في التاريخ أقوى من أن تعصف بها الفتن المفتعلة، ويبقى شأن العلاقات الثنائية شأناً سيادياً لا يحق لأحد أن يتدخل فيه، حيث تختار كل دولة ما يحقق مصالحها الإستراتيجية الخاصة بها، وأجد من الضروري أن يستعيد العرب حضورهم الثقافي والحضاري في منطقتهم الإسلامية فإن غابوا حل سواهم مكانهم وقد حدث ذلك في التاريخ مرات عديدة، مع الاعتراف بأهمية الشراكة في رسم مستقبل المنطقة بين الأمم الأصيلة فيها، أقصد العرب والأتراك والإيرانيين.

حوار الحضارات في استامبول

أنهى منتدى تحالف الحضارات دورته الثانية في إسطنبول، بحضور نحو ألف وخمسمئة شخصية دولية تمثل أكثر من ثلاثة وثمانين بلداً في العالم، ولم يكن هذا المنتدى الوحيد الذي يطرح حوار الحضارات، فالعنوان بات شعاراً طرحته الأمة العربية والشعوب الإسلامية ودول كبرى في العالم، لصد شعار صراع الحضارات الذي أعلنه مثقفون غربيون مهدوا لإطلاق حروب تقليدية ضد بلدان مسلمة (أفغانستان ثم العراق) وحروب غير تقليدية نحو العالم العربي والإسلامي جميعاً ضمن شعار جذاب نال تأييداً دولياً، هو مكافحة الإرهاب. ولم يغب عن أذكياء العالم وقادته الكبار أن جريمة ١١ سبتمبر كانت مدبرة بدهاء لحشد تأييد شعبي أميركي أوروبي ثم عالمي من أجل إقامة تحالف دولي لمحاربة الإرهاب الذي كان المقصود الفعلي به هم المسلمون المتطرفون، وكان لابد من إيجاد قاعدة لهذا التطرف، فكانت منظمة «القاعدة» التي هي بقايا تنظيم عسكري إسلامي أسسته الولايات المتحدة لمحاربة الاتحاد السوفييتي في أفغانستان. والحكاية أشهر من أن نحتاج إلى تلخيصها، لكنها بحاجة ماسة ودؤوبة لتوضيحها وربطها بالظروف الممهدة، فقد تلاقت سلسلة من الاحتياجات الصهيونية والأميركية والأوروبية (الملحة) لمواجهة عدة أخطار بعضها (قائم) وبعضها (قادم) وبعضها (متوقع).

أما الخطر القائم، فهو شعور إسرائيل بالعجز المطلق عن مواجهة المقاومة العربية، فقد انتهى القرن العشرون بهزيمة صاعقة للمشروع الصهيوني، ولم يكن أمام إسرائيل سوى الانسحاب السريع (والمريع للمحتلين) من جنوب لبنان، وتلت هذه الهزيمة محاولة شارون امتحان وجود أمة إسلامية فعلاً، وتبين حقيقة ارتباط المسلمين في العالم بالقدس، فكانت نتيجة اقتحامه للمسجد الأقصى مذهلة ومدهشة حتى للمسلمين أنفسهم حين فوجئ العالم بحجم الغضب الذي عبرت عنه شعوب إسلامية كانت غائبة حتى عن عين المسلمين العرب. بل إن أوروبا ذاتها اشتعل فيها لهيب الغضب. وفي الأرض المحتلة واجه شارون انتفاضة الأقصى التي عززت حضور مقاومة ضارية، واضطرت إسرائيل في الوقت الذي كانت تخطط فيه لامتلاك الشرق الأوسط الكبير لأن تكتشف أنها انكفأت وراء جدار بنته بنفسها وتقوقعت خلفه، واستعاد قادتها إدراكهم الجاد لخطر أن ينبري الإسلام لمواجهة مشروعهم الديني التوراتي. حيث لم يكن العرب يريدون تقديم الصراع العربي/ الإسرائيلي على أنه صراع أديان، وكانوا يحرصون في كل أدبيات الصراع على التفريق بين اليهودية بوصفها ديناً وبين الصهيونية بوصفها حركة سياسية علمانية عدوانية استيطانية

ـعية،

وما يزالون يحرصون على هذا التفريق، وقد استلهموا هذا الموقف من أجدادهم حين واجهوا الحروب

الصليبية قبل ألف عام فرفضوا أن تنسب إلى الصليب لأنه رمز ديني، وسموها حروب الفرنجة، والأجداد والأحفاد يستلهمون موقفهم من دينهم الإسلامي الذي يحضهم على احترام الديانات السماوية والإيمان بالرسل جميعاً.

وإزاء مواجهة إسرائيل هذا التحول النوعي في شكل المقاومة العربية التي صارت بعض فصائلها تستمد شرعيتها ودوافعها من القرآن تماماً كما يستمد دوافعه من التوراة حزب «شاس» (حركة حراس التوراة) وغودات إسرائيل وديغل هتوراة وموريا وقد تجمعوا في يهودت هتوراة (يهودية التوراة) وسواهم من الأحزاب المتدينة مثل «الليكود» الأصولي الذي تمخض عن «كاديما» (ومعناه إلى الأمام) كل ذلك جعل إسرائيل بحاجة ماسة لمحاربة الإسلام ومواجهة وتشويه صورته، والبحث عن ذرائع لحشد دولي ضده، فكانت جريمة سبتمبر في نيويورك، التي استدعت الولايات المتحدة لشن حرب بدأت في أفغانستان بعيداً عن الأرض العربية، لكنها مكنت إسرائيل من تحقيق هدف بارع هو الخلط بين المقاومة والإرهاب، حيث انبرى بيريز على الفور ليرد على بعض الأوروبيين الذين لم يقبلوا هذا الخلط، بل ليقمعهم بقوله: «لا يوجد إرهاب جيد وإرهاب سيئ».

وأما الخطر القادم وهو الذي دعا إلى التواطؤ الغربي والدولي ضد الإسلام، والصمت على اتهام العرب والمسلمين خاصة بالإرهاب وبأن دينهم يدعو إلى العنف، فضلا عن الدعم العلني والخفي لإطلاق حملة تشويه صورة الرسول الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام في بلدان الغرب، فهو القلق العام من ازدياد حضور الإسلام في أوروبا وأميركا، وانفتاح الشعوب على الثقافة الإسلامية ولاسيما بعد انهيار النظريات الفكرية العالمية مع سقوط الاتحاد السوفييتي، وبعد الخواء الكبير الذي وصلت إليه فلسفات غربية شهيرة من الدادائية والسريالية والوجودية والعدمية والتحليلية والتفكيكية والبنيوية إلى الحداثة (بوصفها قطيعة مع الماضي) وقد وصلت إلى ما وراءها دون بيان ماهيته، ثم جاء إعلان النظام الدولي الجديد وظهرت العولمة من ثوبه الفضفاض، وانتفضت شعوب الأرض تقف ضد العولمة على رغم النظرية المضحكة التي سميت «نهاية التاريخ» والتي انتهى مؤلفها فوكوياما إلى إنكارها بعد السقوط الأخير للرأسمالية.

والحقيقة أن شعوب أوروبا وأميركا لم تكن تضيق بحضور المسلمين فيها، بل إن البلديات كانت تساعد الجاليات المسلمة في بناء مساجدها ومدارسها ومراكزها الثقافية، لكن مثقفي الحركة الصهيونية بدأوا يحذرون القادة السياسيين والميدانيين من خطر تنامي الحضور المسلم في بلدانهم، ويذكرونهم بأن الإسلام بات الديانة الثانية في فرنسا، وبأن برلين أوشكت أن تصير أنقرة لتزايد عدد الأتراك المسلمين فيها، وباتت حركات السود المسلمين في أميركا تقدم نفسها على أنها حركة «أمة الإسلام»، وأحسب أن الأوروبيين باتوا يخشون أن تصبح أوروبا مسلمة بعد عقود قريبة كما صارت ماليزيا وإندونيسيا دون حروب أو فتوحات. وقد عبر المتشددون عن رفضهم لانتشار الإسلام في أوروبا منذ المجازر التي شهدتها البوسنة والهرسك حيث استعادت البشرية حروب الإبادة، كما عبر المتشددون عن استيائهم من طلب تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي لأنهم لا يريدون أن يروا جيباً إسلامياً في اتحادهم.

وأما الخطر المتوقع غربياً فهو أن يستعيد الإسلام حضوره في منطقة الشرق الأوسط ويمتد على الخريطة السياسية والعسكرية الدولية، وبعد نجاح التجربة التركية التي قدمت نموذجاً ديمقراطياً متقناً قبله العلمانيون ورضي عنه الأوروبيون المعتدلون، وبعد رؤيتهم لمدى تعلق الأمة العربية بالإسلام الحضاري والثقافي على رغم تعددية أشكال ورؤى أنظمة الحكم، بما فيها الدول العلمانية المنهج، التي ترى في العروبة والإسلام تكاملا وثيقاً، كل ذلك جعل الصهيونية العالمية تمضي في تطبيق شعار صراع الحضارات، وقد قالت النظرية إن الصراع سيتمحور أخيراً حول الحضارة الغربية والإسلامية والكونفوشيوسية، ويبدو أنه ضم الصين للتمويه، فالصين اليوم تصدّر بضائع إلى العالم، ولكنها لا تصدر فكراً، لكن هنتينغتون ضم قبيل رحيله في العام الماضي (الأرثوذكسية) وطالب «الناتو» بأن يكون منظمة أمنية ضد خطر الإسلام والأرثوذكسية معاً. وكان روجيه غارودي قد نبه إلى خطر الدعوة إلى صراع الحضارات منذ السبعينيات، حيث دعا إلى حوار حضاري، لكن رؤية العالم وعقلائه الكبار اليوم لخطر ما انساق إليه التحالف الدولي بما سماه حرباً على الإرهاب إلى حروب إبادة وتدمير، وخطر ما أفرزته حرب أميركا على العراق من حضور إرهاب حقيقي شجعت عليه إسرائيل لإعداد ما سماه مثقفوها الصهاينة «الفوضى الخلاقة» الممهدة لإقامة شرق أوسط كبير تحكمه إسرائيل، كل ذلك جعل الدعوة إلى حوار الحضارات ضرورة ملحة حتى على الصعيد الأوروبي والأميركي بعد أن انقلب السحر على الساحر.

وكان رئيس وزراء إسبانيا ثباتيرو قد دعا بعد مأساة غزو العراق إلى إقامة تحالف حضارات واستجابت الأمم المتحدة، وبدأت سلسلة المنتديات التي جاء منتدى إسطنبول الثاني خطوة مديدة فيها، ولا تخفى على أحد دلالة قيام المنتدى في (إسلام بول، القسطنطينية سابقاً) فهي جسر التواصل بين الشرق والغرب، ولعل أهم ما كان على ضفاف المؤتمر حضور الرئيس الأميركي أوباما وإعلانه المهم «لسنا في حرب ضد الإسلام ونريد شراكة مع البلدان الإسلامية»، ولعل هذا التوجه الجديد نحو مئة عام بلا حروب وبلا تسابق على امتلاك أسلحة التدمير يقود العالم نحو فكر جديد، ولكنه سيبقى كلاماً حتى تذعن إسرائيل للسلام العادل والشامل، فبدون تحقيق السلام في منطقتنا وتخلي إسرائيل عن ترسانتها النووية ومشاريعها الاستيطانية سيبقى الصراع مفتوحاً على نهايات كارثية، ولن يجد العالم ما ينشد من أمن وطمأنينة.

هل يحكمنا التاريخ ؟

لعل من المفارقات المثيرة ما تستمر فيه البشرية من تناقض حاد بين ما تحققه من ذروات التقدم العلمي والتقني، وبين بقائها أسيرة التاريخ وأساطيره وصراعاته التي أراقت الإنسانية في خضمها بحاراً من الدم، وما تسعى إليه اليوم قيادات عالمية متنورة من حوار للثقافات والحضارات لن يجدي نفعاً إن لم تتجرأ هذه القيادات السياسية والفكرية على مراجعة الأساطير التي تبنى عليها إلى اليوم سياسات دول كبرى مثل الولايات المتحدة وبعض دول أوروبا، والمفارقة الأخرى تناقض حاد بين ما تعلنه دول متقدمة كبرى من حرية الرأي والاعتقاد والتعبير وبين ما تمارسه من حجب ومنع وعقوبات حين يتصل الأمر بأساطير أو أقاصيص منحت نفسها حق القداسة مثل أسطورة أرض الميعاد وأسطورة «شعب الله المختار»، والأسطورة المعاصرة (الهولوكست) التي تورط في أواسط التسعينيات روجيه غاردوي فشكك فقط في صحة أرقام ضحاياها فوجد نفسه أمام المحكمة، وكان قد واجه محكمة قبل ذلك لمجرد أنه نشر مقالا في «لوموند» أدان فيه الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، فحروب إسرائيل مقدسة عند بعض الدول المتقدمة مهما كان عدد ضحاياها وفظاعة القتل والتدمير الذي تخلفه. وهي تزعم لنفسها القداسة بوصفها دولة دينية تحمل اسم نبي وتنفذ مشيئة الرب وتسعى إلى إعلان مملكته. وثمة قادة كبار وعلماء أفذاذ في الغرب يترقبون كل صباح الموعد المقدس لحرب الهرمجدون (النووية) التي ظن بوش وتشيني وفريقهما العسكري والفكري أنهم يحققونها في غزو العراق تمهيداً لعودة يسوع ولنهاية التاريخ بانتصار ضخم.

ونحن نستغرب أن يحكم لغو المؤرخين سياسات دولية، وأن يسلم قادة ومثقفون كبار عقولهم لحكايات لم يثبتها علم التاريخ ذاته، وهذا ما شهد به مؤرخون إسرائيليون، مثل يسرائيل فنكلشتاين رئيس المعهد الإركيولوجي في جامعة تل أبيب الذي قال: «لم يظهر التنقيب أي أثر مادي يؤكد رواية التوراة عن الخروج، لقد فقد كتاب التوراة أهميته كمصدر تاريخي، فهذا الكتاب هو وثيقة متأخرة جداً كُتبت فصولها الأولى في القرن السابع وفق منظور لاهوتي وإيديولوجي وسياسي». ومثل زئيف هيرتسوغ الذي كتب: «ما يحصل لنا في إسرائيل هو أننا لا نريد علم الآثار علماً مستقلا، وإنما نريد منه أن يثبت الرواية التوراتية، وهذا معاكس للعلم وللحقيقة التاريخية، وإذا أردنا أن يكون لنا مكان محترم في الأكاديمية العلمية الدولية فعلينا أن نعمل بأحكام العلم لا بأحكام السياسة والأيديولوجيا». وإذا كنا نستنكر وقوع الآخرين في وهم عقائد زيفت عبر التاريخ، فإن الخطر الأكبر عندنا أن ينساق المسلمون كذلك إلى الغرق في صراعات التاريخ، وإلى الخلط بينه وبين الدين، وإلى منحه قدسية دينية على رغم كونه حدثاً سياسياً محضاً، وها نحن أولاء نشهد توترات راهنة تعيشها الأمة وتهدد مستقبلها بسبب بقاء التاريخ السياسي حاكماً، فمعركة صفين مثلا هي

حدث تاريخي لا شأن للدين به، لقد كانت صراعاً على السلطة والحكم، وليست صراعاً على رأي فقهي معين في فهم الدين وأحكامه، فلا أحد ينكر من الفريقين المتصارعين شيئاً من القرآن الكريم الذي احتكموا إليه ولا أحد يشك في شيء مما صح عن رسول الله r . ولقد قلت في مقال سابق، إنني لو كنت يوم الفتنة لوقفت في صف علي (كرم الله وجهه)، فهو أحبّ إلي بعد رسول الله، لكن ذلك لا يعني لي اليوم أن أحمل ضغينة في نفسي على معاوية بن أبي سفيان t ، فقد أصبح هذا الرجل شخصية تاريخية عظيمة لأنه أسس دولة عظمى للعرب وللإسلام. ولئن كان المسلمون قد افترقوا يومذاك إلى شيعة يطالبون بحق الإمام علي في الخلافة، وإلى موالين لمعاوية أو راضين بحكمه، فإن المنطق يقضي بأن ينظر الجميع إلى هذا الخلاف السياسي على أنه حدث تاريخي، نفيد من عبرته، ونتجنب حدوثه ثانية وثالثة، لأن النتائج السلبية لحرب صفين لم تكن قتل عشرات الآلاف فقط من فريقين مسلمين، وإنما كانت شرخاً ما يزال ضاغطاً في وحدة الأمة وفي وجدانها، وانقسامها إلى سنة وشيعة وهما فريقان مسلمان يتبعان ما أنزل على النبي محمد عليه الصلاة والسلام، كتابهما القرآن ونهجهما سيرة رسول الله وأحاديثه، وهما يصليان باتجاه قبلة واحدة، ويحترمان معاً آل البيت الذين كرمهم القرآن الكريم وطهرهم الله **[إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً]**.

وأما الخلافات الفقهية بين السنة والشيعة فهي ليست حكراً عليهما، فالخلاف سنة من سنن الخلق والحياة، وإذا كان المسلمون عبر تاريخهم قد وسعوا الأديان الأخرى وعاشوا بأمان وسلام ومودة وتفاهم مع المسيحية واليهودية والصابئة وسواها من العقائد التي لم يحاربها أحد في الدولة الإسلامية على مر العصور، لأن شعار الإسلام (لا إكراه في الدين) ولأن خطابه حتى للكافرين (لكم دينكم ولي دين) أفَلَيسَ أولى بأن تتسع النفوس لخلافات فقهية داخل الدين الواحد وهي سعة وتعددية وثراء فكري للمسلمين؟ وأنا أدرك أن هذا الموضوع محرج وحساس، لكنني أجد من الضروري أن يبوح الكتاب والمثقفون بما في نفوسهم وعقولهم، وأن نعطي الأولوية للحوار داخل الثقافة الواحدة، قبل أن ننغمس في حوار ثقافات أخرى تأخذ علينا تفكك وعينا الفكري، وخلافنا اليومي حول قضايا ووقائع حدثت قبل ألف وأربعمئة عام، وكثيراً ما سمعت متحاورين يتحدثون بعصبية حول هذا التاريخ كأنه راهن ومعاصر.

ولقد بدأ توظيف مرعب للخلافات المذهبية في بعض مواقع السياسة والفكر، وهذا ما يريح إسرائيل وقد أذكت نار الفتنة فيه منذ قرون عبر ما يسميه الباحثون الإسرائيليات، وهي دس وتحريض يجد عقولا متعصبة مقفلة سرعان ما يسهل استفزازها، وأخطر انعكاسات الفتنة أن تقحم المذاهب الفقهية والطائفية في الواجهة العربية الإسلامية من الصراع مع إسرائيل، مع أن هذه الواجهة بعيدة كل البعد عن التعصب المذهبي الضيق وهي تعيش حالة من التوحد (وتجمع السنة والشيعة في خندق واحد) وأجد من الضروري أن ينهض المفكرون والمثقفون العرب والمسلمون لمواجهة أية شرذمة لقوى المواجهة، وهي لا تتعارض في مهمتها مع المساعي الدبلوماسية نحو تسوية سلمية، بل هي تشكل قوة ومستنداً لأي مفاوض عربي حيث سيكون في غيابها مضطراً للإذعان والقبول بما يعرض عليه من فتات، وهذا ما تريد إسرائيل أن يصير إليه حال الأمة، حين تستبعد الكفاح من أجل تحرير الأرض، وتكتفي بانتظار ما يجود به عليها عدوها، وها هي

ذي تصريحات الحكومة الإسرائيلية الجديدة تقطع الشك باليقين فالخطط التي تسعى إليها (حسب ليبرمان) هي تهجير عرب الـ٤٨ وطردهم من بيوتهم وأرضهم، والاستيلاء الكامل على القدس وإتمام مشروع تهويدها والتوسع في المستوطنات، وأما ما يحدث الآن من اقتحام للمسجد الأقصى فلن توقفه دعوات السلام ولا خريطة طريق تصل إليه، ولا حلم بمشروع دولتين ينقذه من الهدم الذي بات واقعاً.

استعادة مكانة التراث

اختتم في (٢٠٠٩/٥/٨) مؤتمر النشر التراثي الذي عقد في مكتبة الإسكندرية، وقد شاركت فيه مع مجموعة من الباحثين، وكنت قد تابعت العديد من المؤتمرات التي تعنى باستعادة مكانة التراث في حياتنا الثقافية والفكرية، وقد أصبح هذا الاهتمام دولياً بعد أن وقعت دول كبرى على اتفاقية حماية التراث عبر اليونسكو، وقد قمنا كما في العديد من الدول بتشكيل لجان متخصصة لجمع وتوثيق التراث الوطني اللامادي، فضلا عن اهتمامنا بالتراث المادي، ولاسيما بالآثار التي هي في بلادنا العربية ذاكرة للعديد من الأمم لأن أرضنا العربية، وأخص بلاد الشام، شهدت تمازج حضارات شتى، وقد شمل هذا الاهتمام المخطوطات التي هي ثروة فكرية كبرى للأمة، وتتعرض للضياع والتلف، وتحتاج إلى تحقيق ونشر لتكون بين أيدي الباحثين. وأعلم أن شبكة المخطوطات العربية قد أفادت كثيراً من الأتمتة ومن تقنيات المعلوماتية وأن فريقاً جاداً من الباحثين قد تفرغ لهذا العمل الذي وفر المعلومة للدارسين. لكن السؤال الذي يبقى موضع أخذ ورد هو: كيف نفيد من هذا التراث الضخم وكيف نستعيد مكانة التراث في حياتنا الثقافية وسط هذا التدفق الهائل من المعلومات الحديثة، ووسط أسئلتنا الحارة حول ضرورة التخلص من أعباء التاريخ؟

وقد كانت مقالتي السابقة بعنوان «هل يحكمنا التاريخ؟» وهي تعليق على ما يحدث الآن من استحضار مريع لفتن كانت مرتبطة بأحداث تاريخية، ولسوء حظ الأمة تحولت هذه الأحداث إلى حالات تراثية أو عقائدية، بل إن بعضها أخذ مكانة مقدسة من الدين، على رغم عدم وجود أية قدسية دينية له، وعلى رغم قناعتي بوجود واضح وقوي للمؤامرة التي ينكرها كثير من المثقفين، وأزداد قناعة بحضورها عبر ما نتابع من تفاصيل مثيرة لما يطرحه الإعلام أحياناً من ترويج مفتعل ومقصود لأفكار ميتة بهدف إحيائها وتشويه بعض المواقف القومية والوطنية من خلالها، حتى تنهض هذه الأفكار الميتة من سباتها التاريخي وتصير شعلة فتنة، ثم يتم التفاعل معها على أنها حقيقة حية من حقائق العصر. وقد رأينا هذه التفاصيل في الفتن التي مزقت العراق (مثلا) إلى شيع وفرق وأعراق وإثنيات، ولم تكن هذه الأفكار حية في العراق قبل وجود الاحتلال الأميركي. ونحمد الله أن العراق يتجه بعد معاناة مأساوية للخلاص من هذا التشتت والعودة إلى الحقيقة الوطنية والتعددية الثقافية التي احتضنتها العروبة قروناً في اعتدال سمح لها بالعيش المشترك على رغم ما قد نجد من تجاوزات لا تمثل موقف الأمة. والمثال موجود في بلدان عربية أخرى عانت من التمزق الطائفي، ويهددها اليوم زج التراث الفكري مرة أخرى في محترف السياسة.

والحال أننا لم نكن إلى أمد قريب نستخدم في الإعلام أسماء المذاهب، ولم نعتد أن نصنف المسلمين في وسائل الإعلام تصنيفاً مذهبياً بين سني وشيعي، فقد انتهت الفتنة التي قصمت ظهر الأمة منذ قرون،

وسيكون أمراً مخيفاً أن نستحضر (صفين) من التاريخ لنجعلها حاضراً راهناً، وليعذرني من ينكر نظرية المؤامرة إن قلت إن من السذاجة أن نظن أن المسلمين استيقظوا صباحاً فاكتشفوا أنهم شيعة وسنة، فالشيعة والسنة مسلمون، ولئن كان بينهم اختلاف فكري في بعض التصورات أو الآراء الفقهية فقد توافقوا منذ زمن بعيد على الاختلاف لكونه سنة من سنن الحياة. وأما استحضار هذا التصنيف في الإعلام اليوم فهو لابد يقع في إطار مؤامرة كبرى على الثقافة العربية لتحويلها إلى ميدان صراع، وليس مقنعاً أن ما يحدث هو مجرد مصادفة مع ما تعانيه الأمة من مواقف مضطربة.

ولست معنياً هنا بإعلان موقف مما يحدث لأننا نريد للفتنة أن توأد، ونخشى أن تصير موضع أخذ ورد فتكبر وتمتد، والمفجع أن يحل التعصب المذهبي محل الدين ذاته، فكثيراً ما أجد مثقفين علمانيين لا يعنيهم شأن الدين كثيراً، لكنهم فجأة ينقلبون إلى محاورين أشداء يذمون مذهباً ويدافعون عن آخر، وهم غير ملتزمين بشيء من الفرائض المتفق عليها بين كل المذاهب. وقد تابعت في الصحافة العربية قدحاً وذماً وشتماً وتحريضاً مذهبياً بأقلام كُتاب أعرف أنهم غير معنيين بالفكر الإسلامي كله. وهنا أعود إلى مطلع حديثي عن مؤتمر نشر التراث، لأن ما كان فيه هو البديل الذي ينبغي أن تعنى به الأمة، وهو التراث العلمي العربي الإسلامي الذي يعيد للعقل العربي ثقته بنفسه، ويقدم للأجيال نموذجاً مما ينبغي أن يجعلوه رسالة ثقافية لهم. والمؤسف أن ينصرف بعض الكتاب والإعلاميين إلى فكر الفتن والاختلافات الميتة فهم بذلك يعمدون إلى قتل العقل العربي وإعادته إلى جدليات طواها الزمن، ويهملون التجربة العلمية الفذة التي سمحت للأمة بأن تتسع لكل أنواع التعبير في فترات الازدهار الفكري. ولقد قفز إلى ذاكرتي في حديثي في مقدمة المؤتمر خالد بن يزيد الذي فضل عرش العلم على عرش السياسة، حين أدرك وهو في ريعان شبابه أهمية أن ينقل إلى العربية فكر وعلوم اليونان فاستحضر مدرسة الإسكندرية وعلماءها الكبار إلى الشام ليبدأ أول ترجمة مبرمجة في تاريخ الحضارة العربية. ولم يعن خالد بالخلافات المذهبية على قربه الزمني الشديد منها، بل إنه وهو الخليفة الذي لم يجلس على عرش الخلافة لصغر سنه، أحب ابنة الزبير وتزوجها حين كان أعمامه يحاربون ابن الزبير، وجلس في المدينة المنورة تلميذاً أمام الإمام جعفر الصادق غير معني بالخلاف (السياسي) بين الإمام وبين دولة بني أمية، ولم ينكر عليه بنو أمية ما فعل بل دعموه مالياً في مشروعه الضخم الذي تفرغ له حين عاد إلى حمص، وما يزال كثير من هذا التراث العلمي مجهولاً، وكثير منه موجود في مكتبات العالم، وفي بيوت ورثت كتباً عن الآباء قد لا يعرف الأبناء قيمتها.

ولا ينكر علماء تراثنا اليوم أن الغرب سبقنا إلى نشر تراثنا والتعريف به، ولاسيما حين ظهرت الطباعة، ولئن كنا نريد لهذه الأمة أن تنهض من عثراتها التي تهددها بالاندثار والدخول في حروب مفتعلة مع أبناء ثقافتنا عبر تحريض مذهبي أو فكري مضمونه سياسي بحت، فإن الواجب يقضي بأن نترك من التراث والتاريخ ما قد نختلف حوله، وأن نركز الجهد لإحياء تراثنا العلمي. ولئن كان العلم الحديث قد تجاوزه فإن حسبنا منه أن نحافظ عليه كما نحافظ على الآثار، وأن نستلهم منه التجربة الحضارية التي تشكل اليوم هويتنا الثقافية والفكرية.

نحــن وتـركيــا

ما يجمع العرب بالأتراك جدير بأن يجعل الأمتين تحققان حضوراً إقليمياً ذا شأن، ولقد عبرت زيارة الرئيس عبد الله غول الأخيرة إلى سوريا (في الخامس عشر من مايو ٢٠٠٩) عن تنامي إدراك البلدين لأهمية التعاون المشترك بينهما في كل الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فسوريا بوابة تركيا نحو الشرق العربي كله، وتركيا بوابة إلى أوروبا جغرافياً وتجارياً، ويشكل البلدان نوعاً من التكامل الاقتصادي، والتواصل الاجتماعي التاريخي، فبينهما تاريخ طويل مشترك منذ أن دخل الأتراك في الإسلام أواسط القرن الثالث الهجري في زمن الدولة السامانية، وقد دخلوه طواعية بعد وصول جيوش الفتح لبلاد ما وراء النهر في آسيا بثلاثة قرون، وكان بعضهم قد دخل الإسلام في زمن الفتح. وقد أصبح الأتراك من أهم الأمم التي دافعت عن الإسلام، وظهر منهم قادة كبار شاركوا في معارك العرب والمسلمين مثل معركة عمورية الشهيرة ومعركة الحدث الحمراء، ثم في حطين وفي عين جالوت. والأتراك قادمون من تاريخ آسيوي عريق فقد حكموا الصين على ضخامتها نحو ألف عام، وحكموا الهند وروسيا وإيران. ثم أقاموا في القرن الحادي عشر الميلادي الدولة السلجوقية التي حكمت أفغانستان وإيران ثم امتدت إلى البلاد العربية. وأقاموا الدولة العثمانية العتيدة التي ظهرت آخر القرن الثالث عشر واستمرت إلى أوائل القرن العشرين، وقد حكمت مساحات شاسعة من العالم القديم من آسيا الصغرى إلى السودان وقد امتدت إلى البلقان بعد الأناضول، ثم إلى وسط أوروبا. وقد شاخت هذه الدولة العظيمة منذ أواخر القرن التاسع عشر، بعد أن تعرضت لعوامل عديدة ساهمت في انهيارها السريع. وعلى رغم أن العرب كرهوا ما حل بهم من إهمال وظلم في عهدها، لكنهم يحتفظون في ذاكرتهم القومية بموقف شهير للسلطان عبد الحميد الثاني يقتضي الوفاء أن نذكره له على رغم كل المآخذ التي كتبت عن فترة حكمه، فقد أعلن موقفاً حازماً ضد المشروع الصهيوني ورفض ما عرضه عليه «هرتزل» من أموال ودعم سياسي أوروبي وغربي مقابل أن يسمح بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وما يزال رد عبد الحميد الصارم يهز وجدان المسلمين جميعاً فقد قال: «لا يدخلونها إلا على جثتي». وقد دخل اليهود إلى فلسطين على جثته.

والأتراك اليوم أوفياء لهذا الموقف الشريف، وقد أشدت به في مؤتمر عام عقد في إسطنبول في العام الماضي بمناسبة الاحتفال بذكرى الدستور العثماني الثاني، وأحسب أنني أعطيت للرجل بعض حقه في خطاب ألقيته في عاصمته بعد مئة عام من التعمية التاريخية الدولية على موقفه، فكان اهتمام الصحافة التركية بما قلت واهتمام من التقيت من كبار المثقفين الأتراك معبراً عن وجدان أصيل ما يزال يحفظ هذه

المكرمة ويستوحيها. وقد بدا ذلك في موقف البرلمان والشعب التركيين من الحرب على العراق حيث رفضا استخدام الأراضي التركية في العدوان على دولة مستقلة وشعب جار، وهذا موقف شريف ستبقى الأمة العربية تذكره. وكذلك كان الموقف التركي النبيل من العدوان الإسرائيلي على غزة حيث عبر الأتراك عن إخائهم مع العرب، وعن تمسكهم بالحق، ولن تنسى أجيال العرب ما قال رجب طيب أردوغان لبيريز في «منتدى دافوس»، في وقت كان فيه بعض العرب لا يجرؤون على إعلان موقف مع أمتهم!

وقد تمكنت تركيا في هذه المرحلة المهمة من تاريخها المعاصر أن تقدم نموذجاً فذاً في الجمع بين الثقافة الإسلامية العريقة، وبين الحداثة الأوروبية، عبر حفاظ متين على علمانية الدولة وعلى ديمقراطية الحكم، وعلى البعد القومي. وقد أصبحت تركيا عضواً في «الناتو» منذ عام ١٩٥٢، ولعل الأتراك أدركوا أن مجالهم الحيوي الضخم هو في الشرق حيث الشعوب التي تشاطرهم الثقافة والتاريخ، وأقرب الشعوب إليهم هم العرب، وأقرب العرب إليهم السوريون، فهم الجيران الأقربون. وقد تمكنت سوريا من تحويل أسباب التنافر مع تركيا (ولاسيما أواخر التسعينيات) إلى أسباب جذب، وتحولت المناطق المتاخمة إلى ميادين تواصل، وأقبل السوريون والأتراك على بناء علاقة وطيدة وصادقة تخدم مصالح الشعبين، ووصلت العلاقة الحكومية الرسمية بينهما إلى سوية العلاقات الشعبية والاجتماعية المعززة بالمصالح التجارية والاقتصادية تاريخياً. وشكل حل قضايا المياه مفتاحاً مهماً لتعزيز العلاقات الرسمية، وأفسحت الصلة الجديدة للحكومتين أن تلعب تركيا دوراً مهماً في المفاوضات غير المباشرة مع إسرائيل، وقد توقفت هذه المفاوضات بسبب العدوان الإسرائيلي الأخير على غزة وبسبب عدم وجود شريك جاد للسلام.

وقد عبرت سوريا عن ثقتها بالوسيط التركي النزيه، وأعلن الرئيس الأسد في خطاب رسمي أن تركيا لاعب أساسي لا يمكن تجاهله في أية عملية سلام قد تنطلق في المستقبل، وعبر عن كون التمسك بالجولان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً باستعادة الحقوق الفلسطينية كاملة بما فيها القدس وعودة اللاجئين، وهذه رسالة واضحة عن رؤية سوريا للسلام، وفيها تأكيد على الدور التركي المستقبلي. وقد خرجت العلاقة بين سوريا وتركيا من العلاقات الثنائية إلى أفق إقليمي عبر مشاريع مشتركة تخدم المنطقة كلها، ولاسيما في مجالات الطاقة وبخاصة الكهرباء والغاز. والآفاق القادمة مفتوحة لمشاركات متوقعة من إيران والعراق حيث بوسع هذا التلاقي الإقليمي الرباعي أن يجعل من المنطقة واحدة من أهم بقاع العالم.

وكانت الزيارة الحكومية المهمة التي قام بها رئيس مجلس الوزراء السوري محمد ناجي العطري إلى بغداد على رأس وفد حكومي كبير (أواخر أبريل ٢٠٠٩) بعد نحو ثلاثة عقود من الغياب قد أبرزت إرادة سياسية مشتركة بين الحكومتين السورية والعراقية على تنمية التعاون في كل الميادين وبخاصة الاقتصادية وكثير منها له بعد إقليمي، وستعزز هذه العلاقات السعي الدؤوب إلى ترسيخ الاستقرار في المنطقة مما ينعكس بشكل إيجابي على مستقبل الأمة العربية وحل القضايا الساخنة. وستسهم في إطفاء أية حرائق مفتعلة يمكن أن يشعلها الإسرائيليون الذين يسعون إلى تمزيق المنطقة.

وأحسب أن الولايات المتحدة ستقدر الدور التركي المستقبلي في إحلال السلام، وهو دور قابل للتطور،

وسيمهد بقوة لتحقيق ما تعلنه الولايات المتحدة، إن كانت جادة، من تمسك بخيار السلام وخيار الدولتين، بل وتقديم مصداقية للخطاب الأميركي الجديد للعالم الإسلامي، حيث أعلن الرئيس أوباما أمام البرلمان التركي «أن الولايات المتحدة ليست في حالة حرب مع الإسلام». وقد رأينا زيارته ومشاركته في منتدى إسطنبول لتحالف الحضارات تأكيداً إعلامياً على جدية رغبته في تصفية الخلافات الأميركية مع قضايا المنطقة عبر الحوار، وهذا ما يزعج إسرائيل التي لا تستطيع العيش والاستمرار إلا في مستنقع الدماء، وعلى رغم أن الولايات المتحدة لم تمض إلى الآن مع الجموح الإسرائيلي المتشوق إلى الحرب، إلا أنني أخشى أن تورط الحماقات الإسرائيلية كل البشرية في حرب مفاجئة سيكون خطرها كارثة على الجميع.

نحن وأصدقاؤنا الأرمن

كان الأرمن جيراني حين سكنت في حي الميدان أثناء دراستي الثانوية في حلب، وكنت أشعر بإعجاب شديد بهم، وأتعاطف مع مأساتهم الإنسانية التي تشبه مأساة شعب فلسطين، لقد قدموا إلى سوريا هاربين من المذابح مطلع القرن العشرين، فتلقاهم الشعب السوري بالمحبة والرعاية ووفر لهم الأمن والاستقرار، وقد عاشوا في البداية حياة بائسة، إلا أنهم سرعان ما نهضوا بمستواهم المعيشي من خلال براعتهم في الصنعة حتى بات أهل حلب يفضلون الميكانيكي الأرمني على سواه، وكانوا بارعين في شتى المهن والعلوم، فقد عرفنا منهم أطباء ومهندسين لامعين، مثلما عرفنا أدباء وفنانين كباراً، والمتتبع لدورهم في مهجرهم العربي يجد أنهم أسهموا معنا بقوة في النهضة الاجتماعية والأدبية، وأسسوا العديد من الجمعيات والنوادي وشكلوا الفرق الغنائية والمسرحية، وهم بالطبع مواطنون سوريون يتمتعون بكل حقوقنا المدنية، فهم ممثلون في البرلمان ويخدمون في الجيش وبعضهم وصلوا إلى مناصب قيادية عليا في القوات المسلحة وفي مواقع سياسية، وهذا الانفتاح العربي على الجاليات غير العربية دون حساسية ليس حديثاً وليس حكراً على سوريا، فنحن نذكر أن أول رئيس وزراء في مصر كان أرمنياً وهو بوغوص نوبار باشا في دولة محمد علي، الذي هو كذلك لم يكن عربياً، وقد شكل نوبار الحكومة المصرية ثلاث مرات في أواخر القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من حفاظ الأرمن الشديد على خصوصياتهم الثقافية (اللغوية والدينية) دون أن يضارعهم أحد في تمسكهم بقوميتهم ولغتهم، فإن ثقافتهم باتت جزءاً من النسيج الاجتماعي المزركش المعبر عن ثراء التعددية التي تعيشها سوريا، وكان من اللطيف أن يطمح لخلافة صباح فخري على عرش غناء القدود الحلبية فنان أرمني هو الذي عرف باسم شادي جميل، وأن تكون أشهر أغنية كوميدية غناها دريد لحام لمحبوبته الظريفة (فطوم حيص بيص) تلك التي يقول فيها (فطوم فطومة، خبيني في بيت المونة) لحناً أرمنياً شهيراً، وهناك فنانون مشهورون في الوطن العربي أصلهم أرمن مثل الفنانة لبلبة والفنانة نيللي وأختها الطفلة فيروز التي أبهرت عشاق السينما في أدوارها مع أنور وجدي، وفي سوريا اليوم حضور قوي للفرق الموسيقية الأرمنية التي تلقى دعماً رسمياً واحتضاناً جماهيرياً، وقد حفزتنا هذه العلاقة الفريدة بين العرب والأرمن إلى الحفاظ عليها مع الأجيال الشابة في جمهورية أرمينيا، فدعونا السيدة هاسميك بوغوسيان وزيرة الثقافة الأرمنية لزيارة دمشق، فلبت الدعوة مشكورة في (أواخر نوفمبر تشرين الثاني ٢٠٠٨) وترأست وفداً ثقافياً رفيع المستوى لإقامة أيام الثقافة الأرمنية في سوريا، ولمشاركتنا احتفاليتنا بدمشق عاصمة الثقافة العربية،

وكان صديقنا الدكتور أرشاك بولاديان سفير أرمينيا بدمشق، وهو باحث أرمني سوري، كنت تعرفت

إليه حين التقينا سفيرين في أبو ظبي قبل بضع سنين، قد أعد لوزارة الثقافة السورية كتاباً لطيفاً فيه موجز مختصر لتاريخ العلاقات العربية الأرمنية، التي تحدث عنها بالوثيقة المعرض الأثري الذي اغتنى بمجموعات من النقود الأموية المسكوكة في أرمينيا، فضلاً عن المخطوطات النادرة التي تعود إلى القرون الهجرية الأولى.

لقد استعادت هذه النفائس من ذاكرة التاريخ عصوراً من العلاقة الحميمة بين العرب والأرمن، ففي القرن الأول قبل الميلاد امتدت إمبراطورية (ديكران) ووصلت إلى سوريا وفلسطين، وقد أنهاها القائد الروماني بومبيه الذي أخضع أرمينيا لنفوذ بيزنطة، ومع ظهور الإسلام، وصلت الفتوحات الإسلامية إلى أرمينيا في عام ٨٥٠م وقد احترم المسلمون الأوائل عقيدة الأرمن الدينية (وهم من أوائل المسيحيين) وعقدوا معهم أفضل الصلات، ويذكر المؤرخ الأرمني البرفسور فلاديمير بدروسيان أن العرب المسلمين أقاموا أول دولة أرمنية في تاريخ الشعب الأرمني، وهذا السلوك العربي الحسن يبرر عمق التواصل الأرمني مع سوريا وبلاد الشام ومصر منذ العصر الأموي، وأعتقد أن أمام الأجيال الشابة مسؤولية تنمية هذه العلاقات في عالمنا الذي ينبغي أن يكون أكثر انفتاحاً من الماضي.

الثقافة العربية وجلد الذات

مرة أخرى ينعي أدونيس الثقافة العربية ويقول إنها في حالة انقراض، وهو بذلك يعود لإذكاء معارك نقدية في الثقافة العربية فقد رد عليه كثير من الكُتاب وبعضهم رأى أنه يفتعل الأزمات كي يبقى موضوع حوار. وأنا أجد الحوار مفيداً فثقافتنا بحاجة إلى ما يذكي جذوتها الملتهبة تحت الرماد، ولكنني لا أحب أن تأتي المواقف العدمية التي لا ترى سوى حكمها المسبق من كاتب عربي بحجم أدونيس، وأرفض المعايير التي يحكم فيها على ثقافة ما بالحياة أو الحيوية وعلى أخرى بالموت والانقراض. وأحسب أن من هذه المعايير حضور هذه الثقافة المعنية في الغرب بخاصة، بل يبدو كأن المطلوب هو رضا الغرب عن ثقافة ما كي تنال الاعتراف بأنها حية! وما أخشاه أن يستعيد بعض العرب «عقدة الخواجا» التي راجت في مطلع القرن العشرين، وأن يعود بعض العرب إلى الانبهار بثقافة الغرب، وأحسب أن ذاك الانبهار كان يمكن تبريره بالنظر إلى الفارق الحضاري الكبير بين العالم العربي الخارج لتوِّه من العهد العثماني المريض، وبين أوروبا التي بلغت ذروة في نهضتها العلمية وحكمت العالم بقواها العسكرية آنذاك. وأعتقد أن وضع العالم العربي على الصعيد الثقافي قد تغير كثيراً خلال السنوات الخمسين الأخيرة، ولم يعد مبرَّراً للمثقف العربي أن يعيش مرة أخرى حالة انبهار أمام ثقافة أوروبا العجوز التي تحولت إلى تابع صغير للثقافة الأميركية التي تحولت بدورها إلى تابع أصغر لثقافة الصهيونية. وها هو ذا العالم أمامنا، وفيه مثقفون أوروبيون وأميركان كبار يرون منذ مطلع القرن الحادي والعشرين تنامي سيطرة الصهيونية المطلقة على حكوماتهم وعلى إعلامهم واقتصادهم، وترويجها لأكاذيب مريعة من طراز جريمة سبتمبر إلى خزعبلات مسوغات الحرب على أفغانستان والعراق، إلى الحرب الظالمة على لبنان ثم غزة، ولا تكاد إلا فئة ضعيفة قليلة العدد تجرؤ أن تنتصر للحق!

وللأسف وجدنا في فرنسا ذاتها عدة محاكمات تعرض لها غارودي لمجرد أنه أطلق أسئلة تتعلق بالحقيقة، وبعيداً عن السياسة نجد ثقافة الغرب تفقد تحت يافطة الحرية المطلقة كثيراً من قيمها السامية ويصير الموضوع الأكثر حضوراً فيها والأوسع ميداناً لنيل شرف عضوية الحداثة الغربية هو العمل على قضية الشواذ جنسياً كأن العالم أنهى قضايا الفقر والبطالة والحرية السياسية وسواها من القضايا الكبرى. ونحن نذكر كيف قامت قيامة مثقفين في أوروبا انتصاراً لمجموعة شواذ ألقي القبض عليهم في مصر، في وقت كان فيه أطفال غزة يموتون جوعاً من حصار ظالم دون أن نسمع موقفاً أوروبياً إلا ما ندر! ولا داعي للاستفاضة في تقديم أمثلة عن التردي القيمي الذي تعاني منه أوروبا ويشكو منه عقلاؤها، وهو ما يجعلني على خلاف رأي أدونيس أجد ثقافة الغرب هي المهددة بالانقراض، وليست الثقافة العربية التي يكفيها تعبيراً عن قوة حضورها أنها صمدت وحدها في وجه الأساطير الصهيونية الكبرى، وقاومت المشروع

الصهيوني حين انحنى له كثير من الكبار.

وحسب ثقافتنا أنها رفضت الذوبان في ثقافة أخرى، كما حدث لأمم كبرى نسيت لغتها، وصارت الإنجليزية لغتها الرسمية، وتعمل ثقافتنا اليوم بقوة على استعادة مشروعها القومي على رغم وجود من يصدر شائعات عن موتها وعن انقراض ثقافتها، وقد أصرت على عروبة العراق حين حاول الآخرون سلخ جلده العربي، وأصرت على حق الفلسطينيين، حين احتشد العالم لنزع حقوقهم، وأصرت على المقاومة حين سماها العالم إرهاباً، ودافعت بقوة عن مشروع الإسلام الحضاري حين سماه الآخرون تطرفاً، وتمكنت من أن تفضح التطرف الدخيل على الإسلام حين كشفت مصادر تمويله، وقوة دفعه من أيام ظاهرة «الأفغان العرب» إلى آخر عمليات التفجير التي تستأجر لها شبكات «الموساد» من يفجرون ويقتلون كي يقولوا فعلها مسلمون، وقادة أوروبا يعلمون أن الهدف هو محاربة حضور الجاليات المسلمة في الغرب. وللأسف سيعد أدونيس ذاته من هذه الجاليات حتى لو غير اسمه مرة ثانية، فالصهاينة يكرهون الحضور العربي والإسلامي في أوروبا وأميركا، ولاسيما بعد أن رأوا أن عامة الأوروبيين لا يتضايقون من هذا الحضور، بل كان الأوروبيون يقدمون المساعدات للجاليات المسلمة كي تبني مساجدها ومراكزها الاجتماعية وتعزز حضورها اللغوي والثقافي، وتتيح لها منابر إذاعية وصحفية، مما جعل الصهاينة يشعرون بالخطر من هذا التعاطف الأوروبي مع القضايا العربية. ومن المعروف أن الاختراق الصهيوني للثقافة الأوروبية قديم جداً، ولكنه لم يكن طاغياً قط كما بدا منذ بداية القرن الجديد وإعلان بوش حروبه الصليبية ضد الإسلام التي يحاول اليوم أوباما التهدئة من لهيبها عبر إعلانه أن الولايات المتحدة ليست في حرب مع الإسلام.

والمهم أن حرية التعبير في بعض بلدان أوروبا ضاقت إلى درجة أن مجرد انتقاد إسرائيل صار جريمة يعاقب عليها القانون وتضاهي معاداة السامية. ولا يعني انتقادي لتبعية الثقافة الأوروبية وفراغها الروحي التدريجي من القيم إنكاراً لإنجازاتها الضخمة ولاسيما في ميادين العلم التي سبقتها فيها دول أخرى لا يملك شعراؤها وفنانوها شهرة الأوروبيين، ولكن هذه الإنجازات لا تشعرني بوصفي عربياً ومسلماً بالدونية والصغار إلى درجة إعلان انقراض ثقافتي. وإذا قيل إن أدونيس يتحدث عن الثقافة بوصفها رواية وديوان شعر، فأدونيس يعلم أن الثقافة التي يتحدث عنها أوسع من ذلك، وحتى في هذه الأجناس الأدبية والفنية أجد تقدماً واسعاً بالقياس مع ما كان في بعض الأنشطة العامة. والوفود الأوروبية التي تكثر زياراتها الاطلاعية لبلادنا تشهد بما تجد من إنجازات.

وإذا كان أدونيس قد صب انتقاده على المؤسسات الثقافية فإن العلة ليست فيها وحدها، وإنما هي في حالة الفقر الإبداعي التي تعيشها الأمة بعد رحيل الكبار، ففي مصر مثلا لم نجد إلى اليوم من أخذ مكانة شوقي أو رامي أو ناجي، ولن نجد في وقت قريب من يأخذ مكانة محفوظ. وفي سوريا لن نجد بسهولة من يملأ الفراغ الذي تركه رحيل بدوي الجبل وعمر أبي ريشة ونزار وونوس والماغوط، ولن نجد كذلك من يعوض الجواهري والبياتي والشابي، وفي الموسيقا الأخوين رحباني وعبد الوهاب وأم كلثوم وسواهم كثير في المشرق

والمغرب. وهؤلاء الكبار ما يزالون حاضرين في ثقافتنا، وسيبقون وسيأتي يوم تلد الأمة أمثالهم. وأعتقد أن النمو الأفقي للثقافة العربية سينعكس إيجاباً على النمو العمودي، وأنا متفائل بمستقبل الثقافة العربية ما دامت ترتكز على عمودين غير قابلين للانهيار هما العروبة والإسلام.

وعلى رغم أنني أختلف مع أدونيس فكرياً إلا أنني أحترم نشاطه الثقافي وأرجو أن يجند مكانته لدعم الثقافة العربية والإسلامية وليس للترويج لانقراضها، فنحن ندفع الملايين عبر برنامج العواصم الثقافية العربية لدعم حضورنا الثقافي في العالم، وليت أدونيس يوظف ثقافته وحضوره الأوروبي للدفاع عن أمته كما فعل إدوارد سعيد، وعندها سينال جائزة الأمة إذا فاتته نوبل، ولا أنكر استيائي الشخصي من توصيفه لدمشق في حديث تلفزيوني أجراه مؤخراً بأنها مدينة مغلقة، وقد استعمل تبريراً لذلك كونها مكتملة! نعم هي مكتملة وناضجة جداً ولكنها أفق مفتوح عبر التاريخ، وحسبها شرفاً أن أفضل أحيائها اسمه «حي المهاجرين» الذين فتحت لهم قلبها فصاروا أبناءها المخلصين، وكنت أظن أنه سيشيد بما فيها من أمن وطمأنينة على رغم وجود عشرين نوعاً أو يزيد من الشرائح التعددية التي أشاد بوجودها في عاصمة أخرى.

خطاب المستقبل المضطرب

لم يفاجئني شيء في خطاب نتانياهو فموقفه من السلام معروف، ولكنه باح ببعض ما كانت تخبئه إسرائيل من رؤية إستراتيجية للمستقبل، وهو خطاب يفرض على العرب عامة وعلى الفلسطينيين خاصة أن ينتهوا من التفاؤل الحذر أو التشاؤم المنفرج بسيل الخطابات والتصريحات التي تلقى عليهم كل يوم، وهي ترسم لهم صورة غدهم وتطمئنهم إلى أنهم إذا أحسنوا ترويض الشرسة إسرائيل وكسبوا رضاها فستعطف عليهم وتمنحهم شيئاً ما من حقوقهم.

ولقد أوضح نتانياهو أنه يريد من العرب استسلاماً كاملا مقابل دويلة شكلية منزوعة السلاح والسيادة، روحها بيد إسرائيل التي تتحكم بكل شيء فيها من مائها إلى طعامها إلى مصيرها. ولابد أن في رؤية التفاصيل ضرورة تحديد النسل الفلسطيني، كما أوضح نتانياهو رفضه لحق اللاجئين في العودة، ورفضه وقف الاستيطان بوصفه نمواً طبيعياً، ولا حق للفلسطينيين في أرض إسرائيل! وبالطبع كان واضحاً في رفضه أي حق للفلسطينيين في القدس فهي عنده عاصمة أبدية لإسرائيل وحدها، وهو يضع شرطاً مسبقاً لأية مفاوضات مقبلة، حيث يطلب اعترافاً مسبقاً بالدولة اليهودية وبالمجان!

والمفارقة أن بعض القادة في المجتمع الدولي وجدوا في خطاب نتانياهو خطوة مهمة نحو الأمام لمجرد أنه تفضل وتكرم بإعلان القبول بدولة فلسطينية، مما يجعل المرء يسأل: على أي شيء إذن كانت تدور المفاوضات الإسرائيلية مع الفلسطينيين منذ أن بدأت عملية التسوية؟ وهذه الرؤية التي وضعها نتانياهو لمستقبل السلام تعني بوضوح رفضاً للمبادرة العربية، وهذا الرفض ليس مفاجئاً فما سمي بمفاوضات الحل النهائي كان مستبعداً دائماً، لأن الإسرائيليين كانوا يستهلكون الوقت في المفاوضات لفرض وقائع يصعب تغييرها، وهم الآن يوشكون على الانتهاء من تهويد القدس، وأما مستوطناتهم فقد أكلت كل الأرض فلم يبق للفلسطينيين ما يفاوضون حوله. وقد أحكمت إسرائيل الحصار على الشعب الفلسطيني غير عابئة بشيء مما دعتها إليه المجتمعات الدولية والإنسانية التي عقدت قمماً واجتماعات دولية استخفت بها إسرائيل، ولم يحاسبها على موقفها أحد، فهي الآمرة الناهية التي يتزلف إليها قادة كبار في العالم، وهذا ما يفسر المواقف التي أشادت بالخطاب لأن انتقاد نتانياهو مكلف، وبالطبع لم يكن مفاجئاً كذلك تأييد غالبية الإسرائيليين لخطاب نتانياهو، فالجيش الإسرائيلي الذي يقتل ويفتك يمثل هذا التفكير العنصري الذي عبر عن عقيدته ضابط إسرائيلي سأله المحقق العسكري الإسرائيلي عن سبب قتله لأطفال فلسطينيين في عمارة في غزة فقال قتلتهم لأنهم عرب، واقتنع المحقق بالمبرر!

إن هذه الوقائع التي تفرض نفسها تجعل منطقتنا مهددة بحروب قادمة ودمار كبير، وعلى رغم أننا نريد السلام ونسعى إليه وندعو الله أن يجنب بلادنا العربية والعالم كله شر الحروب فإننا ينبغي أن نفهم أن خطاب نتانياهو يقلب مائدة السلام ويفتح المزيد من العدوان على الحقوق العربية، وإذا كان مطمئناً إلى أن هذا الجيل العربي أضعف من أن ينتزع حقوقه بيده، وقد بذل الكثير لكن العالم كله يكاد يقف مع إسرائيل التي تدعمها الولايات المتحدة ودول كبرى في أوروبا، فإن الليالي حبالى كما تقول العرب (يلدن كل عجيبة)، وهذه الأجيال وارثة لحق لا يموت، والعرب يؤمنون بأنه لا يضيع حق وراءه مطالب، وسلوك إسرائيل سيحفز الأجيال القادمة على مزيد من التمسك بحقوقها. وسيكون واهماً من يظن أن استناد إسرائيل إلى دعم مطلق من الولايات المتحدة يضمن لها المستقبل، على رغم تأكيد الرئيس أوباما أمام العرب في القاهرة التزام بلاده بضمان مستقبل إسرائيل، وتأكيده على أن علاقة الولايات المتحدة مع إسرائيل غير قابلة للكسر، ولئن كان أوباما قد قدم نوعاً ما من التوازن في خطابه، فإن خطاب نتانياهو كسر الحد الأدنى منه وأطلق العنان للتطرف. لقد تجاهل نتانياهو كل الحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني، وتجاهل أن اليهود اغتصبوا فلسطين وجعلوها دولتهم قبل عام واحد من يوم ولادته، وهو يظن أن إسرائيل بعد ستين عاماً من قيامها بسرقة الأرض العربية تمكنت بنجاح من جعل القضية الفلسطينية قضية الفلسطينيين وحدهم، وأخرجت العرب من المواجهة، وهي تعمل على إقناعهم اليوم بأنها وإياهم في خندق واحد. وهو يتجاهل أن إسرائيل جربت في عهد أسلافه باراك وشارون وأولمرت القضاء على من يعاندون إرادتها فلم تفعل سوى أنها قتلت ودمرت وظهرت أمام العالم وحشاً فاتكاً، ولكن المتمسكين بحقهم ازدادوا صلابة وقوة وإصراراً، وسيتابع أطفالهم المسير على طريق التضحية وقد صار طريقاً إجبارياً لن تجد الأجيال بديلا عنه ما دامت إسرائيل لا تقدم لهم غير الموت والتشريد والتجويع. ولم يعد بوسع أحد أن يقنع أصحاب الحقوق بأن طريق السلام مفتوح، فالسلام الذي تحدث عنه نتانياهو هو استسلام وإذعان مهين، والدولة التي وعد بأن يوافق على إقامتها دويلة وهمية، وأما رفضه الصريح لحق اللاجئين في العودة فهو رفض لقرارات الشرعية الدولية، ورفضه لإيقاف الاستيطان استهانة بالموقف الأميركي نفسه، وطلبه الاعتراف المسبق بإسرائيل اليهودية مبالغة في الغطرسة. بل إن التأكيد على الجانب الديني في طبيعة إسرائيل سيشجع على نشوء أضداد من ذات الطبيعة، ولئن وقف العرب والمسلمون صامتين في انتظار الفرج القادم من وراء البحار، فإن صورة المستقبل ستزداد سوءاً وسيمنحون إسرائيل مزيداً من الفرص لفرض وقائع جديدة. وعلى صعيد شعبي يدرك الوجدان العام أن ما يتم طبخه عبر مسرحية الخطابات هو في النهاية ترسيخ التوطين، والعمل على تشريد وتهجير فلسطينيي الـ٤٨، ولولا أن الحكومة الإسرائيلية لم توافق على مشروع ليبرمان بقسَم الولاء ليهودية إسرائيل (والواضح أنها أرجأته) لوجدت إسرائيل المبرر لطرد كل فلسطيني المعتقل. وقد يحدث ذلك وقد تقوم إسرائيل بقضم المزيد من أراضي الضفة، فنتانياهو ممن يؤمنون بأن الضفة الغربية، هي يهوذا والسامرة والقدس، وفي الكتب المدرسية الإسرائيلية تدرس على أنها أرض إسرائيل التي وحد أسباطها داود الذي احتل الأرض وانتزعها من اليبوسيين، وقد اطلعت على كتاب لباحثة إسرائيلية اسمها «رنا هبرون» تؤكد فيه للطلاب والقراء أن اليهود هم وحدهم أصحاب الحق في يهوذا والسامرة وأنه حق توراتي، ومثل هذا المنطق يضع المتفائلين من العرب - بكون الخيار السلمي خياراً وحيداً لا يحتاج إلى دعم من المقاومة - يشعرون بالحرج، وإذا كان أوباما مضطراً لأن يشخص الخطر في

المنطقة على أنه خوف أطفال إسرائيل من صواريخ غزة، فإن العرب يدركون أن الخطر الحقيقي هو ترسانة نووية إسرائيلية قادرة على أن تهدم العواصم العربية والأوروبية معاً. ولقد أشار أوباما إلى مأساة اليهود الذين عانوا من الهولوكست، وهذه حقيقة لن تهرب منها أوروبا لأن الحقد اليهودي المتطرف سيبقى يجلد الأوروبيين بسياط المحرقة، ولن ينسى أن أوروبا أذاقت اليهود هذا العذاب. وأن ما دفعه ويدفعه الأوروبيون من حساب العرب تكفيراً عن هذه الجريمة لن يكفي، والمفارقة أن الأشد تطرفاً من نتانياهو من أعضاء «الكنيست» وأعضاء «الليكود» عبروا عن شعورهم بالصدمة لأن نتانياهو ذكر كلمة دولة فلسطينية، ولقد تابعت بعض التعليقات الإسرائيلية على الخطاب فوجدت فيها ما يضحك مثل قول «آرييه إلداد» من الاتحاد الوطني: «إن نتانياهو فقد قيادة معسكر اليمين لأنه وافق على دولة فلسطينية منزوعة السلاح، إنه يريد أكل لحم خنزير مذبوح حسب الشريعة اليهودية، ولكن هذا غير موجود».

كنيس أمام الأقصى

أعتقد أن وزراء الثقافة العرب قد وفقوا اختيارهم للقدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩ وقد قرروا ذلك في مؤتمرهم الذي انعقد في مسقط عام ٢٠٠٦، وتكبر أهمية الاحتفال بالقدس بخاصة في هذه المرحلة التي تشهد فيها المدينة المباركة أوسع حملة تهويد، فقد صعّدت حكومة أولمرت مشاريع الاستيطان في القدس مستفيدة من حالة المراوغة والجمود التي فرضتها على السلطة الفلسطينية، وهي متأكدة من أن وعد الرئيس بوش في إقامة دولتين كان لمجرد ترويج سياساته، كما أن التصعيد في تهويد القدس كان رسالة استهتار من إسرائيل إلى العرب الذين أعلنوا مبادرة للسلام لم تلق رداً عملياً إلى اليوم، كما أن إسرائيل تسارع إلى فرض الأمر الواقع وتحاول بكل الوسائل محو أي وجود عربي في القدس لتسبق أية مفاوضات مستقبلية وتجعل العرب يفقدون حضورهم ثم تضطرهم إلى التنازل عن شعار القدس عاصمة أبدية لفلسطين، كما أن إسرائيل أقامت الجدار العازل، وطوقت الأحياء العربية، وعزلت القدس عن محيطها العربي الفلسطيني، ومن بقي من الفلسطينيين في القدس لم يعد بوسعه التواصل مع أشقائه الفلسطينيين في المناطق الأخرى، كما أن معاملة إسرائيل لسكان القدس العرب معاملة قاسية تجعلهم سجناء داخل أحيائهم المطوقة مما يجعل مستقبل الحضور العربي في خطر مريع، ونحن نذكر أن شارون قال في خطاب شهير إن القدس لنا ولن نسمح بأن تكون ملكاً للأجانب «يقصد العرب»، وأما بيريز فقد طالب بتهجير جماعي للعرب من القدس، وأصدقاء إسرائيل في الكونغرس الأمريكي يسعون منذ زمن بعيد للاعتراف بالقدس عاصمة أبدية للدولة العبرية، ولا تزال في الولايات المتحدة نداءات من اللوبي الصهيوني القوي تطلق لنقل سفارة الولايات المتحدة إلى القدس، على الرغم من أن قرار مجلس الأمن ٢٤٢، وهو الأساس القانوني لعملية السلام يقضي بأن القدس الشرقية والضفة الغربية وقطاع غزة هي من الأراضي المحتلة عام ٦٧، وينبغي أن تعيدها إسرائيل إلى أصحابها الفلسطينيين، وعلى الرغم من أن سيلاً من القرارات الدولية قضت بتفكيك المستوطنات مثل قرارات مجلس الأمن ٦٤٤ و٤٦٥ و٤٧١ وتقارير لجنة ميتشل فضلاً عن تقارير جيمس بيكر القديمة إلا أن إسرائيل لا تهتم لذلك كله، فهي ماضية في اقتلاع القدس من أصحابها العرب، وتسعى إلى انتزاع اعتراف دولي بكونها عاصمة للدولة العبرية، وكانت إسرائيل بوصفها دولة دينية تبحث عن جذور لم تجدها إلى اليوم كي تجد شرعية ما لإثبات حق تاريخي لليهود في القدس، وهي لم تجد أي أثر إلى اليوم ولن تجد، رغم أنها حفرت وفرغت ما تحت المسجد الأقصى فبات مهدداً بالانهيار، وقبل ثلاثة أعوام نادى متطرفون إسرائيليون باقتحام المسجد الأقصى وهدمه وبناء الهيكل الثالث مكانه، وقد بلغ الاستهتار الإسرائيلي بالعرب والمسلمين حده الأقصى في شهر تشرين الأول «أكتوبر» حين

أعلنت إسرائيل عن بناء كنيس يهودي أمام المسجد الأقصى، وقد بنته على وقف إسلامي معروف باسم «حمام العين»، وهو يبعد بضعة أمتار عن المسجد المبارك في المنطقة الواقعة بين حائط البراق وسوق القطانين ويرتبط الكنيس مع محيط الأقصى ومع ما تم الحفر تحته بشبكة أنفاق وقد سمي الكنيس «أوهل يتسحاق».

وأعتقد أن إعلان القدس عاصمة للثقافة العربية منذ مطلع العام ٢٠٠٩ سيصعد الاهتمام العربي الشعبي والرسمي بالقدس، ذاك أن للقدس في قلب كل عربي مسلم أو مسيحي مكانة مقدسة، وحسبنا أن نتذكر عواصف الغضب العارمة التي انطلقت في العالم كله يوم اخترق شارون مسجدنا فأطلق شرارة الانتفاضة الثانية، ويومها أدرك أن العرب مسلمين ومسيحيين موجودون بقوة في العالم، وأن الأحلام الصهيونية بامتلاك القدس هي مجرد أوهام عابرة في التاريخ.

مؤتمر القدس في العهد العثماني

حين زرت مركز أرسيكا (للتاريخ والفنون) في إستامبول عام ٢٠٠٨، وهو تابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، فوجئت بحجم وأهمية ما يمتلك هذا المركز من وثائق تتعلق بالقدس في المرحلة العثمانية، وبالسوية العالية للأبحاث والدراسات والكتب التي يصدرها، وقد كانت لنا في سورية أنشطة متعددة مع المركز، من أهمها المؤتمر الذي انعقد عام ٢٠٠٥ بعنوان (بلاد الشام في العهد العثماني) وقد صدر كتاب هام يضم وثائق وأدبيات هذا المؤتمر، وقد أطلعني صديقي الباحث الأستاذ خالد أرن مدير المركز على بعض مقتنيات المركز من وثائق القدس، فعرضت عليه أن نقيم مؤتمراً لدراسة هذه الوثائق لعرضها على المجتمع الدولي، لأنها تكفي وحدها لفضح ادعاءات الصهيونية حقاً في القدس، فما بالك إن استحضرنا تاريخ عشرة آلاف عام من الحضور السوري الفلسطيني القديم، ثم العربي الكنعاني مقابل ادعاء الصهيونية دولة يهودية لسبعين عاماً في تاريخ ديني لم يجد الآثاريون الإسرائيليون إلى اليوم دليلاً مادياً عليه، ومع ذلك نحن لا نجادل فيه، لأننا نؤمن بما جاء في الكتب السماوية ونصدق كل ما يذكره القرآن الكريم عن بني إسرائيل، وقد كانت القدس قبلة المصلين الأولى، ومكانتها سامية عند عرب الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولهذا كان الإسراء العظيم إلى بيت المقدس حدثاً هاماً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أفردت له سورة في القرآن الكريم، وحين فتح المسلمون القدس كان الكنعانيون سكانها العرب الأصلاء، وكان الديانتان اليهودية والمسيحية موجودتين في ظل الدولة البيزنطية المحتلة للأرض العربية، وقد قامت على أطرافها في جلق الشام دولة تابعة لها هي دولة الغساسنة العربية الأصيلة التي تدين بالمسيحية، وقد حرر العرب المسلمون القدس من الاحتلال البيزنطي ولكنهم ابقوا لكل الديانات والإثنيات حضورها ومكانتها، وهذا ما كان مزية الحضارة العربية الإسلامية التي لم تدخلها يوماً مشاعر عنصرية، ولم تفرض عقائدها على أحد بل احترمت المعابد والكنس والكنائس، وبقي الحال على ذلك في القدس قروناً حتى جاء الغزو الصليبي فدمر القدس، ولم يكن مضاداً للحضارة الإسلامية فحسب، وإنما جاء مح

التي وقفت ضد الاحتلال مع أبناء قومها العرب المسلمين، وحين حرر صلاح الدين القدس، وأعاد للمسجد الأقصى حريته وسيادته، عادت القدس مدينة لكل الثقافات والديانات مفتوحة لكل من يقدسها، يمارس فيها حرية اعتقاده وحرية تعبيره، وقد بقيت كذلك في العهد العثماني، وقد اهتم الخلفاء العثمانيون بالعمارة الإسلامية في القدس،وقد وصل هذا الاهتمام ذروته في عهد السلطان سليمان القانوني الذي جدد بناء المسجد الأقصى، وبنى المزيد من الأسوار والأسواق والخانات والمدارس، كما تم الاهتمام بتطوير البنى التحتية التي توفر خدمات للسكان في شبكات المياه والصرف الصحي، وعلى الصعيد الثقافي بنيت المكتبات

التي حفظت تراث القدس وإبداع الباحثين والعلماء الذين أضافوا للثقافة العربية ما أصبح ثروة جديرة بأن نحافظ عليها، وهي تتعرض اليوم للضياع والدمار.

ولقد حرصنا في مؤتمر القدس في العهد العثماني على إضاءة ما حققته القدس من مكانة ومن حضور عربي وإسلامي ومسيحي وانفتاح لكل الثقافات حتى اللحظة التاريخية التي بدأت الصهيونية فيها التحرك العدواني نحو فلسطين، يوم جاء هزتزل يطلب من السلطان عبد الحميد الثاني أن يمنحه أرض المسلمين في فلسطين ليقيم فيها وطناً لليهود، وسنبقى نذكر للسلطان عبد الحميد (رغم كل الملاحظات على تاريخ تلك المرحلة) موقفه الشهم النبيل حين قال قولته الشهيرة: (لن يدخلوها إلا على جثتي) وقد دخلوها على جثته، ولكن الحق الذي يبقى أصحابه يطالبون به حق لا يموت، وقد تعرضت القدس لاحتلالات عديدة، وغزتها شعوب عدة، ولكنها كانت دائماً تعود إلى أهلها، وستعود لأمتها العربية المسيحية والإسلامية مهما طال زمن الاحتلال.

القدس ومسؤولية المجتمع الدولي

يبدو الصمت الدولي مريباً حول ما تقوم به إسرائيل من تهويد علني ومبرمج للقدس، ومن تصعيد لخطط الاستيطان رغم كل الالتزامات الدولية بمنعه، ونجد من الضروري الآن القيام بعمل إعلامي ثقافي نوعي لتحريك الرأي العام العالمي لمواجهة ما يجري في القدس، وقد أقمنا في دمشق في الأسبوع الأخير من شهر يونيو ٢٠٠٩ مؤتمراً دولياً بالتعاون مع مركز آرسيكا في استانبول للبحوث، لدراسة الوثائق العثمانية التي تبين ما كان عليه حال القدس عمرانياً يوم بدأ هرتزل يدعو إلى تنشيط الهجرة اليهودية وإقامة دولة يهودية في فلسطين، وعبر دراسة هذه الوثائق تبدت الصورة النشطة لما كانت عليه القدس خلاف الصورة النمطية التي كانت تخفي الحقيقة النضرة للحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية في القدس، كما تبدت أهمية المعالم العمرانية التي ينبغي الحفاظ عليها لأنها ذاكرة المدينة المقدسة، مثل السور الذي بناه السلطان سليمان القانوني والذي بلغ طوله مع أبراجه نحو أربعة كيلومترات ونصف، وفيه من الزخارف الإسلامية ما يزيد على خمسمئة قرص مزخرف فضلاً عن اللوحات الحجرية الكتابية، كما أضاءت هذه الوثائق سجلات محكمة القدس الشرعية ودفاتر التحرير العثمانية التي أرخت للأرض وللحجر وللبشر وللأموال، واستعادت الوثائق ذاكرة التعليم في القدس والمؤسسات الخيرية التي كانت تنشط فيه، وهي تكشف انفتاح القدس لكل البعثات التعليمية الأجنبية التي بدأت تنتشر وتكبر بشكل أشعر الدولة العثمانية بالخطر من أهدافها في مطلع القرن العشرين، وكانت أهم مدارس القدس الإسلامية تلك المحيطة بالمسجد الأقصى، أو المتصلة به مثل الصلاحية والدويدارية والأشرفية، كما قدمت لنا الوثائق سجلات الأوقاف الإسلامية والمسيحية وأشارت إلى أسبلة المياه وإلى التكايا والمدارس الوقفية التي كانت تقدم خدمات اجتماعية جلى، وأشارت إلى البيمارستان الأيوبي الذي بناه صلاح الدين واستمر في عمله الطبي حتى نهاية العهد العثماني، وكان من أكثر ما تأملته الوثائق تلك الكتابات والزخارف في قبة الصخرة وفنون الخط العربي فيها، كما أشارت إلى المخطوطات التي تحدثت عن القدس والتي كتبها رحالة عرب وأجانب، وكان من أهمها وصفاً للقدس (سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس) لمصطفى أسعد الدمياطي الذي أرخ للمدينة في القرن الثامن عشر الميلادي، والحديث يطول عما قدمته لنا تلك الوثائق من حقائق ينبغي أن تكشف للمجتمع الدولي ولأصحاب القرار الذي خدعتهم آلة الإعلام الصهيوني حين طمست معالم العمران العربية والإسلامية والمسيحية من القدس، فقد هدمت قوات الاحتلال مؤخراً ألف وسبعمئة منزل ليصل عدد المنازل التي تهدمت إلى تسعة آلاف منزل منذ الاحتلال عام ١٩٦٧ فضلاً عن الأراضي التي صادرتها إسرائيل وهي تتابع بناء الأبراج العالية التي تنافي النسيج العمراني وتشوه محيط المسجد الأقصى، وصمت المجتمع الدولي غير مبرر على هذا التحدي الإسرائيلي، فمن لا تأخذه الغيرة على القيم الدينية المقدسة

مطالب بموقف من أجل الحفاظ على التراث الإنساني والعجيب أن منظمات دولية مثل اليونسكو تتدخل في رقابة المباني الأثرية في كل المدن ذات القيمة التاريخية ولكننا لا نرى أي تدخل حول الجرائم الكبرى ضد الآثار التي ترتكب في القدس وأوابدها مسجلة على لائحة التراث العالمي، ويعني تهويدها طمس كل تاريخ مسيحي وإسلامي عريق فيها. وقد تابعنا باهتمام ما قدمه الشيخ تيسير التميمي في كلمته في المؤتمر من معلومات ميدانية وهو يستثير الهمم ولاسيما همة منظمة المؤتمر الإسلامي للقيام بواجب ديني وإنساني، والمطلوب ممكن كما أعتقد، فهو حملة عامة لدفع المجتمع الإنساني ومنظماته غير الحكومية لاتخاذ موقف حازم تجاه ما تفعل حكومة الاحتلال الإسرائيلية فهي تتابع اليوم حفريات جائرة تهدد المسجد الأقصى، وتسعى إلى حلم أسطوري هو بناء الهيكل المزعوم مكانه، ويبدو أن الحكومة الإسرائيلية تعيش حالة نادرة من الغرور والغطرسة فلا تعنيها قرارات الشرعية الدولية ولا تعنيها تقارير وتوصيات اللجنة الرباعية، وهي تلهو بما سمي خارطة الطريق، وآخر المطاف جاء خطاب نتنياهو رفضاً صريحاً لخطاب أوباما في القاهرة حين أعلن إصراره على الاستمرار بتوسيع المستوطنات بذريعة النمو، واعتبار القدس عاصمة لإسرائيل غير معترف بأي حق عربي أو إسلامي أو مسيحي أو إنساني، وكانت الأنباء قد كشفت منذ شهور عن تحالف بينه وبين حزب إسرائيل بيتنا الذي يرأسه المتطرف ليبرمان (قبل تشكيل الحكومة الجديدة) يقضي بتوسيع مستوطنات في الضفة الغربية مثل معالي أدوميم، حيث سيتم بناء ثلاثة آلاف وحدة سكنية شمال القدس، كما تستعد إسرائيل حالياً لبناء أحياء استيطانية داخل القدس الشرقية في حي الشيخ جراح، وثمة تهديد بهدم منزل مفتي فلسطين المرحوم الشيخ أمين الحسيني، ويقال إن هناك خطة مبرمجة لدى الحكومة لهدم كل منازل العرب في المنطقة الشرقية من القدس بحجة عدم وجود تراخيص، وأما أبو ديس فقد تهودت عبر مشاريع البناء الخاصة باليهود، ويستمر المستوطنون بالهجوم على أهالي القدس بهدف إجبارهم على الرحيل، فقبل مدة قريبة هوجمت حارة السعدية، وقام إسرائيليون بسرقة الأحجار الأثرية من القصور الأموية جنوب شرق المسجد الأقصى في منطقة الخاتونية، وفي كل ساعة تحمل إلينا الأخبار نبأ مؤلماً عما يحدث في القدس من ظلم وطمس للهوية وتهجير للسكان الأصليين أصحاب الحق الشرعي الذي أقرته كل الشرائع قبل أن تقره الأمم المتحدة، وبما أننا نحتفل بالقدس هذا العام عاصمة للثقافة العربية فإن السؤال البسيط الذي ينبغي أن نطرحه على المجتمع الدولي وقادته: هل يرضيكم طمس معالم حضارية عربية وإسلامية ومسيحية وتحويل القدس إلى مدينة يهودية صرفة وهي التي كانت عبر التاريخ كله مدينة الأديان السماوية كلها، وملتقى الثقافات؟ إننا مطالبون بإقامة حملة دولية لإنقاذ آثار القدس وعمرانها التاريخي، ولإنقاذ هويتها المسيحية والإسلامية من الضياع، وعلينا أن نفيد من التوجهات السياسية التي أعلنها أوباما ضد الاستيطان وهذا الموقف الأمريكي ليس جديداً، فمنذ أيام جيمس بيكر كانت الإدارة الأمريكية تدرك خطر ما تفعل إسرائيل وكونه يشكل عائقاً حقيقياً أمام السلام، نذكر قول بيكر عام ١٩٩١ في الكونغرس (في كل مرة أذهب فيها للبحث في عملية السلام يواجهني الإعلان عن بناء مستوطنات جديدة، وهذا يخالف سياسة الولايات المتحدة) وقد تابعنا مؤخراً إلغاء اجتماع بين نتنياهو وميتشل بسبب موقف نتنياهو من تجميد المستوطنات، والطريف أن نتنياهو هو الذي طلب الإلغاء، لكن الإدارة الأمريكية وعدت بحملة لإقناع الكونغرس باتخاذ موقف، وبالطبع علينا ألا نسلم الأمر لأوباما ونقعد

منتظرين نتائج حملته التي نخشى أن يطلب من العرب ثمناً لها هو قبول التطبيع الكامل مقابل تجميد الاستيطان وبذلك يضيع حق العودة وتضيع القدس نهائياً، ويعتبر وقف الاستيطان إنجازاً جديراً بثمن باهظ، وهذا ما يدعونا إلى تكثيف حملة إعلامية وثقافية وسياسية في العالم تقودها منظمة المؤتمر الإسلامي والجامعة العربية وكل الجامعات والمنظمات والمراكز الثقافية الدولية تحت يافطة الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية مع الإفادة من الموقف الأمريكي والأوروبي الرافض للمستوطنات رغم كون هذا الرفض كلامياً محضاً لم يرق إلى اليوم إلى حد اتخاذ مواقف عقابية للضغط الجاد على إسرائيل.

حق العودة في السينما والتلفزيون

طرح مؤتمر حق العودة الذي انعقد في دمشق بتاريخ ٢٣ و ٢٤/١١/٢٠٠٨ بحضور أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة شخصية عربية ودولية، جملة أسئلة مهمة على الثقافة العربية في ندوات أتيح لي أن أشارك في رئاسة جلسة منها كان موضوعها (حق العودة في البعد الفني والدرامي)، وقد شارك في الندوة الأستاذان محفوظ عبد الرحمن وعبد العزيز مخيون، وكان مؤسفاً أن نجد ضعفاً مريعاً في التعبيرات الفنية العربية عن القضية الفلسطينية عامة، وكنت قد تابعت مجريات ندوة ثقافية أقيمت في نقابة الصحافيين المصريين في القاهرة في نهاية «أكتوبر ٢٠٠٨» تناولت حضور القضية الفلسطينية في الأعمال الدرامية العربية، ووجدت في المقترحات التي قدمها المنتدون رؤية عملية جديرة بأن تدرس جدياً من المسؤولين عن دراما التلفزيون، وأرجو أن تنال موقعاً من اهتمام الملتقى الرابع للمنتجين العرب الذي أقيم في جامعة الدول العربية في القاهرة، ومن تلك الآراء السديدة التي قدمها المنتدون مطالبة بتوضيح مسؤولية الدراما العربية عن حفظ الذاكرة الوطنية الفلسطينية وتعزيز مفهوم الوطن الفلسطيني، وقد قدم المشاركون اقتراحاً بأن تقام مسابقة فنية لأفضل عمل تلفزيوني يتحدث عن قضية فلسطين، وحفّزت المسابقة المقترحة بأن تكون لأفضل عمل يتحدث عن القدس لأن القدس عاصمة الثقافة العربية للعام ٢٠٠٩، كما كان الاقتراح العملي أن تقوم جامعة الدول العربية بإنشاء قناة فضائية عربية تخصص للدراما التي تعالج قضايا الأمة العربية، بحيث تجد تمويلاً عربياً يخلص الأعمال الدرامية الجادة من عبء المنافسة مع الأعمال التجارية التي يقبل عليها المعلنون ضامنين ربح تجارتهم دون النظر إلى الأهداف القومية أو الوطنية، وقد لفت انتباهي انتقاد بعض المثقفين الفلسطينيين لصورة الفلسطيني في الدراما العربية التي كثيراً ما قدمته رجلاً كهلاً يجلس باكياً إلى جدار ينتظر المصير، في تجاهل لعظمة ما قدم الشعب الفلسطيني من تقدم علمي ومن إنجازات ضخمة على طريق التضحية والصمود، وقد تابعت باهتمام رؤية الكاتب الدكتور وليد سيف لكون القضية الفلسطينية منبعاً للأعمال الدرامية، وقد لفت الانتباه إلى استخدام إسرائيل لقضية المحرقة «الهولوكست» لتبرير جرائم إسرائيل وارتكاباتها ضد الشعب الفلسطيني، وكنت قد لفتُّ الانتباه مرات إلى خطورة تقديم الغرب عامة لقضية فلسطين وكأنها نزاع على ملكية عقار، دون النظر إلى البعد الأيديولوجي في الرؤية الصهيونية المؤسسة على جملة أساطير، وعلى العقيدة العنصرية التي ينهض عليها الفكر الصهيوني، وما يكنه من حقد تاريخي على الآخر، والنظرة الدونية للأمم والشعوب الأخرى «الغوييم» التي يجب أن تكون بخدمة شعب إسرائيل، بوصفه شعب الله المختار، وقد ظهرت هذه العقائد الصهيونية في تجليات عديدة، كان آخرها فكر المحافظين الجدد الذي ينهل رؤيته من «النيتشوية» المجدة للقوة والتي لا ترى حقاً لغير الأقوياء، وهذا ما يفسر غياب المنطق عن سياسة القطب الواحد التي أوصلت البشرية إلى حافة الحروب

الكبرى والانهيار الاقتصادي العالمي، وفي العودة إلى الحديث عن قضية فلسطين في دراما التلفزيون، كان لابد من الاعتراف بالتقصير الرسمي في دعم الأعمال التي تناولت هذه القضية بجدية، فقد امتنعت عدة فضائيات عربية عن عرض المسلسل السوري الضخم «التغريبة الفلسطينية» لوليد سيف وهو عمل يمكن اعتباره أفضل عمل فني درامي قدم عن القضية الفلسطينية، كما غاب عن العروض انتشار المسلسل السوري «الاجتياح» الذي كتبه وليد سيف وأخرجه التونسي شوقي الماجري ولم يعرض إلا على قناة عربية واحدة، ولكن الغرب أنصفه حين تجاهلته القنوات العربية، فقد علمت أنه مرشح ليكون واحداً من ثلاثة أعمال درامية عالمية لنيل جائزة «إيمي» الدولية السادسة والثلاثين لعام ٢٠٠٨ وقد تم اختياره من بين خمسمئة عمل درامي، وهو يروي ملحمة اجتياح جنين بقصة واقعية، وكان مسلسل «الشتات» قد عانى أزمة كبيرة في التسويق حيث امتنعت عدة فضائيات عربية عن عرضه لأسباب غير مقنعة، وعبر استعراض نماذج من التعبيرات الدرامية عن القضية الفلسطينية كان لابد من أن نتذكر الفيلم السوري الشهير «كفر قاسم» عن قصة لعاصم الجندي وإخراج برهان علوية، وفيلم «رجال تحت الشمس» عن رواية غسان كنفاني، وفيلم «الأبطال يولدون مرتين» عن قصة علي زين العابدين من إخراج صلاح دهني، وفيلم «عرس الجليل» وفيلم «باب الشمس - الرحيل والعودة» و«الجنة الآن»، وقد لفت اهتمامي حضور قوي لأفلام وثائقية فلسطينية تمكنت من أن تخاطب العقل الأوروبي حين تابعت نتائج مهرجان أفلام فلسطينية عرضت في معهد العالم العربي في باريس، ولم أجد لها حضوراً في دور العرض العربية مثل الفيلم التسجيلي «أحلام المنفى» للمخرجة الفلسطينية مي المصري، والفيلم التسجيلي «من فلسطين، بث مباشر» للمخرج رشيد مشهراوي، وهو فيلم تدور أحداثه حول فريق عمل في إذاعة فلسطين التي دمرها الجيش الإسرائيلي، كما أذكر فيلم «بلد بلانش» للمخرجة ماريز غرغور التي نالت جائزة لمعالجتها قضية الارتباط بالجذور من خلال ذاكرة امرأة فلسطينية مسنة تعيش في الولايات المتحدة ولكنها لا تزال تحتفظ بحق العودة، ويبدو أن السينما الفلسطينية أكثر قدرة على الحضور من المسلسلات التلفزيونية لأنها غير مرتبطة بالقطاع الحكومي الذي يخشى المغامرة بإنتاج أو حتى بعرض مسلسل تلفزيوني قد يزعج إسرائيل، إلا أن العودة إلى التاريخ الفلسطيني الأبعد مثل الحديث عن «صلاح الدين الأيوبي» يبدو منفذاً للتذكير بأصول القضية من أيام حروب الفرنجة «الصليبية»، فقد أنتجت عدة أعمال سينمائية وتلفزيونية عن صلاح الدين، ومازالت هذه الشخصية حية في الوجدان العربي والإسلامي، لأنها حققت تحرير القدس إثر معركة حطين بعد احتلال دام أكثر من مئتي عام، وأعتقد أنه آن الأوان بعد ستين عاماً على النكبة كي نخرج من حالة الصمت الفني والدرامي عن قضية فلسطين، وأرجو أن نجد حضوراً فنياً موازياً لعظمة ما يقدم الشعب الفلسطيني من مقاومة وصبر وتضحيات، وأمامنا تحد كبير بعد الإجماع العربي على الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩، وسيكون مفجعاً وغير مقبول أن نخفق حتى في التعبير عن قضيتنا الكبرى.

نساء من لبنان

أولئك نسوة لا نعرف أسماءهن، لا يظهرن على شاشات الفضائيات، ولا يقرأن الطالع في الأبراج، ولا يتجملن بالمساحيق والأصباغ، ولا يعرفن أسماء مصممي الأزياء، ولا ماركات السيارات والساعات وحقائب اليد والعطور والأحذية، ولا يسألن الله أكثر من الستر والعفو والعافية وحسن الختام، هن لا يعرفن من الحياة مباذخها المترفة، ولذاتها الفاغمة، لكنهن يعرفن من اللذات ومن متع الحياة ما لا يعرفه سواهن، وهو العطاء بلا حدود، وهن في هذه السمة النبيلة مثل الأرض المعطاء التي خرجن من وطابها، تفوح منهن رائحة التراب الندي، وقد حفر الأسى على وجوههن أخاديد حزن عريق، وجلهن ثكالى فقدن أبناءهن وأطفالهن في حمأة السعير الذي صبته إسرائيل على بهاء لبنان ونضرته، فتحولت دماء الطفولة أنهاراً تروي أرضه طهراً، وسقته من دم البراءة القانية في قانا رحيق الحرية وأريج الكرامة، وبعضهن أرامل فقدن أزواجهن في حمى ولهيب القتال دفاعاً عنهن وعن أعراضهن، وبعضهن صبايا صغيرات ودعن أشقاءهن أو آباءهن وكم منهن ودعن الخطيب والحبيب وعقد الزفاف مؤجل حتى يتحقق النصر، فأما الكثرة الغالبة منهن فقد خرجن إلى القتال مع الأزواج والأخوة والأقرباء، فعلن كما فعلت جداتهن على مر العصور، كن مقاتلات في ساحات الموت، يجهزن السلاح والذخيرة والطعام، ويمرضن الجرحى، ويشددن أزر المقاتلين بفيض من حنان الحب وقدسية الواجب وسمو الدين، هن شقيقات الفلسطينيات اللواتي أدهشن الدنيا حين زودن أطفالهن بحجارة أرهقت الإسرائيليين، وأدخلن إلى قاموس الطفولة في الدنيا اسماً تفرد به أطفال فلسطين (أطفال الحجارة) الذين غيروا وجه التاريخ العربي وبهروا الدنيا وما في يدهم غير الحجارة، ولكن خلفهم أمهات هن اللواتي غرسن البطولة في أفئدة أبنائهن وفي عقولهم الكبيرة، وهن اللواتي يعقد على جبهاتهن إكليل غار الانتصار، في فلسطين وفي لبنان وفي العراق حيث تثبت المرأة العربية أنها لا تحتاج إلى تمكين سياسي تدعمه الولايات المتحدة، فالمرأة العربية ممكنة سياسياً وعسكرياً وثقافياً قبل أن يكتشف العالم أمريكا بقرون، منذ أن وقفت الخنساء تفخر باستشهاد أبنائها الأربعة، وقد صار لدى الأمة اليوم مئات الآلاف من الخنساوات اللواتي يحولن جنازات أبنائهن الشهداء إلى أعراس تطلق فيها زغاريد النصر، وهذا لا يعني أننا أمة مازوخية تحب الموت والعذاب، ولكننا أمة كرامة وكبرياء تفضل الموت العزيز على العيش الذليل، أمة حرية وعزة ترضعها الأمهات أبناءهن مع الحليب، ويرثها الأبناء مع الجينات، ولا خوف على أمة فيها أمهات يدفعن أبناءهن إلى ساحات الكرامة ويكتفين بالدموع تفيض طهراً في وداع الشهداء، وهن مدركات أن للنصر ثمناً غالياً من الدماء.

نساء غزة مدارس الصمود

كنا نتحدث عن الخنساء التي فقدت أبناءها الأربعة في معركة القادسية ونقدم سيرتها لأبنائنا نموذجاً مثالياً للمرأة العربية التي تقدم فلذات أكبادها في معارك أمتها، ولكننا نجد اليوم آلاف الخنساوات العربيات اللواتي يقدمن ملاحم من البطولات والتضحيات التي تجاوزت كل ما عرفته البشرية في تاريخها الطويل، وما تقدمه المرأة الفلسطينية في غزة اليوم وما قدمته من قبل من تضحيات وصمود أذهل العالم كله، فقد صبرت على الحصار الظالم وعاشت بلا ماء أو طعام أو أمان، تحتضن أسرتها بالصبر والإيمان، وتشد بعنادها الواعي أزر الرجال، وتمضي معهم إلى ساحات القتال، تناضل وتقاتل وتمرض وتستشهد، وتقدم دماء أبنائها ثمناً للحرية والاستقلال، ورفضاً للخنوع والخضوع للاحتلال، ولقد ورثت نساء غزة هذه الشجاعة والبسالة عن أمهاتهن، فمنذ أن وقعت النكبة المريعة عام ١٩٤٨ نهضت نساء فلسطين بالمهمة الجسيمة، فربين أبناءهن على عقيدة متينة صلبة قوامها حب الوطن والدفاع عن كرامة الأمة وقد نهض الأبناء بالمسؤولية متسلحين بقوة الإيمان، وصدق العزيمة، مدركين أنهم سيتعرضون للقتل والدمار، ولكنهم كانوا واقعيين، فلابد من أن تدفع الشعوب ثمن تحررها، ولم تكتف المرأة الفلسطينية بدورها في الإعداد والتربية والتأهيل، فقد اقتحمت النساء الفلسطينيات ساحات العمل الفدائي بعد نكسة حزيران (يونيو) وبرزت منهن أسماء باقية في الذاكرة مثل ليلى خالد وريما بعلوشة وزهيرة أندراوس، ودلال المغربي وشادية أبو غزالة وخديجة أبو عرن ودعاء الجيوسي ونعمة الحلو وعطاف عليان والقائمة أكبر من أن تحصر، ولقد أسرت عشرات النساء الفلسطينيات وتعرضن للتعذيب في سجون العدو، وحين قامت انتفاضة الأقصى ظهرت أسماء جديدة أثارت دهشة العالم في ما قدمن من ملاحم الصمود، ولا تزال في ذاكرتنا صور الصبايا الفلسطينيات اللواتي لم يحلمن بفارس يحملهن على صهوة حصان أبيض، وإنما حلمن ببراق الفروسية الملائكي يطير بهن إلى الفردوس، فوضعن أرواحهن على أكفهن، وانطلقن إلى الاستشهاد ليزرعن الرعب في قلوب عدوهن، وليثأرن لشعبهن، ونتذكر من اللواتي صنعن أسطورة انتفاضة الأقصى وفاء إدريس ودارين أبو عيشة، وآيات الأخرس، وعندليب طقاطقة، وهبة دراغمة، وهنادي جرادات، ونورا شلهوب وإلهام الدسوقي، وريم الرياشي، وسناء قديح، وزينب أبو سالم، وسواهن كثيرات ممن صرن خالدات في وجدان الأمة، وأجزم أن كثيرات من الصبايا (الغزاويات) ستضاف أسماؤهن إلى قائمة الخلود بعد أن تتوقف إسرائيل عن عدوانها الهمجي على غزة وتظهر قصص التضحيات الأسطورية التي هي سر هذا الصمود الذي بات درساً تتعلم منه شعوب الأرض كيف يكون الدفاع عن الأرض والحق والكرامة، ولقد تابعنا على شاشات الفضائيات صور الأمهات اللواتي يحملن جثامين أبنائهن صابرات محتسبات، وهن يرددن (حسبي الله ونعم الوكيل) لا جزع لا فزع ولا استسلام، ولو جزعت النساء لوهن عزم الرجال، لقد حملت النساء الفلسطينيات إيمانهن عميقاً راسخاً في قلوبهن، وأرضعنه لأبنائهن، فصرن نماذج يقتدى بها،

ولولا هذا الإيمان العظيم لخارت قواهن، ولما تمكنّ من الصبر على الحصار والقتل والتشرد والدمار، فتحية لنساء غزة، الشامخات على الجراح، الصابرات على البلاء، الصامدات يوم الروع، الممتلئات اعتزازاً بكرامتهن، الصانعات مجد الأمة، وهن يخضن المعركة مع أبنائهن وأزواجهن وأشقائهن، وحدهن نيابة عن العروبة والإسلام.

عجوز في جنيف

حين يذكر عيد الأم تقفز إلى ذاكرتي بعض الصور التي حفظتها سنين طويلة لأنها تركت أثراً لا يمحى، وأقدمها في الذاكرة طيف تلك السيدة العجوز التي صادفتها ذات صباح في إحدى حدائق جنيف وكنت أنهل من جمال الطبيعة الآسر، وسكونها الذي يغريك بالبحث عن سامر. كانت تجلس وحيدة في ركن منعزل تنثر الحب للعصافير التي تلتم إليها أسراباً، رحت أتأمل هذا المشهد الإنساني النبيل وقد ذكرني بقول بشار بن برد (يسقط الطير حيث ينتثر الحَبّ، وتُغشى منازل الكرماء) وقد سُرّت العجوز باهتمامي بها وبما تفعل، فدنوت منها فناولتني حفنة من الحب لأشاركها عطاءها للعصافير التي تزقزق فرحاً بهذا العطف. وقادني الفضول إلى سؤالها عن أسرتها فجاء جوابها بصوت هادئ حزين بـ (أن لها ثلاثة أبناء ولكنها لم ترهم منذ سنين طويلة، قلت هل يعيشون بعيداً عن جنيف؟ قالت لا، إنهم في المدينة ولكن لكل منهم عمله وانشغاله) فصمت ولم أشأ التعليق كيلا أذم لها أبناءها العاقين، ولكنها سرعان ما نظرت إلي بأسى مكبوت معلقة: «العصافير أجمل منهم، أنا لم أعد وحيدة منذ أن تعرفت إلى العصافير، أستيقظ لآتي إليها وأطعمها كل يوم، فهي تعرف موعد وصولي، إنها وفية وتحبني».

وفي إحدى زياراتي لموسكو أواخر الثمانينيات كان عليّ أن أغادر الفندق فجراً فمضيت إلى المطعم لتناول الفطور، فلم أجد سوى الخادمات ينظفن المكان قبيل استقبال الزبائن. وقد أثارني كونهن فوق السبعين من العمر، ويبدو على إحداهن الإرهاق والمرض، وقد استوقفتها لأسأله يدعوها إلى العمل في هذه السن؟ فقالت إنها مضطرة كي تنفق على نفسها، قلت: أليس لك أبناء؟ قالت عندي ولدان ولكنني لم أرهما منذ زمن، وكأنها أدركت سؤالي الثاني فاستبقتني بالجواب إنهما يعيشان في موسكو وهما ثريان، وتابعت السيدة العجوز تنظيف المطعم لكنها رأتني واقفاً متسمراً أتابعها وفي عيني إشفاق عليها، فالتفتت إلي وقالت أظن أنك عربي، قلت نعم، أنا من سوريا، رسمت على وجهها ابتسامة حزينة وقالت لقد زرت سوريا في شبابي، وأعرف أنكم تقدسون أمهاتكم، قلت وقد ازددت فضولاً، هل لزميلاتك أيضاً أبناء؟ قالت نعم، ولكنهن مثلي، لم يروا أبناءهن منذ زمن بعيد. وقبل عام تعرفت في بون إلى سيدة مثقفة كبيرة هي فوق السبعين من العمر، كانت تناقشني في الظروف القاسية التي تعانيها المرأة العربية وحين بالغت في تصوير المعاناة قلت: إن ظروف المرأة العربية ليست قاسية إلى الحد الذي تتصورين، فحسب المرأة العربية أن أبناءها يجلونها أفضل بكثير مما تحظى به الأمهات في الغرب، قالت: هناك أبناء محترمون في الغرب يعنون بأمهاتهم، قلت ألك أبناء؟ قالت عندي ولد وحيد، وعلاقتي به ممتازة، إنه يرسل إلي بطاقة معايدة في عيد الميلاد كل عام، ولقد زارني قبل عامين، قلت أين يسكن؟، قالت

إنه جاري.. يسكن في ذات الحي الذي أسكن فيه ولكنني أقدر ظروفه، فهو مشغول بحياته. وطافت بذاكرتي قصة الأرملة التي زارت علي أمين ومصطفى أمين في مكتب جريدتهما (الأخبار) في القاهرة، لتشكو إليهما ما تعانيه من جحود أبنائها الذين ربتهم أيتاماً حتى اشتد ساعد كل منهم فإذا هم يرمونها، يومها دعا الكاتبان الكبيران إلى تخصيص يوم للاحتفال بالأم العربية للتذكير بفضلها، كما يفعل الغرب وبخاصة في الولايات المتحدة التي أقر فيها الكونغرس عام ١٩١٣ تخصيص يوم يكون عيداً للأم، وكان الاحتفال به قد بدأ قبل ثلاثة أعوام في أوكلاهوما، وقد استجابت مصر لدعوة الكاتبين، فاحتفلت بيوم الأم عام ١٩٥٦ ثم تلتها الدول العربية الأخرى واختارت يوم بدء الربيع عيداً للأمهات، مع أن وفرة من الكتاب رفضوا أن يخصص يوم واحد فقط للاحتفال بالأم، وطالبوا بأن يكون أسبوعاً، وبعضهم قال: ينبغي أن تكون حياتنا كلها احتفالاً بفضل الأم، وأنا مع هؤلاء، نستقي جميعاً معنى الطمأنينة والصفاء، من رضا الله ورضا الوالدين.

نساء سورية

هذا عنوان كتاب قدمته مجموعة من الكاتبات السوريات تُعرِّفن بنساء سورية اللواتي قال عنهن نبيل صالح محرر الكتاب (إنهن اللواتي فتحن أبواب مختبر الأنوثة ليتدفق منه كنز الأمة وطاقاتها النسوية المخبوءة منذ قرون) وقد قامت الهيئة السورية لشؤون الأسرة برعاية وتمويل الجزء الأول من هذا الكتاب وهو يضم أبحاثاً عن ثلاثين شخصية نسائية سورية من اللواتي اكتملت تجاربهن، وقد وددت أن أشير إلى هذا الكتاب في مجلة «المرأة اليوم»، لأنه محفز على استكمال الحديث عن نساء العرب، وكان العرب قد ترجموا كثيراً للنساء الشهيرات في تاريخنا العربي، وفي مكتبتنا العربية فيض من الكتب التي تبحث عن الرائدات، ولاسيما في التاريخ الإسلامي، وحسبي أن أذكر هنا كتباً وضعها الباحثون بدءاً من القرن الثالث الهجري تدل على اهتمام الثقافة العربية الإسلامية بحركة المرأة الثقافية خلافاً لما يظنه بعض الباحثين من إهمال وتقصير ربما جاءا في القرون المتأخرة، مثال ذلك كتاب بلاغات النساء للإمام أبي الفضل أحمد بن طاهر، وفي القرن السادس الهجري نجد كتاب الحدائق الغناء في أخبار النساء، وكتاب ابن عساكر في القسم الخاص بتراجم النساء، ويقول المؤرخون إن الحافظ ابن عساكر ترجم لمئة وست وتسعين امرأة، وأخذ الحديث عن ثمانين امرأة، ونجد في القرن التاسع عشر كتاباً بعنوان (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور) للسيدة زينب فواز، ونجد من الكتب المعاصرة الكثير من الكتب التي تؤرخ للنساء العربيات وتعرفن بهن، من كتاب نساء النبي لبنت الشاطئ إلى كتاب أعلام النساء لرضا كحالة، وكتاب نساء في التاريخ العربي لسنية قراعة الذي صدر عن سلسلة كتاب العربي من الكويت، وكتاب نساء العرب الصحابيات لسامية منيسي، وكتاب نساء العرب لكريم عاصي وكتاب نساء فلاسفة لعبد الفتاح إمام، والقائمة تطول، ولكننا لا نكاد نجد كتابات وافرة عن النساء الرائدات في عصر النهضة التي نشطت في سوريا منذ نهايات القرن التاسع عشر، ولهذا أجد أن كتاب (نساء سورية) يسد فراغاً في مكتبة البحث عن حركة المرأة السورية المعاصرة رغم وجود دراسات عنها مثل الدراسة القيمة التي قدمتها الصديقة الباحثة الدكتورة بثينة شعبان في كتابها (المرأة العربية في القرن العشرين) وكتابها (المرأة في السياسة والمجتمع) وبالطبع هناك العديد من الدراسات التي تناولت أدب المرأة أو قدمت دراسات اجتماعية وسياسية واقتصادية، لكننا نفتقد الكتابات الببلوغرافية التي عني بها تراثنا العربي فيما كان يسمى التراجم، وكتاب نبيل صالح ذكي في اختياراته، فهو يبدأ بالباحثة السورية الرائدة ماري عجمي التي عنيت في حياتها بتقديم إبداع المرأة وقد أصدرت في دمشق من العقد الأول من القرن العشرين مجلة بعنوان (العروس) وهي مجلة نسائية كان شعارها (إن الإكرام قد أعطي للنساء ليزين الأرض بأزهار السماء) ومن أبرز النساء السوريات اللواتي يتحدث عنهن الكتاب من اللواتي شغلن موقع الريادة، عادلة بيهم

الجزائري والروائية الراحلة إلفت الإدلبي ومن اللواتي ما زلن يتابعن العمل بنجاح وبراعة ويقدمن الثقافة الحية الراهنة الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية في سوريا والكاتبة الكبيرة كوليت خوري المستشارة الأدبية لرئيس الجمهورية والكاتبة الروائية المبدعة غادة السمان، وقراءة السير الذاتية لنساء من سورية يملأ القلب والوجدان حفاوة بما حققت المرأة العربية عامة، وسنجد الإسهام الأنثوي اليوم يكافئ إسهام الرجال، إلى حد أننا لسنا بحاجة إلى أن يدعونا الغرب إلى تمكين للمرأة فقد مضت المرأة العربية في طريق التمكين بمعونة الرجل ودعمه، ورفضت أي تميّز غير طبيعي يتعلق بالجنس ذكراً كان أم أنثى، والحاجة اليوم هي تمكين المجتمع كله من تحقيق نهضة علمية شاملة، ولابد أن نشكر لهيئة الأسرة السورية جهدها لإصدار هذا الكتاب وأن نشكر الأديبات السوريات الشابات اللواتي قدمن الدراسات في الكتاب عن أمهاتهن الرائدات المبدعات، والشكر لمحرر الكتاب نبيل صالح الذي سبق أن قدم للمكتبة العربية كتاباً مهماً بعنوان (رواية اسمها سورية) وفيه ترجمة لمئة شخصية سورية أسهمت في تشكيل الوعي الراهن للسوريين في القرن العشرين.

نزار قباني شاعرنا

ما أحبت الشام في تاريخها العريق شاعراً كما أحبت نزار قباني، وما عرف الشعر العربي شاعراً سكنته الشام كما سكنت فؤاد نزار: (أنت النساء جميعاً ما من امرأة أحببت قبلك إلا خلتها «كذبا»).

وعشق نزار للشام عشق للأمة العربية كلها، فالشام قلب العروبة التي بارك الله بها وبأكنافها، وقد أدرك العرب هذا الحب الشامي النزاري اليعربي الحميم لهم، فبادلوا نزاراً حباً بحب وعشقاً بعشق، فحفظ الناس قصائده في قلوبهم، ولاسيما تلك التي عبّرت عن آلام وأوجاع العرب، وحين كتب هوامشه القاسية على دفتر النكسة كان ذلك واضحاً في كونه يستخدم الكي المؤلم علاجاً «ومن الكي قد يجيء الشفاء»، وحين أفاق العرب ونهضوا من هوة النكسة وحققوا في حرب تشرين حضورهم أمة ملتمة الشمل قوية العزيمة، كان نزار أجمل من غنى لها: «جاء تشرين يا حبيبة عمري، أجمل الوقت للهوى تشرين، ولنا موعد على جبل الشيخ، كم الثلج دافئ وحنون»، وحين تفجرت انتفاضة أطفال الحجارة، عبّر عن نشوة وثقة بالجيل الجديد، ورجا أطفال غزة أن يعلمونا كيف يكون الشموخ والانتصار، وحين تردى حال الأمة إلى شقاق وشرخ عميق في جسدها الذي وهن، أعلن عن وفاة العرب قهراً مما آل إليه حالهم، ولكنه كان سرعان ما ينفعل مع أية بارقة أمل مع الجيل الجديد، فيهلل لها ويرى مستقبل الأمة من خلالها.

وكان نزار في مطلع شبابه قد انصرف للكتابة عن المرأة وعن الحب، وأساء بعض الناس فهمه، فظنوه شاعر تهتك ومجون، وما ذلك إلا لأنهم لم يألفوا منذ قرون هذا النوع من الشعر المحقق كما سماه طه حسين، وهو الذي ازدان به أدبنا العربي في عصور ازدهاره.ومن يقرأ أدبنا القديم يدرك أن نزاراً كان في شعره الغزلي أعف من الأعشى ومن بشار بن برد ومن الفرزدق ومن أبي نواس ومن سواهم من المحققين، ولكنه اختص دون سواه في أدبنا العربي كله بالتعبير عن مشاعر المرأة ومكنوناتها، فهو أول من حكى باسم المرأة، وطالب بحريتها في الإفصاح عن مشاعرها الإنسانية، وأول من تجرأ على كشف المستور في مشكلات المرأة العاطفية والنفسية، وكانت تلك القصائد المحرمة مثل «حُبلى، ومطر ومثيلاتهما» تخبئهن النساء في حقائبهن، ويدركن أن نزاراً كان الأصدق والأجرأ في التعبير عن مكنوناتهن.

وما أظن شاعراً عربياً عبر عصور الأدب العربي حظي بالمكانة التي حظي بها نزار في أمته، فحتى الذين هجاهم في قصائده كانوا يحتفظون بهذه القصائد، بل يحفظونها، لأنه لم يهج يوماً أحداً هجاء شخصياً، وإنما كان يهجو موقفاً أو سلوكاً يعيبه، ويريد أن تتخلص منه أمته.

كان نزار صادقاً، لم يتزلف في شعره يوماً إلى أحد، ولم يمدح أحداً من الساسة والقادة والأمراء في

حياتهم، بل إنه عاش أقرب إلى المعارضة السياسية الوطنية الشريفة التي تسعى إلى التغيير وإلى الإصلاح وإلى الأفضل.

وحسبنا أن يبقى نزار صوتاً عذباً رقيقاً يضوع منه رحيق الشام في الأعماق، وأغنية على شفاه الأجيال، تحفظ ذكراه الغالية في الوجدان العربي، وترثها الأجيال التي آمن بقدرتها على إنهاض الأمة من وهاد الهوان، وإعلاء شأنها وتحقيق ما يرنو إليه شعراؤها من كبرياء.

في وداع الماغوط

لم أفاجأ حين وجدت مئات الألوف يشيعون الماغوط إلى مستقره في سلمية، وقد وفدوا من كل أنحاء سورية، وبعضهم جاء من الوطن العربي أو المغترب، كان موكب السيارات قد سد المنافذ، فتسللت أرتال الدراجات النارية بالمئات، وعلى صهواتها شبان يتدافعون للوصول أقرب إلى نعش الإبداع، لعلهم يلقون النظرة الأخيرة على المبدع الذي سكن وجدان الناس، ولامس شغاف القلوب، بعظمة البساطة التي عاشها، وهي سر الجمال وسر العظمة.

كان الماغوط الساخر الضاحك الباكي يمد لسانه للحياة متهكماً على كل ما فيها، وكان حسبه منها أنه عاشها بصدق، صدق مع نفسه فجاءت أعماله المسرحية الساخرة تعبيراً جارحاً عن مراحل الانهيار العربي، لم يكذب حتى في سخريته من موقف الناس من الشهيد (المرحوم) في شقائق النعمان، حين وجد أن بعض الناس قد نسوا مكانته في وجدانهم، وباتوا يتصارعون على التسلق فوق جليد دمه، ولم يكذب حين شرب نخب الوطن بعد أن طغت رائحة الفساد الكريهة فيه على روائح الزهور اليانعة التي كان ينبغي أن تضوع مع جيل طالع من عقود القهر إلى سنوات البهجة والرخاء والنصر، ولم يكذب حين رفع تقريراً يصف فيه ما آل إليه الحال، فجاء تقريره الضاحك موجعاً لأنه يُشَرح الواقع بسكين الصدق، ولم يكذب حين روى حكاية انتمائه إلى حزب سياسي معترفاً بأنه كان يبحث عن مدفأة، ولم يكذب حين كتب القصيدة على هواه ومزاجه ورؤيته مخالفاً كل شرائع الشعر القديم، متحدياً كل من يستطيع أن ينسج على منواله، فجاءت النتيجة إخفاقاً ذريعاً لمن حاول التلقيد، ومكانة عالية لقصيدته التي صارت ماغوطية لأنها عصية على التقليد.

كذلك كان الماغوط في مقالاته نسيج وحده في سخريته، لا يسلم من لسانه اللاذع أحد، ولكن لا ينزعج من نقده الصادق أحد، لأن سمة الإخلاص للوطن الذي أعلن أنه سيخونه، كانت واضحة الملامح الصادقة.

وقد بدأت صلتي بالماغوط في منتصف السبعينيات حيث التقيت به لأول مرة في مسرح الحمراء بعد عرض مسرحي ممتع لمخرج مبدع رحل، وكنت قد كتبت نقداً مسرحياً أشدت فيه بالمخرج، فتلقاني الماغوط، وقال لي بمحبة ومودة، لقد قرأت مقالتك، وأنت محق بالثناء على المخرج لأنه مبدع حقاً، ولكن قل لي ماذا تركت للقول فيه بعد عشر سنين؟.

كان ذاك السؤال المحب درساً نقدياً تلقيته من الماغوط في باكورة عهدي بالكتابة النقدية، وأفهمني

الماغوط يومها ضرورة ألا نخلط المحبة بالنقد، وألا نوقع المبدع في هوة الغرور حين تأخذنا النشوة بإبداعه الأول.

لكن الحادثة الطريفة التي رويتها في غير موضع، كانت يوم دعا الرئيس الراحل حافظ الأسد إلى حفل عشاء مؤتمراً للكتاب العرب عقد في دمشق أوئل الثمانينيات، وكان الماغوط قد عرض مسرحياته السياسية الجريئة في النقد الساخر، وكان عشرات الكتاب المدعوين يحتشدون عند المدخل، فتقصدت أن أقف خلف الماغوط عند التقدم للسلام على السيد الرئيس، معترفاً بأن الدافع هو فضول الصحفي لسماع ما سيقوله الرئيس للماغوط الذي اخترقت قامته الإبداعية سقف المسموح والمتاح فباتت شاهقة لا تطالها رقابة ولا تحدها سقوف، وكنت أتهيب أن يعبر الرئيس يومها عن ضيق بمبالغة الماغوط في السخرية، ولاسيما بعد مسرحيته الشهيرة (ضيعة تشرين) ولكنني كنت مطمئناً إلى ما أعلم مسبقاً عن سعة صدر الرئيس الذي بادر الماغوط بتحية عذبة وضحكة رحبة، وهو يعبر له عن ثناء كبير، ويقول له (اكتب بحريتك وإذا ضايقك أحد أخبرني) وقد هنأت الماغوط على هذه الثقة الغالية، والمحبة الغامرة.

ولاأنكر أنني كنت شديد الإعجاب بجرأة وشجاعة الماغوط، ولم أكن قد اكتشفت بعد أن الرجل مسكون بفوبيا الخوف، وقد عرفت ذلك حين ترافقنا في رحلة إلى القاهرة، وقد رويت طرائفها في مقال رثيت فيه الماغوط في مجلة (المنارة) الظبيانية، فحدثت القراء عن غرائب الماغوط المضحكة بعد سيل من مقالات الحزن في وداع الرجل الساخر.

لقد شعرت بأسى كبير لأنني ابتعدت عن الماغوط في السنوات الخمس الأخيرة التي قضيتها سفيراً خارج سورية فلم يتح لي أن أكون قريباً منه فأستقي من صحبته فيض محبة ولطف معشر، ولكنني فور عودتي وزيراً اتصلت به هاتفياً وطلبت موعداً منه، وسبق القدر الموعد فلم أر الماغوط بعد عودتي إلا مرفوعاً على الأيدي والأكف في تظاهرة مجد الأدب التي عاشتها سورية، وقد عبر شعبها الوفي عن أصالة حضارته في احتفائه بالمبدع، وفي تقدير مكانته التي لاتضاهيها مكانة.

ولقد أتيح لي أن أودع الماغوط بكلمة رثاء على قبره في (سلمية) وكانت فرصتي لتقديم التعزية لشعب سورية ولكل العرب والمثقفين في العالم بفقد مبدع يغادرنا ليدخل برزخ الخلود، ولأقدم لأهل سلمية بخاصة تحية لما قدمت هذه المدينة على مر العصور من رفد ثري للثقافة والإبداع.

لقد كان من بعض العزاء لنا في فقد الماغوط أنه بدأ كاتباً محلياً لكنه سرعان ما دخل كل بيوت العرب في المسرح، وسرعان ما انتقل إلى العالمية في الشعر، وأنه عاش حياته عزيزاً مكرماً محاطاً بحب الناس، كما كان تكريم السيد الرئيس بشار الأسد له تعبيراً عن المكانة العالية التي ارتقى إليها الماغوط بإبداعه الذي يفخر به أدبنا العربي الحديث.

رحم الله فقيدنا الكبير، وأسكنه فسيح جنته، وعوض الأمة عنه من الأجيال القادمة من يتابع ضخ الإبداع في نهر ثقافتنا الرافد بغزارة وتدفق وصفاء محيط الثقافة الإنسانية الواسع.

شيخ المنشدين

أحسب أن صديقي الدكتور سعد الله آغا القلعة (وزير السياحة في سورية اليوم) هو الذي أخرج الشيخ صبري المدلل من دائرة حلب الضيقة على سعتها إلى دائرة الضوء في سرعة انتشاره حين قدمه للناس وتحدث عنه طويلاً في برنامجه التلفزيوني الشهير عن الموسيقا العربية، وكنت أظن أن الشيخ صبري رجل كسواه من المنشدين الذين يؤدون أكثر مما يبدعون، لكنني فوجئت حين سمعته أول مرة قبل ربع قرن ونيف بالسوية العالية من الإبداع الفني الذي يندر أن يتمكن منه المطربون في عصر الفيديو كليب والأغنية السريعة التي يحكيها المطربون الجدد بدل أن يغنوها مستعينين بالميكرفون الذي يكاد أن يبتلعه بعضهم وبالموسيقا الصارخة والحركات الماجنة لإخفاء عيوب الصوت وإخفاقه، وكانت المفارقة مع الشيخ صبري أن الشهرة جاءت إليه في السن التي تخفت فيه الأضواء عن المشهورين في فن الغناء، فحين بدأ اسمه يتوهج ويبرق كان قد تجاوز الستين، وهي السن التي يكف فيها كثير من المطربين عن الغناء، أو يقل إنتاجهم، وربما يكون صديقنا الفنان المبدع صباح فخري فريد عصره اليوم في قدرته على أداء الألحان الصعبة التي تحتاج إلى مساحات صوتية شاسعة وهو في سن متقدمة رغم احتفاظه بشباب وهاج أدعو الله أن يديمه عليه فما يزال مبهراً في قدرته على الغناء ساعات طويلة متواصلة يزداد فيها صوته قدرة وحلاوة وعذوبة كلما اشتد الغناء وطال، ومن هذا الطراز الحلبي النادر كان الشيخ صبري رحمه الله، ينجلي صوته ويرق كلما طال الغناء وعذب الإنشاد، وكان مؤسفاً أن الشهرة الواسعة جاءته مع الشيخوخة والمرض، لكن صبوة الفن مكنته من الإحساس بالشباب الفتي، وأذكر أنني قصدت الشيخ صبري في أواسط التسعينيات لأسجل له بعض نوادر الألحان كي تكون ذاكرة للفن في سورية (وكنت يومها أعمل في التلفزيون السوري) فكانت المفاجأة المحزنة أن الشيخ مريض لا يقوى على الخروج من منزله، فاتصلت به وقلت (ليتك تستطيع أن تجلس على كرسيك أمام فرقتك على المسرح، وحسبنا أن تؤدي الفرقة الألحان بحضورك، فإن أسعفتك صحتك بأن تشارك في شيء فقد يعيد إليك الفن نشاطك) قال (لكنني متعب جداً ولا أقوى على الجلوس طويلاً على كرسي) وكنت أعلم أن دواء الشيخ وعلاجه هو الموسيقا فإن سمعها وامتزج بما تقول فرقته فسوف يدب النشاط في جسده، فألحت عليه وقلت (ما رأيك أن نستدعي طبيباً يكون معنا في أثناء التسجيل، قال بما بيننا من مودة (ما دمت مصراً فلن أرد لك طلباً) وكان أن رجوت صديقي الطبيب الكاتب الدكتور زهير براق أن يكون معنا وقد سارع لحقن الشيخ بدواء منشط، وهو يقول (دواء الشيخ في الموسيقا والغناء) وصعد الشيخ صبري إلى الخشبة واستعدت الكاميرات للتصوير، وخشيت في تلك اللحظة أن أكون قد قسوت على صديقي الشيخ صبري أو أسرفت في إحراجه، وفزعت أن يصيبه مكروه فاقتربت منه وقلت يا أبا أحمد، لا أريد أن أشق عليك، حسبي أن تكون جالساً على كرسيك، حاضراً أمام فرقتك، وبارك الله

بابنك أحمد وابن أختك محمد ورفاقهم من مبدعي فرقتك، ولست أطلب منك غناء يرهقك، حسبك أن تدندن إن استطعت، وإن شعرت إرهاقاً فأشر لي بيدك كي أوقف التسجيل، قال (نتوكل على الله ونرى) وبدأنا التسجيل وانطلقت الفرقة بالأناشيد الدينية من طراز (أحمد ياحبيبي سلام عليك، ياعون الغريب سلام عليك جئت بالتوحيد، فزت بالتمجيد، ياعون الغريب سلام عليك) وانطلق صوت الشيخ يتصاعد رويداً وعيناي ترقبان الدكتور زهير الذي همس لي (لا تخف سينسى مرضه) وقد نسيه حقاً، واستمر الشيخ صبري يغني ساعتين ونصف دون توقف وصوته يزداد حلاوة وطلاوة ورقة، والصالة مترفة بالفرح الفني النشوان، وقد اكتظت بالقادمين لحضور التسجيل وهاج الناس وماجوا وبدؤوا يطلبون من الشيخ أن يعيد ويزيد، وأن يقدم وصلات من الموشحات التي تزهو بها ذاكرة الفن في حلب.

بعد هذا الحفل قدم الشيخ صبري حفلات كثيرة معانداً مرضه وشيخوخته، وترك لنا الكثير من الألحان النادرة قبل أن يرحل، وقد تتلمذ عليه جيل من المبدعين الشباب، ولكن هيهات أن يجود الزمان بشيخ من طراز الشيخ صبري أبي أحمد المدلل الذي كان أنس المجالس، وحسبه أنه وظف موهبته لإنشاد ألحان تمجد نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، وتدعو إلى الله، فلم تكن صبابة الشيخ يوماً خارج إطار القيم الدينية التي تربى عليها، وهو سليل أسرة الإبداع في حلب فأستاذه الأول عمر البطش صاحب رقص السماح ورفاق دربه بكري الكردي وإبراهيم درويش وسواهما من كبار مبدعي الموسيقا العربية، وكانوا من طراز الشيخ أبي خليل القباني مبدع فن المسرح الغنائي العربي.

لقد رحل أبو أحمد في التاسع عشر من شهر آب أغسطس ٢٠٠٦ عن ثمانية وثمانين عاماً، ولكنه سيبقى في الذاكرة العربية أحد كبار المبدعين الذي طيبوا عيشنا وزركشوه بأعذب الألحان.

من البروة إلى الذروة
(وداعاً محمود درويش)

من كان سيعرف البروة شرق ساحل عكا المحتلة لولا أنها شهدت ذات ليلة من عام ١٩٤١ مولد عبقرية شعرية فذة أتيح لها أن تملأ الدنيا وتشغل الناس على مدى خمسين عاماً ونيف، كان عاشقاً من فلسطين تجتاز أشعاره الحدود القسرية قادمة إلى سوريا أواسط الستينيات من القرن الماضي، يومها تعرفت إلى محمود درويش للمرة الأولى وأنا على دراجة عادية أنطلق بها صباح كل يوم من مدينتي إدلب باتجاه قرية صغيرة إلى جوارها عينت فيها معلماً ابتدائياً إثر تخرجي في دار المعلمين بحلب، وكان المذياع (الترانزستور) رفيق رحلتي الصباحية أستمتع معه بصوت المذيع المجيد لإلقاء الشعر لأنه سليل عبقرية شعر، أقصد الأستاذ المرحوم منير الأحمد وهو ابن الشاعر السوري الكبير بدوي الجبل، كان منير، وقد نعمت بصداقته فيما بعد، يقدم برنامجه اليومي مرحباً يا صباح، وينشد فيه كل صباح قصيدة من قصائد الوطن المحتل ليعرف الجيل الجديد بالشعراء الشباب الذين يبدعون في المعتقل، كما سماهم يومذاك شاعر فلسطين يوسف الخطيب حين قدمهم في (ديوان الوطن المحتل)، وكان ذهني الشاب يومذاك صافياً مستعداً لالتقاط الشعر حتى حفظت العديد من قصائد محمود درويش وتوفيق زياد وسميح القاسم وسواهم مشافهة من منير الأحمد، وكان أعذب ما حفظت في ذاك العام الحزين ١٩٦٧ قصيدة محمود درويش (عاشق من فلسطين): عيونك شوكة في القلب توجعني، وأعبدها وأحميها من الريح وأغمدها وراء الليل والأوجاع، أغمدها فيشعل جرحها ضوء المصابيح إلخ)، ثم جاءت قصيدته الشهيرة (سجل أنا عربي) لتصير أغنية شعبية تؤكد ارتباط الفلسطينيين بأرضهم وعروبتهم، وباتت أمنيتي أن أتعرف إلى محمود درويش شخصياً وقد امتلأت حباً له وإعجاباً بشعره، وقد تحققت رغبتي بعد بضع سنين حين بدأت العمل في التليفزيون السوري وزارنا محمود في دمشق في مؤتمر للكتاب العرب، وسعيت إليه وجلسنا معاً في ردهة فندق الشيراتون، ورويت له أنني حفظت الكثير من أشعاره وأنا راكب على دراجة قبل سنين، فضحك وقال: لقد كنت أنا كذلك أصوغ أشعاري وأنا راكب على دراجتي، وبدت علاقتنا قديمة قدم العشق الذي يجمعنا لفلسطين، التي عاشت في دمنا نحن السوريين وباتت خبزنا بل الدم الذي يسري في عروقنا، وبات حبنا لمحمود درويش معادلاً لحبنا لأرضنا العربية المحتلة، وقد دهش محمود حين غرق في بحر المحبة التي غمره بها الناس يوم زار دمشق للمرة الأولى، وأذكر أنه كتب يقول (أنقذونا من هذا الحب القاسي)، لأن الناس بدؤوا يطالبونه بما يفوق طاقته الإنسانية، ويحسبون عليه حركاته وإيماءاته،ولم يقبل كثير من عشاقه تحوله إلى الحداثة التي نزع إليها بعد غنائياته الرقيقة العذبة في أوراق الزيتون وعاشق من فلسطين،

فوجدوا شاعراً مختلفاً في دواوينه الحداثية التي سرعان ما تفاعل معها القراء وعشاق الشعر ليجدوا عبقرية شعرية غنائية تتجدد، وقد أتيح لي أن ألتقي شاعرنا الكبير مرات، كان آخرها في هذا العام، حين زارني في مكتبي في وزارة الثقافة وكنا على موعد معه لتكريمه ضمن برنامج احتفاليتنا بدمشق عاصمة الثقافة، وقد بحثت معه رؤيتنا لبرامج احتفاليتنا بالقدس عاصمة للثقافة العربية مطلع العام المقبل، وقد اعتذر محمود عن الحضور الذي كنا نترقبه في هذا الصيف، بسبب مرضه، وكنت أنتظر نبأ عودته، فإذا النبأ المفجع يأتيني وأنا على منبر في صالة مكتبة الأسد في احتفال نقيمه بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لإطلاق موسوعة (أعلام العرب والمسلمين)، حيث همس في أذني مدير المكتبة قائلاً بصوت حزين: (توفي الشاعر محمود درويش)، كان لابد من أن يتحول الحفل عن مساره إلى نوع من التأبين الحزين نستذكر فيه ونحن نحتفل بدمشق قصيدته العذبة (دمشق الندى والماء، دمشق العرب، كوني دمشق التي يحلمون بها، فيكون العرب، الشام تبدأ مني، أموت وفي الشام يبدأ أسبوع خلقي، ما أقرب الشام مني، وفي الشام يبتدئ الزمان العربي)، رحم الله شاعرنا العربي الكبير، الذي سيبقى إبداعه أنشودة ترددها الأجيال ما شاء الله من الزمان.

لا عزاء لقلبك

أضم صوتي لصوت الأديبة الكبيرة غادة السمان حين جعلت عنوان رثائها لمحمود درويش «تقديم اللا تعازي»، متأملة صورة أم محمود وهي تنتحب على ابنها، وقد نقلتها الصورة إلى حافة الدموع، تقول غادة: «ما من لوعة في العالم تشبه لوعة الأم حين يموت ابنها قبلها، وأمام ذلك الحزن تصير كلمات رثاء الآخرين لهبة شمعة في حضرة شمس الأسى الحارقة، سيدتي، لعينيك وحدهما ولخبزك الذي تغنى به ابنك أقدم (لا تعزيتي) إذ لا عزاء لقلبك».

حين قرأت ما كتبته أديبتنا الكبيرة غادة التي أفخر بها وبضخامة ورحابة إنتاجها الأدبي، عاودني إحساس عريق وعميق بالفاجع الذي يسكن دواخلنا، حين نتمسك بالحياة ليس حباً بها فحسب، وإنما لخوفنا من أن يشكل رحيلنا فاجعة كبرى لمن نحبهم ويحبوننا ولا يطيقون غيابنا الأبدي، ولا وصف للوعة الأم إذا أسنت، حين تفقد ابنها قبلها وهي التي تأمل أن يعيش دهراً بعدها، وكيف إذا كان هذا الابن يملأ الزمان والمكان، وقد تمتلئ وسائل الإعلام رثاء للراحلين الكبار، ويذهل الكل عن المفجوع الأكبر الذي ذكرتنا به غادة السمان، وهو قلب الأم، وربما قلب الزوجة المحبة المخلصة، وقد تأملت هذه اللحظة الفاجعة حين مضيت مع وفد أدبي سوري إلى القاهرة لأقدم التعازي بوفاة نجيب محفوظ إلى زوجته في بيتها الذي سكنته الوحشة بعد رحيل الطود الذي كان يملؤه، يومها ساءلت نفسي... ماذا تعني لتلك المرأة التي باتت وحيدة عبارات يطلقها الكتاب والشعراء والراثون في وسائل الإعلام وهم يقولون عن الراحل إنه فقيد الأدب، وفقيد الرواية وفقيد الأمة، ولا يهتمون لكونه فقيدها هي التي لا ترى فيه الأديب والروائي الكبير، وإنما ترى فيه الزوج والخدين، وما أدري ماذا تعني كل تعازينا للشعر والأدب لأم محمود التي لم تفقد شاعر فلسطين وإنما فقدت ابنها أولاً، نعم لا عزاء لقلبك يا أم محمود، أكررها مع غادة وأنا أشعر بالأسى الفاجع العميق العريق الساكن فينا، ونحن نعيش الحياة على حافة الموت، وأخطره ذاك الذي يجيئنا من دون إنذار أو مقدمات، وأنا أعتذر هنا لقراء هذه الصفحة عن كوني أكتب لهم عن الفاجع وأحسب أنهم يبحثون عن الممتع والمسلي، لكننا نعيش أجواء تأبين شاعرنا محمود درويش، وقد فرغت لتوي من مراجعة الكتاب الذي أصدرناه في وزارة الثقافة السورية قبل أيام، متزامناً مع حفل التأبين الذي أقمناه لمحمود درويش إسهاماً من وزارتنا في توثيق ما قال الكتاب والمثقفون العرب حين فاجأهم رحيل الشاعر الكبير الذي أحبوه ورأوا في شعره ديوان الوطن المحتل، وكان لما قرأته لغادة السمان وقع وصدى في الوجدان، والكتاب الذي قدمناه وقد أعده صديقي الباحث علي القيم «معاون وزير الثقافة» يضم عدداً كبيراً من المقالات والدراسات والشهادات والآراء التي قيلت بعد رحيل محمود، وقد قرأت فيها تلك العفوية التي صدرت عنها

في صفاء ونقاء قبل أن تخضع المشاعر الحزينة لتأمل نقدي قد يفسد ما فيها من صدق الانفعال ورعشته، ولئن كنت قد اخترت من عشرات المقالات ما قالته غادة السمان، فلأنها أيقظت في داخلي من مكنون الفاجع ما أريد له أن يبقى غافياً، وقد ردده رفيق رحلة الدرويش سميح القاسم في قصيدته الرثائية لصديق الشعر والفاجعة: «تذكر وقد يسعف الله ميتاً بأن يتذكر، فحاول إذن وتذكر، تذكر رضا الوالدة، تذكر أباً لا يجيد الصياح ولا يتذمر».

امرأة في منزل نجيب محفوظ

لم أتوقع أن أجد أحداً يبكي حرقة على فراق نجيب محفوظ، فالرجل عاش بحمد الله نحو قرن من الزمان، ولم تكن حياته عادية كتلك التي يعيشها الناس العاديون، بل كانت حياة مليئة بالإبداع الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، وأدرك أن أصدقاءه المقربين يفتقدونه في الجلسات العذبة الحميمة التي كانوا يتحلقون فيها حول أشهر حكاء عربي، ولكن الكثرة من المقربين جداً من محفوظ رحلوا قبله، وقد مضيت إلى مصر مع وفد أدبي رفيع المستوى لتقديم التعزية لحكومة وشعب مصر، وللجيل الثاني من حلقة محفوظ، ولم يكن مفاجئاً أن أرى مصر كلها تتحدث عن رحيل ابنها البار الذي نقل أدبها وأدبنا العربي كله إلى العالمية، وتشعر بخسارة افتقاده في شوارعها ومقاهيها، فكل العواصم العربية وغير العربية شعرت بهذا الفقدان، ولكن الأسى العام كان يصدر عن العقل أكثر مما يصدر عن القلب، حتى إنني قلت لصحبي من الوفد ممازحاً ونحن في طريقنا إلى الأخ الكريم الفنان فاروق حسني لتقديم التعزية الرسمية (لن نقول لأخوتنا في وزارة الثقافة البقية في حياتكم لأن محفوظ بحمد الله لم يترك من عمره بقية لأحد) وبالطبع كانت الكلمات التي قلناها في جلسة العزاء أدبية نقدية فيها الإشادة بأدب الفقيد وبأهمية ما ترك لنا وللإنسانية جمعاء.

لكن الأمر تبدل حين مضينا إلى بيت محفوظ، هناك شعرت أننا قادمون حقاً إلى مناسبة فاجعة حزينة، حين استقبلتنا امرأة متشحة بالسواد، حفر الحزن على وجهها أخاديد الأسى المرير، ولم أكد أبدأ أولى كلماتي بتقديم التعزية حتى انهمرت دموعها، ولم تعد تملك أن ترد عبارات العزاء. إنها السيدة عطية زوجة محفوظ ورفيقة ثلاثة وخمسين عاماً من صحبة الزوج اللطيف الذي حول هذا البيت المتواضع إلى متحف لفن الرواية يؤمه عشاق الأدب من كل العالم.

كانت تبكي الزوج والأب والرفيق بينما كنا نحن نعزي بالأديب الذي اختطفه الناس منها حياً وميتاً، وصار لهم أكثر ما كان لها، ولكنها بالتأكيد هي التي كانت تدفع ثمن الشهرة التي حظي بها محفوظ، وأعترف بأنني كنت أهرب من النظر إلى دموعها، لأنني كنت أتحدث عن الروائي الذي رحل، بينما دموعها تبكي الزوج والحبيب الذي سيبقى مكانه في الصالة فارغاً.

ونساء مصر ترددن قولاً جميلاً يرفع شأن الرجال (ظل راجل ولا ظل حيطة) فكيف إذا كان ظل هذا الرجل الذي غاب يتسع ليفيء على مصر كلها حباً ودماثة ولطفاً وحناناً، وقد عرفت محفوظ عن قرب قبل بضع سنين ولامست هذه الجوانب الإنسانية المفعمة بالمحبة في شخصيته، ودهشت لعظمة بساطته وأدركت فيها ترف الجمال حين يكون بسيطاً.

لقد قدمت عزاء أدبياً لأسرة محفوظ في بيته، حضره الكاتبان محمد السلماوي ويوسف القعيد، ولكنني أشعر أنني عزيت هناك بالأديب، ومن واجبي أن أستدرك هنا لأقدم التعزية الحارة بالزوج للمرأة التي منحت الأدب العالمي حقها في وقت زوجها نصف قرن ونيف.

اليافي آخر الموسوعيين العرب

ودعت الثقافة العربية والإسلامية هذا الأسبوع آخر علمائها الموسوعيين البروفيسور العلامة عبد الكريم اليافي، الذي رحل عن دنيانا يوم السبت الحادي عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) الحالي ٢٠٠٨ عن عمر يناهز التسعين عاماً، وهو الرجل الذي اشتهر بكونه مجموعة علماء في عالم واحد، فقد درس منذ الثلاثينيات من القرن الماضي عدة اختصاصات علمية وأدبية في وقت واحد: درس الطب في الجامعة السورية، ثم انتقل موفداً في بعثة علمية لدراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية والفيزياء في جامعة السوربون أواخر الثلاثينيات، وقد انتسب إلى كلية الآداب فيها ليتخرج من الكليتين معاً عام ١٩٤١، وحين نشبت الحرب العالمية الثانية انقطعت عنه المعونة الدراسية، وصارت العودة إلى سوريا صعبة المنال، فذاق المرارة والفقر، ولم يكن أمامه سوى أن يغرق في بحر العلم ويصطاد منه النفائس، فقد انتسب في وقت واحد إلى عدد من كليات الجامعات الفرنسية، فدرس علم المنطق، ثم علم النفس، ثم علم الاجتماع والأخلاق واختص في علم السكان ثم في تاريخ العلوم، ثم انكب على دراسة الفلسفة، وتخصص في علم الجمال والفن، ونال في هذه العلوم المتنوعة أعلى الشهادات الجامعية، وعدد منها شهادات دكتوراه دولة، وعاد إلى بلده سوريا ليعمل أستاذاً في الجامعة فينهل آلاف الطلاب من علومه المتنوعة ومعارفه الغزيرة.

ولقد عرفت أستاذنا اليافي منذ ثلاثين عاماً ونيف، وكانت لي صلة خاصة به حين كنت أعمل في التليفزيون، وأعد وأقدم البرامج الثقافية، فقد استضفته وحاورته في عدد كبير من تلك البرامج التليفزيونية، ولكن الطريف في صلتي معه أنني كنت ألجأ إليه حين تواجهني مشكلة اعتذار ضيف حلقة ما قبيل البث على الهواء بوقت قصير، فلا أجد منقذاً أفضل من اليافي، فكنت أتصل به وأقول له بما بيني وبينه من مودة: كم دقيقة تحتاج كي تكون عندي في التليفزيون؟ ويفهم أنني بحاجة إلى من يسد غياباً، فيضحك ويقول: متى موعد البرنامج؟ أقول معنا نصف ساعة، ولا يسألني اليافي (رحمه الله) عن موضوع الحلقة فهو جاهز ومستعد ولا يحتاج إلى أي تحضير، ولاسيما في موضوعات الأدب والنقد والتاريخ، وتصدق عليه مقولة القدامى: (العلم في الصدور وليس في السطور)، وقد دارت الأيام وانقطعت صلتي به حين غادرت سوريا سفيراً، وحين عدت وزيراً للثقافة كانت سعادتي بالغة حين وجدت أستاذي اليافي عضواً في المجلس الأعلى للآثار الذي يرأسه وزير الثقافة، وكان لا يغيب عن جلسة من جلساتنا الدورية رغم اقترابه من التسعين، وكنت أعتد برأيه في القضايا الصعبة، وأعتمد على حكمته في اتخاذ القرار، وأذكر للتاريخ أنه حين واجهت اتخاذ قرار صعب حول هدم السوق العتيق قرب ساحة المرجة وسط دمشق، استشرت اليافي وهو العالم الموسوعي فقال لي: (إن المدن مثل الإنسان تحتاج إلى تجديد خلاياها)، وقد شاورته قبيل أيام من رحيله حول قرار نتجه إلى اتخاذه بشأن جزيرة أرواد فوافقني على توجهي، وأدهشتني عقليته المنفتحة على الرغم من كبر سنه، في حين أن بعض الشباب يتشددون ولا يرون المستقبل كما كان يراه برؤية شمولية موضوعية واسعة، وأنا أكتب عن هذه التفاصيل من صلتي باليافي (رحمه الله) لأنها آخر ما كان من شغله في الشأن العام، وهو الذي كان على مدى عقود خبيراً أول لدى الأمم المتحدة في

علوم السكان، وقد شغل الياﬠ عضوية العديد من الهيئات الدولية العلمية، فضلاً عن رئاسته لأول مجلة للتراث ولمجلة المعرفة التي تصدرها وزارة الثقافة.

وعن كونه عضواً أصيلاً ﬠ مجمع اللغة العربية، فقد كان أعضاء المجمع يرجعون إلى ذاكرته بدل أن يرجعوا إلى المعاجم إذا اختلفوا ﬠ أصل كلمة، وقد حدثني طبيبه الدكتور بشير الياﬠ أنه قبيل وفاته دخل ﬠ غيبوبة فبات ﬠ العناية المشددة، وكان من يجلس جواره يقرأ له آيات من القرآن الكريم فإذا أخطأ ﬠ القراءة، أفاق الياﬠ من غيبوبته ليصحح له الكلمة، وقال طبيبه كنت أعجب منه، فحالته توحي بموت دماغي، لكنه لم يفقد ذاكرته لحظة، وقد سألته إحدى الصحافيات قبل سنوات بعد أن تجاوز الثمانين، قالت له: الشاعر زهير بن أبي سلمى عندما بلغ سن الثمانين قال:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

ماذا تقول أنت وقد تجاوزت الثمانين - أمد الله ﬠ عمرك - وأصبحت على أعتاب التسعين؟

ضاحكاً يجيب: وآخر قال:

إن الثمانين وقد بلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

أما أنا والحمد لله فأقول:

فوق الثمانين من العمر قد قطعتها مثل عقود الجمان

ما أحوجت يوماً يميني إلى عصا ولا سمعي إلى ترجمان

ولعل ما بقي وسيبقى ﬠ ذاكرتي من الياﬠ حديث عابر دار بيني وبينه وكنا ﬠ قصر العظم ﬠ استراحة بعد تسجيل إحدى حلقات برنامج تليفزيوني معه، قلت له: يا أستاذي أريد أن أحفظ عنك أجمل ما حفظتَ من شعرنا العربي، وما وقر ﬠ ذاكرتك وكان له تأثير فيك، قال إنه قول حاتم الطائي: (عنينا زماناً بالتصعلك والغنى.. كما الدهر ﬠ أيامه العسر واليسر، فما زادنا بأواً على ذي قرابة.. غنانا، ولا أزرى بأحسابنا الفقر)، وقد بات هذان البيتان بعمق ما فيهما من معنى وجزالة ما فيهما من لفظ، أحب بيتين ﬠ شعرنا العربي إليّ، وإن لم تكن هذه المقالة السريعة رثاء يليق بالعلامة الياﬠ أو دراسة لمكانته العلمية والأدبية والأخلاقية، فإن حسبي فيها أن أحث الدارسين على الاستفادة مما ترك لنا من دراسات عظيمة الشأن ﬠ الفيزياء وﬠ الفلسفة وﬠ علم الجمال وتطبيقاته على أدبنا العربي، ولاسيما ﬠ كتابيه وهما بعض من مؤلفاته الغزيرة (دراسات فنية ﬠ الأدب)، و(شموع وقناديل ﬠ الشعر العربي)، وأرجو أن يتاح لي أن أرد له بعض حقه على ثقافتنا ﬠ موضع آخر، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

رحيل الطيب الصالح

إذا كان لكل امرئ من اسمه نصيب فإن اسم الأديب السوداني الطيب صالح، هو وصف صادق للرجل الذي سمي عبقري الرواية العربية، وقد غادرنا في الثامن عشر من فبراير ٢٠٠٩، تاركاً للأدب العربي والعالمي إبداعاً روائياً يجسد خصوصية فريدة في موضوعه، حيث تناول برؤية فكرية فلسفية جريئة، قضية الصدمة الحضارية العربية «الشرقية الأفريقية» مع الحضارة الغربية، ولا أقول كما قال آخرون إنه تحدث عن صدام الحضارات قبل نبوءة هنتغتون، فالطيب في حديثه عن الصدمة في موسم الهجرة إلى الشمال تحدث عن صدام إنساني عريق بين الخير والشر في النفس الإنسانية شرقها وغربها، ولكن حديثه جاء محملاً بالخصوصيات الثقافية لكل حضارة ما جعل الناقد الألماني بيتر كوتش يسميها «سوليتير الرواية العربية»، ويمكن القول: إن الطيب قدم صورة الإنسان القادم من العالم الثالث إلى العالم الأول المتقدم ضمن رؤية تقسيم العالم في الستينيات، حيث ظهرت رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» لتقدم للقارئ العربي أولاً، ثم للقارئ العالمي «بعد أن ترجمت إلى نحو ثلاثين لغة» صورة المواجهة بين حضارتين، وقد شغف الأدب العربي الحديث بهذا الموضوع، وكان من الأدباء الكبار الذين أغرتهم صدمة لقاء الحضارتين رفاعة الطهطاوي الذي اكتشف باريس، وطه حسين الذي امتلأت سيرته الذاتية بالحديث عن الفوارق، وتوفيق الحكيم الذي كان ظريفاً لطيفاً في حديثه عن عصفور الشرق، لكن أياً من هؤلاء الكبار وأمثالهم كثر ممن تناولوا الموضوع ذاته من أدباء المغرب العربي لم يصل إلى الأبعاد الفكرية العميقة التي وصلت إليها عبقرية الطيب، وقد جسد بامتياز تجربته في الغرب الذي انغمس فيه كانغماسه في أعماق المجتمع السوداني، وقد بدت قدرته الفذة في اعتصار سنوات دراسته في لندن وعمله فيها للتلميح بالتماهي مع شخصية بطل روايته سعيد مصطفى «رغم ما قد يكون من خلل نقدي في البحث عن هذا التماهي الفلسفي فقط»، مما جعل النقاد يرون في ظل الرواية عطيلاً حين قتل محبوبته، أو يرون انتقاماً عبر الورق من تاريخ الاستعمار البريطاني، أو من الاستعلاء والتعصب الأبيض أمام الأسود، أو من يرون طغيان فكرة الموت النبيل والموت المدمر في أتون الرواية وبعض النقاد يرى في الرواية نبل الطهرانية والخلاص، وبعضهم يرى فيها طغيان الذكورة التي تنتقم من الغرب في استعراض قوتها التي تتحول إلى ضعف مطلق خارج السرير الذي بات مسرح الصدام في بعض أجزاء الرواية. ولا أريد أن أكتب هنا في رثاء صالح عن الرواية الأشهر «موسم الهجرة إلى الشمال» التي انتخبت واحدة من أفضل مئة رواية عالمية في القرن العشرين، وسمي الطيب من أجلها «عبقري الرواية العربية»، أو أن أتأمل رواياته الأخرى التي لا تقل شأناً عن «موسم الهجرة إلى الشمال»، مثل: «بندر شاه»، و«دومة ود حامد»، و«عرس الزين» وسواها من الروايات التي درست نقدياً وستدرس طويلاً، ففي وجداني تنبض ذاكرة أيام قليلة جمعتني مع الطيب فتركت في نفسي أثراً لا يمحى،

مما عرفت عن شخصية الرجل الذي التقيت به أول مرة في مطلع الثمانينيات في تونس، حيث كنت عضواً في لجنة تحكيم لمهرجان التلفزيون الأول الذي أقامه اتحاد إذاعات الدول العربية، وكان الطيب صالح رئيس لجنة التحكيم التي ضمت آخرين من كبار المبدعين، أذكر منهم المخرج اللبناني الراحل أنطون ريمي، والفنانة الكويتية المبدعة سعاد العبد الله، وكان علينا أن نجلس لمدة أسبوع في غرفة صغيرة نشاهد فيها الأعمال الدرامية المتنافسة، وكان الطيب سيد الحديث العذب الفياض بالمودة والطيبة، مما عقد صداقة بيننا جميعاً، فلما انتهينا من عملنا كان على الطيب أن يقدم نتائج الفائزين بلجنة الحكم، حيث ألقى خطاب اللجنة أمام حشد الحضور والمشاهدين للتلفزيون الذي كان ينقل الوقائع على الهواء، فكان خطابه نصاً أدبياً رفيع المستوى بما فيه من طرافة ودعابة، وأذكر أنه قال ضاحكاً: «أنا أول سوداني يترأس عرباً، وأنا أول رئيس عربي يقدم استقالته طوعاً» «لم يكن سوار الذهب السوداني قد فعلها بعد» وقد ضحك الجميع، ومن طرائف المصادفات أنني التقيت في لندن بصديق فلسطيني، هو الأخ سامي قطيفان، وكان يعمل في تلفزيون دبي، ورحنا نتنزه في شارع لندني مكتظ بالمطاعم العربية، وقادني الحديث عن العرب والغرب إلى رواية «موسم الهجرة» وإلى الطيب صالح الذي عاش في لندن ثم في الخليج العربي «وكان يومها ممثلاً لليونسكو في الخليج»، وقلت للرجل ليتني أعرف عنوان الطيب في لندن كي أزوره وأعرفك إليه، فسوف ترى مبدعاً شامخاً بثقافته وإبداعه ولطفه، وحانت مني التفاتة عابرة إلى رجل واقف أمام أحد المتاجر حين استدار هتفت لصاحبي هذا هو الطيب صالح، وتعانقنا ورويت له مصادفة كوني أتحدث عنه لتوي، وأمضينا وقتاً طيباً تابعناه في دمشق عبر مناسبات أدبية كنا نحرص على وجود الطيب فيها. لقد ترك هذا الرجل الفاضل أثراً كبيراً في وجداني بدماثته وتواضعه ورقة معشره فضلاً عن اتساع ثقافته وضخامة إبداعه، التي أثرت أدبنا العربي، وأوصلت الطيب إلى الأدب العالمي بجدارة.

تكريم الفراتي

كان حسبي أن أحفظ للفراتي قصيدته الشهيرة التي يقول في مطلعها:

(ذاك نهر الفرات فأحب القصيدا،

من جلال الخلود معنى فريدا،

باسماً للحياة عن سلسبيل،

كلما ذقته طلبت المزيدا)

كي أدرك أن محمد الفراتي شاعر كبير يمتلك عذوبة ماء الفرات، وسلاسة تدفقه، وجرس خرير مياهه، وكانت هذه القصيدة مقررة علينا في المرحلة الإعدادية، ولكن الفراتي العذب لم يأخذ حقه من النقد والإعلام والاهتمام ما هو جدير به جدارة أقرانه وزملائه المبدعين من رواد النهضة في مطلع القرن العشرين، وحسب القارئ أن يعلم أن الفراتي زميل طه حسين في الأزهر، وزميل حافظ إبراهيم في الشعر، وقد قرأت أنهما أقاما معاً أمسية شعرية في دار الأوبرا في القاهرة كانت دعوة لأهل مصر لإغاثة الطلاب الشوام حين قطعت الحرب العالمية الأولى صلتهم بأهلهم في سورية، ويومها ألقى الفراتي قصيدة يقول فيها: (أولئك صحبي فتية الشام أصبحوا يقاسون الأذى وهم هم، فيالبلاد النيل قوموا بنصرهم فهذا أوان النصر فالقوم أعدموا) وأصدقاء الفراتي وأقرانه في الشعر هم الرصافي والزهاوي وبدوي الجبل وأبو ريشة وأنور العطار وبدر الدين حامد وآخرون كثر من جيل الرواد الكبار، ولعله من أكبرهم سناً، فقد ولد عام ١٨٨٠ كما تقول بعض الروايات، وكانت ولادته في دير الزور على ضفاف الفرات، وينقل بشير العاني عن عبد الجبار الرحبي وهو من مواليد ١٩٠٦ قوله: (لا أعرف شاعراً في دير الزور نطق بالشعر الفصيح قبل الفراتي) وقد درس الفراتي في كتاتيب الدير وعند مشايخها وفي مدارسها الرشدية، وانتقل إلى الخسروية في حلب ثم إلى الأزهر الشريف في مصر، وحين انطلقت الثورة العربية الكبرى عينه فيصل بن الحسين مفتياً برتبة ملازم، وحين ثار سعد زغلول رافقه الفراتي، وحين وقع الانتداب الفرنسي على سورية عاد إلى دير الزور وعمل مدرساً وناضل مع الثوار من أبنائها لتحرير وطنه، فنفاه الفرنسيون إلى العراق، ثم سافر إلى إيران ومكث فيها حيث أتقن الفارسية التي ترجم عنها من روائع الشعر الفارسي نحو ثمانية آلاف بيت كما ترجم روضة الورد (كلستان) والبستان (بوستان) لسعدي الشيرازي ورباعيات الخيام، وكان مضى إلى البحرين وعمل فيها مدرساً للآداب، وحين تأسست مكتبة دير الزور عاد ليعمل فيها أمين مكتبة ومترجماً عن الفارسية في وزارة الثقافة، وقد توفي رحمه الله عام ١٩٧٨ حيث عاش نحو مائة عام.

ولقد أفاد الفراتي رحمه الله من ثقافته الإسلامية الموسوعية فكتب دراسات في القرآن الكريم، كما كتب في (حانة إبليس) حواريات شعرية لطيفة تستفيد من الميثولوجيا الشعبية، وتعمق في الفكر في مرحلة التأمل الفلسفي التي انصرف إليها بثقافته العميقة وشاعريته العذبة مؤكداً مسؤولية الإنسان عن أخطائه، وفي (كوميديا السماء) يحلق الفراتي إلى المريخ معبراً عن توقه الفلسفي إلى المعرفة واكتشاف الكون متأثراً بثقافته القرآنية، ومن المعروف أن الفراتي كان يجيد التركية والفرنسية، ولكنه أخلص للغة الفارسية فكرمته المستشارية الإيرانية، وقد دفعني هذا التكريم الإيراني الذي كنت أذكره في جلسة مع صديقي الديري حسان العلي (وهو رجل أعمال سوري يقيم في أبوظبي) وقد نمت بيني وبينه مودة حين كنت سفيراً في الإمارات، للقول ممازحاً (إن لم يسرع أهل دير الزور إلى الاهتمام بشاعرهم الفراتي فقد يظن الناس بعد حين أنه شاعر إيراني) فقال أنا مستعد لتكريم الفراتي، وحين بت وزيراً للثقافة سارع الأخ حسان للوفاء بوعده بتكريم الفراتي فأقمنا منتصف شهر أيار (مايو) ٢٠٠٧ ندوة تكريمية لشاعرنا الكبير في دير الزور على ضفاف الفرات النهر الخالد الذي ألهمه أجمل قصائده، ولقد شارك في الندوة عدد كبير من النقاد والباحثين العرب بدراسات نقدية هامة ستكون مرجعاً رصيناً لمن يريد أن يدرس الفراتي أو أن يكتب عنه في المستقبل.

وكان اتحاد الكتاب العرب في سورية قد كرم الفراتي في حياته عام ١٩٧٦ وحضر حفل تكريمه كبار الأدباء والشعراء السوريين وكان بينهم عبد السلام العجيلي وسليمان العيسى وخليل الهنداوي، ونرجو أن يكون تكريمنا لشاعرنا الفراتي الكبير تذكيراً للأجيال الشابة بفضل رائد من رواد النهضة الكبار على الأدب والثقافة العربية التي أنفق في خدمتها نحو مئة عام من البحث والإبداع.

سلمى الحفار الكزبري:
مبدعة لا تنسى

رحلت سلمى الحفار الكزبري وسط سعير الدمار الذي ألحقته إسرائيل بلبنان، فقد توفيت في بيروت يوم ١٣ أغسطس ٢٠٠٦ ولم يتح لنا أن نكون في وداعها، ولم يتح لأهلها وذويها أن يقيموا لها يوم رحيلها ما يليق بها من عزاء في بلدها دمشق، ولكن الأسرة الأدبية السورية والعربية نعت بأسى وإجلال الرائدة الكبيرة سلمى الحفار التي ولدت عام ١٩٢٣ في بيت سياسي وطني عريق، فقد كان والدها لطفي الحفار أحد أبرز مؤسسي حزب الشعب ومن أبرز أقطاب الكتلة الوطنية التي قارعت الاحتلال الفرنسي، وناضلت من أجل استقلال سورية وبناء دولتها الحديثة، وقد شغل عدة مناصب وزارية في الحكومات السورية، وكان الحفار قد دفع ابنته سلمى لتعلم القرآن فنهلت منه ثقافة عربية إسلامية متينة، ثم تابعت دراستها في دير لراهبات الفرنسيسكان مما أتاح لها تعلم الفرنسية والإنكليزية وقد أتقنت الفرنسية حتى تمكنت من كتابة الشعر بها، وقد أصدرت ديوانها (الوردة المنفردة) عام ١٩٥٨ وأصدرت ديوناً آخر بالفرنسية عام ١٩٦٦ لكن سلمى كتبت بالعربية أهم أعمالها، وكانت تدور في فلكين رئيسين أولهما عالم المرأة العربية ومعاناتها، وثانيهما تاريخ سورية السياسي من خلال سيرة حياة والدها، وهي تحكي قصة نفيه التي بقيت في ذاكرتها لأنها كانت في الرابعة حين دخل الفرنسيون الدار واقتادوا أباها لينفوه إلى شمال سورية ومن بعد إلى لبنان حيث التحقت به الأسرة.

وأما قضية المرأة العربية فقد كانت شغلها الشاغل في كل ما أنتجت من أدب متين، فقد بدأت حياتها الأدبية بقصة (يوميات هالة) التي أصدرتها عام ١٩٥٠ ثم أصدرت في القاهرة عام ١٩٥٢مجموعتين قصصيتين الأولى بعنوان (حرمان) والثانية بعنوان (زوايا) ثم نشرت دراستها الشهيرة (نساء متفوقات) وفي المرحلة الأندلسية من حياتها كتبت رواية بعنوان (عينان من إشبيلية) وقد اقترح عليها هذا العنوان الشاعر نزار قباني الذي عرفته عن قرب حين كان مستشاراً في السفارة السورية في مدريد وكان زوجها الدكتور نادر الكزبري وزيراً مفوضاً في السفارة، وقد اهتمت سلمى رحمها الله اهتماماً كبيراً بصديقتها الأديبة الشهيرة مي زيادة، فكتبت عنها دراسة نفيسة بعنوان (مي ومأساة النبوغ) وكانت قد نشرت تحقيقاً أدبياً نادراً عن رسائل جبران ومي بعنوان (الشعلة الزرقاء) وما زلت أذكر لقائي اللطيف بها يوم أهدتني هذا الكتاب وأمدتني بمعلومات قيمة حين عقدت ندوة أدبية عن جبران ومي زيادة قدمتها في التلفزيون السوري قبل أكثر من عشرين عاماً، وكانت سلمى تدفع عن مي ما اتهمت به من جنون.

كانت سلمى قد تزوجت في مطلع شبابها من المرحوم محمد كرامي وهو شقيق الزعيم السياسي

اللبناني الشهير عبد الحميد كرامي وقد أنجبت من محمد طفلاً ولكنه توفي والطفل ما يزال في شهره الأول، وتزوجت ثانية من الدبلوماسي المعروف الدكتور نادر الكزبري ورزقت منه ابنتين، وقد سافرت مع زوجها بحكم عمله إلى الأرجنتين وتشيلي وإلى مدريد وهناك تعلمت اللغة الإسبانية، وفي الأندلس ألقت العديد من المحاضرات عن المرأة العربية باللغة الإسبانية، وقد أهلها نشاطها الثقافي المتميز لنيل جائزة أدبية من حكومة إسبانيا عام ١٩٦٥، ثم منحتها جامعة باليرمو جائزة البحر المتوسط عام ١٩٨٠، وقد أتيح لي أن أحضر في الرياض حفل تكريمها ونيلها جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٩٥ بترشيح من مجمع اللغة العربية في دمشق. كما نالت في أبو ظبي جائزة الشيخة فاطمة بنت هزاع بن زايد لقصة الطفل العربي.

كانت الراحلة قد عايشت أحداث الحرب الأهلية في لبنان فاستمدت منها روايتها (الحب بعد الخمسين) كما عايشت بعمق قضية فلسطين واستمدت منها روايتها (البرتقال المر) التي نشرتها عام ١٩٧٤.

ويبدو أن سلمى تفرغت في السنوات الأخيرة من القرن العشرين للكتابة عن أبيها لطفي الحفار حيث أصدرت عنه دراستين واحدة بعنوان (عنبر ورماد) وهو سيرة ذاتية لها، والثانية بعنوان (لطفي الحفار). كما تفرغت للكتابة عن مي زيادة فأصدرت عدة مؤلفات عنها، وما قدمته عن مي لم يكن مجرد دراسات نقدية أو توثيقية، وإنما كان إنصافاً لمي التي ظلمت من كثرة ما أحبها أدباء القرن العشرين.

رحم الله فقيدتنا الكبيرة سلمى الحفار الكزبري التي حملت مسؤولية الأدب قيماً نبيلة سامية، ورأته رسالة نهضوية وتثقيفية، ورأت في ريادة المرأة آفاق الكتابة تفوقاً جديراً بأن تعترف به الإنسانية، ولعلها تشعر بمعنى الريادة أكثر من سواها، لأنها رائدة تتلمذت على رائدة سورية شهيرة هي أستاذتها ماري عجمي.

تكريم جورج سالم

بعض الناس نعاشرهم سنين طويلة وحين يغيبون ننسى أسماءهم وربما أشكال وجوههم أيضاً، وفي المقابل تحتفظ الذاكرة بأسماء ووجوه أناس قد يكون لقاؤنا معهم قصيراً وسريعاً، ولكنهم مؤثرون يتركون بصماتهم على حياتنا فلا تمّحي، ومن هؤلاء المؤثرين كان جورج سالم الذي تعرفت إليه أستاذاً للأدب العربي في دار المعلمين بحلب عام ١٩٦٣، وقد تعاقب على تدريسنا الأدب العربي عدد من المدرسين في السنة الأولى، فلما دخل أستاذنا الجديد جورج سالم وبدأ يحدث الطلاب عن الفعل والفاعل والمفعول، أخرجت من درج طاولتي كتاب (حديث الأربعاء) وأخذت أتابع قراءتي لطه حسين وكنت مفتوناً به، ويبدو أن الأستاذ تنبه لانشغالي عنه وعن درسه، فضبطني في حالة تلبس، فلما وجد بين يدي (حديث الأربعاء) بدأت صلتنا الحميمة، بعد انتهاء الدرس، فوجئت به يقترب مني بتواضع الكبار، وأنا في حديقة الدار، ليقول لي: (أنا مضطر أن أعلم زملاءك النحو والإعراب) قلت: أقدر ذلك، وأرجو أن تسامحني لانشغالي عن درسك، فقد حفظت هذه المعلومات البسيطة من المرحلة الابتدائية ثم الإعدادية فقد كان والدي يعلمني إعراب القرآن الكريم منذ الطفولة.

قال: أنا قادم لأهديك مجموعتي القصصية، (فقراء الناس) كانت تلك المجموعة أول كتاب يهديه إليّ مؤلفه شخصياً، وكنت سعيداً بتفاؤل أستاذي بي فيما كتب من إهداء، وقد قرأت المجموعة في الليل لأبادره في الصباح، وكنت أتوقع أن يسألني إن كنت قرأت منها شيئاً؟

قلت: أنا لم أقرأها قراءة عادية، فقد درستها نقدياً!

قال: فما تعليقك؟

قلت: لن أجاملك، أظن أنك ستكون «كافكا» العرب، ففي قصصك من الكوابيس ما جعلني أتذكره، وكنت أدرك أن جورج واسع الصلة بالثقافة الغربية، وأنه يمتلك رؤية فلسفية، وقد ذكرت في غير موضع أنه هو الذي فتح لي عيني على البعد الفلسفي في أدب نجيب محفوظ، فبعد أن شاهدت (فيلم الطريق) جئت أسأل أستاذي جورج إن كان قد شاهده، يومها فاجأني بجوابه: (أنا لا أستطيع مشاهدة رواية لنجيب محفوظ في السينما، السينما لا تستطيع أن تقدم روايات محفوظ لأنها فلسفية الأبعاد) يومها لفت جورج انتباهي إلى أن صابر (بطل رواية الطريق) يبحث عن الطريق إلى الله، وكانت تلك الإشارة كافية لي في تلك السن المبكرة كي أفتح عيني جيداً على ما وراء سطور محفوظ، وقد عمق عندي هذه الرؤية فيما بعد كتاب جورج طرابيشي، فبت أقرأ «محفوظ» بعين الباحث عن المغزى، وقد توفي جورج قبل أن يكمل عامه الخامس والأربعين، والمفارقة أن الموت كان الهاجس الأكبر في كل ما كتب جورج سالم، وحتى مجموعته الثانية التي

أصدرها عام ١٩٧٠ كانت تحمل عنوان هذا الهاجس فقد سماها (الرحيل) وقد ترجم جورج عدداً من الكتب التي أثرى بها المكتبة العربية، منها (سوء التفاهم) لألبير كامو، و(ابن الفقير) لمولود فرعون، و(تاريخ الرواية الحديثة) لأوغست ستراندبرغ، و(الطلسم)، و(صيف أفريقي) لمحمد ديب، و(دون جوان) لموليير، وسوى ذلك كثير، ولكنه ترك لنا رواية وحيدة، عنوانها (في المنفى) وفيها كذلك هاجس الموت الذي كان يلاحقه حتى تمكن منه وهو في أحد فنادق دمشق حين جاءته نوبة قلبية أودت به، وفي مجموعته (عزف منفرد على الكمان) يبرز موضوع القلق على المصير الإنساني، وأما دراساته الأدبية النقدية فقد أغناها بثقافته الواسعة ولعل أهمها كتابه (المغامرة الروائية).

لقد كان جورج واحداً من أولئك الذين لا تُمحى صورهم وأسماؤهم من الذاكرة، فلم يتح لي أن ألتقي به بعد تخرجي من دار المعلمين، فقد عدت إلى مدينتي إدلب، ومنها إلى دمشق، وكنت حديث عهد في العمل في التلفزيون حين توفي عام ١٩٧٧، لكنني سعيت لأقدم العزاء يومها لزوجته الأديبة ليلى صايا، ولأجري معها حواراً حول أدبه لجريدة تشرين التي كانت حديثة عهد يومذاك، وأحمد الله أنني تمكنت في الأسبوع الماضي (بوصفي وزيراً للثقافة في سورية) من أن أرد لجورج سالم بعض حقه على ثقافتنا عبر تكريمه في حلب، وإقامة ندوة نقدية رفيعة المستوى حول أدبه، وفاء لأستاذ كبير وأديب موهوب اختطفه الموت قبل أن يكمل مشروعه.

تحية لسعدي الشيرازي أمام ضريحه

(صباح الخير يا سعدي

صباح الشعر والوجد

فهأنذا على عتبات أبوابك

يرنحني مقام العشق

ويسقيني رحيق الحب والشهد

وأقطف من مخيلتي رؤى شيراز

وأحضن شعرك الوردي

وأقرأ سورة الشعراء

على أرواح أترابك

فهلا قمت يا سعدي

ترد سلام أحبابك

ومن جاؤوك من حلب

وسيف الدولة المشتاق للطرب

يرنم شعرك المخضل بالسغب

ونجواه على الإشراق لقيا وجهك التعب

ترنم يا رفيق الشعر

فحسب رحيق أشعارك

رواء من صديد اللهو والكذب

وحسب نديم أشواقك

طواف في رؤى شيراز

أريج من شذا حافظ

تردد شعره الأهواز

وتنقلها أهازيجاً إلى العرب

وتسرح في المدى الألحان

فنعصرها ونرشفها رحيق العشق في حلب)

(كتبت على دفتر كبار الزوار)

صديقي محفوظ عبد الرحمن

كان لقائي الأول بمحفوظ عبد الرحمن عام ١٩٧٦ في مسرح الحمراء وسط دمشق، وسيبقى هذا المكان أثيراً في ذاكرتي، لأنني تعرفت فيه للمرة الأولى إلى كبار فناني العرب من طبقة الطيب العلج والطيب الصديقي وعبد الكريم بورشيد من المغرب وعز الدين المدني والمنصف السويسي من تونس، وصقر الرشود وعبد العزيز السريع وسعاد العبد الله من الكويت، ونعمان عاشور ومحمود دياب وسعد أردش وسعد الدين وهبة وكرم مطاوع من مصر، وسواهم كثير من كل أنحاء الوطن العربي، وكانوا يتألقون في مهرجان دمشق المسرحي الذي كان في منتصف السبعينيات من القرن الماضي عرس إبداع المسرح العربي، وكنت يومها أنغمس رويداً رويداً في أجواء الثقافة والإعلام، وأجد المسرح أقرب الفنون إلي، وقد تحدثت من قبل عن مغامرتي الناجحة في كتابة مسرحية تراجيديا أوليس التي قدمتني إلى مجتمع المثقفين، وكنت أتابع الكتابة النقدية في الصحافة، وأحسب أن بعض مقالاتي لفتت اهتمام رؤساء التحرير، وما زلت أذكر دعوة الكاتبين الكبيرين عادل أبو شنب ومحي الدين صبحي لي، كي أتولى الكتابة النقدية الصحفية في الصحيفة الناشئة يومذاك (جريدة تشرين) وكان مهرجان دمشق المسرحي السادس فرصتي للحضور، وقد حضرت مسرحية الكويت (حفلة على الخازوق) التي جاءت بها فرقة صقر الرشود - رحمه الله - من الكويت، واكتشفت أن كاتبها مصري اسمه محفوظ عبد الرحمن، ولم أكن أتوقع أن يصبح هذا الرجل المبدع من أحب الناس وأقربهم إلي، وأنني اكتشفت فيه صديقاً حميماً وليس مجرد كاتب مبدع، وقد توطدت محبتي لمحفوظ عبد الرحمن حين بدأت اكتشافاتي لموهبته العظيمة تتصاعد يوماً إثر يوم، وأنا أجد الرجل البسيط الهادئ يفاجئ الأمة بأعمال أدبية وفنية ترتقي بسوية الذائقة العربية، وتلبي حاجة الناس إلى دراما تستلهم وجدانهم، وتناقش قضاياهم، وتقدم لهم المتعة الفنية مشحونة بحب الوطن، وبتمجيد الحرية ونشر ثقافة المقاومة، وكنت بعد أربع سنين من تعارفنا الأول قد تسلمت إدارة برامج التليفزيون، وما زلت أذكر فرحي حين وجدت بين المسلسلات الواردة من مصر إلى التليفزيون السوري مسلسلاً بعنوان (سليمان الحلبي) من تأليف محفوظ عبد الرحمن، يومها قلت للعاملين معي (هو ذا ما نحتاج إليه من استرجاع للشخصيات المجيدة في تاريخنا ا

المفارقة كانت أخطر في مطلع الثمانينيات حين وردنا مسلسل بعنوان (ليلة سقوط غرناطة) من تأليف صديقي محفوظ، فتزامن عرضه مع ليلة سقوط بيروت يوم اجتياح شارون لها، وقد قلت لمحفوظ، كأنك كنت ترى ما سوف يحدث، وتنذر قومك وتشحذ الهمم، وأحمد الله أن الهمم كانت عالية جداً، فقد نهضت بيروت بعد السقوط وعادت مدعومة من دمشق عاصمة للمقاومة العربية التي أرغمت إسرائيل على الهزيمة، وكنت قد حاورت صديقي محفوظ عدة حوارات تليفزيونية مهمة في برامجي الأدبية والثقافية في التسعينيات، وكان يلبي دعوتي بحب واهتمام الأخ والصديق، وحين ذهبت إلى مصر لمشاهدة فيلم (ناصر ٦٥) وهو من تأليفه،

ليلة عرضه الأول، كنت أجلس إلى جوار محفوظ في الصالة، وهو يتابع العرض الأول، وأرصد انطباعاته الهادئة، وشاءت المصادفة أن أسهر تلك الليلة حتى الصباح مع صديقي القديم أحمد زكي الذي لعب دور ناصر، وكنا مدعوين عند صديقنا المنتج الكبير عادل حسني، وكان أحمد (رحمه الله) يحدثني بنشوة النجاح كيف رأى عبد الناصر للمرة الأولى وكيف تسلق عموداً وسط الحشود، وكنت أضحك وأقول يا للمفارقة هاأنت صرت عبد الناصر ذاته اليوم، فأما محفوظ فلم أسمع منه تعليقاً على الفيلم الذي أخرجه صديقنا الفاضل محمد الفاضل، فهو أميل إلى الصمت حول أعماله، ولعله يردد في داخله قول أبي الطيب (أنام ملء جفوني عن شواردها، ويسهر الخلق جراها ويختصم)، وكنت أصر على أن أسمي محفوظ (المؤرخ التليفزيوني) في أحاديثي التليفزيونية عنه، وكنت ولا أزال أجد في أخلاقه العالية وحرصه على القيم السامية ما يحفزني إلى الفخر بصداقته بما يكافئ إعجابي بإبداعه، فثمة مبدعون كثر منحهم الله مهارة الفن، ولكنهم حرموا نعمة الأخلاق الفاضلة، وهؤلاء ينطبق عليهم القول الشهير (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)، فأما محفوظ فإنني أزداد حباً واحتراماً له كلما رأيته وتأملت طيبته وصفاء سريرته، ونقاء نفسه، ولقد قدم محفوظ صفحات مهمة من تاريخنا العربي القديم والمعاصر بلغة فنية هي التي عناها ابن المقفع حين سمى البلاغة (السهل الممتنع)، وقد كتب في المسرح أعمالاً مهمة جداً مثل (عريس لبنت السلطان)، و(حفلة على الخازوق)، و(السندباد)، و(السلطان يلهو)، وآخر أعماله المسرحية (بلقيس)، وكان بدأ حياته الأدبية قاصاً وروائياً، ولكن دراسته الأكاديمية للتاريخ وعشقه له بالإضافة إلى موهبته الفذة أهلته لكي يكون المؤرخ التليفزيوني العربي بامتياز، فقد كتب سيرة سليمان الحلبي وعنترة وامرئ القيس، ومحمد الفاتح، والخديوي إسماعيل وصفحات من تاريخ مصر في (بوابة الحلواني) وقدم تاريخ القدس في فيلم، وتاريخ غرناطة في مسلسل، ولعل أهم عمل قدمه محفوظ للتليفزيون هو مسلسل (أم كلثوم) الذي لقي من النجاح ما لم يلق سواه، وبسويته من النجاح كان فيلم ناصر، لقد قدم محفوظ للأجيال الشابة أجمل صفحات تاريخنا القديم والمعاصر، باللغة الدرامية التي يحبونها.

سليمان العيسى وجزيرته العربية

سررت بالتكريم الذي أقامه النادي الأدبي بالرياض لصديقي المبدع الكبير شاعر العروبة سليمان العيسى، عبر إصداره ديواناً لسليمان بعنوان (أنا وجزيرتي العربية)، ففي هذا التكريم من العرفان ما ينبغي أن نشكر عليه أصدقاءنا مثقفي السعودية الشقيقة، وأخص بالشكر صديقي الدكتور عبد العزيز السبيل لحسن تقديمه الديوان واختياره بيت القصيد مما قال سليمان في جزيرة العرب: (يا دار عبلة إني دمعة طفرت، ورحت في شهقة الصحراء أرتحل)، ويقول د. عبد العزيز: (حق للشاعر أن تحتفي به الرياض نادياً وثقافة وعشاقاً لإبداعه، فقد ظل هذا الإبداع يغذي الذاكرة الشعرية العربية عبر عقود، يصحب ذاكرة الأجيال مع بدء وعيهم حتى مراحل سنيهم المتقدمة)، ولا أكتم القارئ بأن ما أغراني بقراءة الديوان فور تسلمي إياه، ثم الكتابة عنه، هو حب شخصي لسليمان العيسى أكنه له مذ تعرفت إليه قبل أكثر من أربعين عاماً، يوم كنت طالباً في دار المعلمين في حلب منتصف الستينيات من القرن الماضي، وكان يدرّس الأدب العربي في ثانوية المأمون ثم انتقل إلى دار المعلمين، وكان فيها عدد من كبار أساتذة الأدب الذين تركوا ثقافتهم في عقولنا وهاجة، وعلمونا عشق الأدب العربي، وأذكر منهم خليل الهنداوي وجورج سالم ومضر راغب، ولم أحظ بأن أدرس على يدي سليمان ولكنني كنت أتطلع إليه، فأغبط نفسي لأنني أتعرف إلى شاعر مبدع كنت أقرأ قصائده يومذاك في مجلة العربي الكويتية، فأجد في شعره من العذوبة والسلاسة ما يجعلني أحفظ شعره بيسر، وقد نمت بيني وبينه مودة صافية ما زلت أنهل من عذوبتها إلى اليوم، وكانت تجمعنا سهرات يحلق فيها بشاعريته وبروحه المرحة الوثابة، وقد تجاوز شاعرنا اليوم السابعة والثمانين أطال الله عمره، ولكنه حين صعد قبل شهر إلى خشبة المسرح في حفل تأبين شاعرنا الراحل محمود درويش لكي يرثيه أدهش الحضور بقوة نبرته القوية الوهاجة، وبصفاء قريحته المتدفقة، وبوفائه لشاعر فلسطين، وكنت قد صحبته قبل حين إلى مهرجان للشعر أقيم في حمص فأدهش الحضور بحضوره، وحين وقع بين يدي كتاب نادي الرياض لم أستغرب عنوانه، لما أعرف عن علاقة سليمان العيسى بالجزيرة العربية، فهو شاعر العروبة التي انطلقت من الجزيرة العربية لتملأ الكون بإبداعها، وأما شعراؤها الأوائل الكبار فقد انطبعوا في ذاكرة سليمان مذ كان طفلاً في النعيرية في ريف أنطاكية يحفظ تحت شجرة التوت آلاف الأبيات من أشعار الجزيرة العربية، وصاحبه الأقدم امرئ القيس، وقد راح يبحث عنه حائماً في الطائرة فوق حضرموت، (إني أبحث عنك، في أعماق الرمل الأسمر، إني أبحث عنك، في الواحات وفي الدارات، وحيث يطارد فرس ظبياً، أبحث عنك، لست غريباً، إني منك وأنت، برغم الفزع، القهر، الغربة، مني أنت، لكن قل لي أين تخيم في هذي الصحراء البكر؟ وأين محط رحالك؟ يا هذا الولِه الضلّيل التارك كل متاع الأرض، كنت رفيقي منذ وعيت.. إلخ).

ومرة أخرى يقدم سليمان لحفيد امرئ القيس بطاقة منه باسمه (ما زلت أجري في دمائكمُ، ما زلت ملء البيد ضلّيلا، لي حصة في كل حشرجة منكم، وليلي ليلكم طولا)، وأما زهير بن أبي سلمى فيقول لحفيده في القرن العشرين على لسان سليمان: (عبس وذبيان ما زالت رماحهما في الحي فوق صدور الأهل تشتجر، أغمد يراعك لا تجدي معلقة فينا ولا صرخة ثكلى ولا خبر).

وأما شاعر النفير لقيط بن يعمر فيناديه سليمان كي ينفر من جديد: (أيقظ نفيرك علّه يجتاحنا ولعل يابسة الغمائم تمطر).

وهكذا يتابع الشاعر الكبير سليمان استلهام أجمل ما أبدعت جزيرة العرب من شعر خالد على مر الزمان، فتحية لمن عرف قدر شاعرنا المبدع، القابض على جمر عروبته، المزدهي أبداً بلغته وبيانه الأصيل، وتحية لرفيقة دربه الباحثة الدكتورة ملكة أبيض التي قدمت للديوان بما يكشف عن عمق معرفتها لجذوة الشاعرية في قلب سليمان.

تحية إلى صديقي الشاعر يوسف المدفعي

ما دام الشعر هو النبض الحي وراء البيت، فإن ديوان (ولهان) هو خفقان قلب ينبض بالمحبة والحيوية والعشق إلى حد الوله، وشاعرنا (الولهان) السفير الأديب العذب يوسف المدفعي، يتدفق شاعرية ورقة، وينثال الشعر على شفتيه لحناً يغني للحياة موسيقا قلبه المفعم بمحبة الناس له، وبحبه لهم، وبوجد الإمارات المعرش في وجدانه قصائد تتفتح فيها صبوة تعقد مع الشام زفاف الياسيمن لألق اللؤلؤ على شطآن أبو ظبي ودبي والشارقة ورأس الخيمة وعجمان وأم القيوين وكل شبر من أرض الإمارات الخصبة بالمحبة، حيث الهوى الشامي يعانق الألق، ويفجر في وجدان الشعراء مخزون إبداع عروبي أصيل، يجد في الشعر مسراه إلى عناق الكون العظيم.

وأشعار صديقي أبي محمد، تشبه طبعه الصافي السمح، فهي في صورها واستعاراتها وكناياتها البلاغية بسيطة بساطة نفسه، وسر الجمال بساطته، فلا تعقيد (ولا حوشي في اللفظ ولا غريب) لأن الشاعر ينهل من صفاء روحه، ومن صدقه في التعبير عن مكنون فؤاده، ويطلق من عميق وجدانه موسيقاه الداخلية الراقصة مع الفرح المتألق بالحب، وهو حب يمازج الوطن مع المحبوبة فلا تدري وأنت تقرأ شعر يوسف أي حسن يثير شهيته للشعر، ولكن عشقه للجمال يبقى الطاغي في كل نبرة حية ترسل خفقاتها وراء أبياته.

ولا أريد هنا أن أدخل موازين النقد الصارمة إلى حجرة الشاعرية الفاغمة بالطيب، فحسبي أن أتأمل عفوية الإبداع حين يتحرر من تلك القوانين الصارمة التي تحد من خصوصية التجربة.

ولا أكتم القارئ أن شهادتي بشعر صديقي يوسف مسكونة بعميق ما بيني وبينه من صداقة ومودة وتآلف وطني وشاعري وموسيقي وجمالي، وتلك السمات في صلتنا تحجب قواعد النقد، وتطلق مشاعر الإعجاب التي يختلط فيها تقويم النص مع تقويم مبدعه، فلا أدري أيهما يحكم رأيي، وماذا لو أن هذه القصائد لم تكن من شعر يوسف؟

أتراني كنت أجد فيها ما أجد من صفاء وصدق وأسمع ما خلف أبياتها من نبضات قلبه المسكون بالمحبة والعشق المطلق من كل عنان، أم أنني سأمسك سكين الناقد وأبدا تشريح القصائد وتقطيعها باحثاً عن موطن ضعف أو مكمن قوة؟

لقد كان حسبي أن أعيش مع صديقي الشاعر رحلته العذبة على أجنحة موسيقاه التي ترنم للحياة أجمل ما يطلق قلبه من ألحان، وإذ أهنئه بصدور مجموعته الشعرية هذه، فإنني أترقب أن يطلق المزيد من الألحان

التي تتراقص في وجدانه، معبرة عن نشوته الكبرى بالفن، وعشقه له.

فيروز في الشام

لم يغن للشام مبدع أعذب مما غنت فيروز، ولم تعطر الشام سلاماً أطيب شذاً مما عطرت لفيروز، ولم يعقل، بعد نزار قباني، شاعر لغة تتفجر من جنون الشعر في عبقر، كما أبدع سعيد عقل لغة عربية الجذر والسنام، يضوع منها العشق للشام، وهي تنقل وجع الصفصاف، واعتلال الخزام، وعندلة الزهر، وتصفيق اليمام، والسكب من خمر الحضارة للشرق الظامئ حتى الجمام، ولم يلحن موسيقيون نشيد أرواحهم كما لحن الرحابنة، حين غنوا لدمشق معتق النغمات البيض في ليل الأماسي، وحباً يتشهى لقاء الصيف آن الكرم يعتصر، فالأهل في الشام هم الأحبة إن غابوا وإن حضروا، وهمهم يحمله قلب (طيب القلب) يقرأ مجد الشام في الوجدان، قبل أن يقرأه في الكتب، ويجد في ترابها من الطيب والطرب ما يطلق روعة الألحان، فأين في غير شام يطرب الحجر؟ والأهل في الشام وفي لبنان قد نهلوا معاً، وتغذوا من ثلج حرمون، وهو يشمخ بالعز في القبب، ويلهو بالريح في الحقب، وكيف لا يتوحد الشعبان وصوت الشاعر ينهل من بردى مثلما ينهل النهر من سحاب لبنان، لقد وحدتهما حضارة هي في الشام هوى، وفي لبنان أغنية وراح، وصمود أهل الشام من ضحوا وراحوا، جعلوا من دمشق بوابة التاريخ تحرسها الرماح، وقد حمل الشاعر بيروت في صوته ونغمه، مثلما حمّلته الشام سيفاً في القلم، ولم تكن أشعار سعيد عقل وما قاله في الشام سيملأ الدنيا ويجتاح الغمام، لولا أن فيروز غنته بلحن رحباني سكب الخالق فيه أسرار إبداعه العظيم .

ولقد درجت في مراتع الصبوة في بيت وهّابي الغناء، سنباطي القصيد، لكنني حين سمعت صوت فيروز من إذاعة دمشق لأول مرة، وجدت فيه ما يدهش، فهو لحن جديد على الرغم من كونه ينهل من ألحان القرى والأرياف، لكنه يمعن في البساطة حتى يصير له عبق رغيف الخبز الطالع من جوف التنور، وتسمع في اللحن والصوت والكلمات ما يتجاوز الأذن إلى القلب، فيملأه حباً وعشقاً، وفيروز تغني شعر العامية الذي توشك أن تخاف منه على الفصيح كما خاف شوقي من شعر بيرم (حبيتك تنسيت النوم يا خوفي تنساني، سمرا يا أم عيون وساع، وستي ياستي)، ولكن فيروز والرحابنة سرعان ما يبدعون من الفصيح أو يختارون منه ما يشهد على عبقرية الشعر في عمق بساطته (مر بي يا واعداً وعدا مثلما النغمة من بردى، أعطني الناي وغن، قد أتاك يعتذر، لا تسله ما الخبر، لا تسألوني ما اسمه حبيبي، أخشى عليكم ضوعة الطيوب، إلى آخر ذلك مما ليس له آخر)، وأدرك أن ذائقة جديدة في الفن قد ولدت، فأعشق غناء فيروز ويصير صوتها رحيق قهوة الصباح على مدى العمر الجميل، ونداء الشوق في الوجدان، فإذا كنت نائياً عن الشام، وجدت في صوتها وطني، وكنت كلما عاد الصيف متئداً، يعود بي إلى دمشق الجناح، ويصرخ في الحنين، فأهرع إلى مسرح المعرض أبحث عن بطاقة لحضور فيروز، وحلمي أن أراها وهي تسكب في قلوب

عشاقها نشوة الإبداع الإلهي، ولا تزال مسرحيات الرحابنة في ذاكرتي أعذب وأجمل ما نعمت من فرح الفن في المسرح، حضرت ناطورة المفاتيح وتعرفت عن قرب إلى عاصي وإلى منصور، ووددت أن يأتي يوم أقول فيه لفيروز شكراً لأنك طيبت عيشنا، وزركشت حياتنا، وجعلتها أحلى وأطيب، وجاء ذاك اليوم حين أخبرني الصديق العزيز فؤاد بلاط منتصف الثمانينات (وكان مديراً لهيئة الإذاعة والتليفزيون) بأن فيروز قبلت دعوة هيئتنا لتكريمها، ورحت أستقبل فيروز وبصحبتي كاميرات التليفزيون، وفوجئت بأن سيدة الغناء تخشى الكلام أمام الكاميرات، وكان حسبها أن قالت (شآم أهلوك أحبابي) ولكنني لم أفاجأ بما وجدت عند فيروز من مرح الروح، وعذوبة الحضور، وكنت قد حظيت بصداقة أعتز بها مع منصور الرحباني، ذاك المبدع الكبير الذي جمع ذروة من مواهب الشعر والمسرح والتلحين، وأرجو أن نوفق هذا العام إلى تقديم رائعته عن زنوبيا ملكة تدمر، أما المبدع الرحباني الثالث إلياس فهو العذب الذي يقطر إبداعه عسلاً مصفى، وكنت حين أسأل عن الخلافات السياسية المفتعلة بين بعض اللبنانيين وسوريا، تلك التي يراهن عليها بعض الحاقدين علينا معاً ومن يكرهون أن نغني (سوا ربينا) ويحلون محلها (لا أنت حبيبي ولاربينا سوا) أقول لهم: مادام شعب سوريا يباكر الصباح بصوت فيروز، وما دام شعب لبنان يسهر إلى الفجر على صوت صباح فخري، فلا خوف على عميق ما بين سوريا ولبنان من حب أبدي، يتجدد اليوم ويشتد مع صوت فيروز، وفي وجداننا يطيب قول سعيد: (طابت الذكرى فمن راجع بي، كما العود إلى الطرب، شآم أهلوك إذا هم على نوب، قلبي على نوب)، واليوم ترحب الشام بفيروز التي لم تغادر وجدانها يوماً وستبقى فيها تردد اعتذار غيابها الحاضر (قد غبت عنهم وما لي في الغياب يد، أنا الجناح الذي يلهو به السفر).

مجد الفن

أعود إلى الحديث عن فيروز بعد أن حضرت عرضها المسرحي الغنائي البهيج (صح النوم) على مسرح دار الأوبرا السورية في دمشق، وهي على مقربة من مسرح المعرض (الذي قدمت فيه فيروز هذه المسرحية قبل سبعة وثلاثين عاماً كما قدمت فيه جل مسرحياتها الشهيرة) والمسرحان يقعان على ضفة بردى الذي غنت له أيام عزه المائي (رد لي من صبوتي يا بردى) و(مر بي يا واعداً وعداً، مثلما النسمة من بردى) وغازلته حين اعتبرت صوتها نغمة من خرير مائه (أنا صوتي منك يا بردى) وقد شح الماء في بردى ونضب، لكن حب السوريين لفيروز ونشوتهم بصوتها الساحر لم يجف ولم ينضب، وأكاد أشعر أن متعتي برؤية فيروز على المسرح بعد غياب طال، لا يعادلها شعور بالفرح الفني إلا متعتي بمجد الفن، حين وقف الجمهور (وفيه حضور رسمي رفيع الشأن) فضلاً عن الحضور الشعبي والنخبوي الساميين، يصفق دقائق تطول وتطول، وفيروز تشمخ وتنتشي كما جمهورها الممجد لفنها الرائع، متألقة بحضورها العذب الطاغي على المسرح الأنيق الذي تلألأت أضواؤه، فكان ضوء النشوة والإكبار للفن العبقري أكثر إبهاراً وسطوعاً من ضيائه، تلك لحظة أحسست فيها بعظمة الفن حين يكون مكوناً لوجدان الشعب، وقد التفت إلى زوجتي حين ابتلت عيناي بالدمع نابعاً من أعماق الوجدان حين غنت فيروز (يلا تنام لأدبح لك طير الحمام) فوجدت دموع زوجتي تبلل عينيها، لأن هذه الأغنية هي هدهدة أغانينا لأطفالنا قبل نومهم، تذكرنا بهم حين كانوا أو كن في عمر البراعم ندندن لهم أو لهن، كما دندنت لنا أمهاتنا، وفيروز اليوم تصير أماً لأجيال متلاحقة، ونحن نقبل بنشوة ورجاء أن تبقى تلعب دور قرنفل الصبية الريفية المشاكسة، التي تحمل الشمسية التي تقيها الحر والمطر لأن بيتها بلا سقف، وهي تنتظر أن يصحو الوالي من نومه، فيختم لها على عريضتها بالموافقة على بناء السطح، لكن الوالي ينام شهراً، فإذا صحا لا يختم أكثر من ثلاثة طلبات، لأن يده تتعب، وختمه الخشبي موروث من أجداده الذين يحمل صورهم الكاريكاتيرية المضحكة، وتكاد تتوقف الحياة في القرية لأن الوالي لا يختم، فحين أخذه النوم وهو في ساحة القرية تقرر قرنفل أن تسرق الختم، وسرعان ما تختم كل معاملات أهل القرية، عدا طلب شاكر الكندرجي الذي أخر لها صنع حذائها، ولكنها تخشى بقاء الختم معها، فترميه في البئر، ويضيع الحكم، بضياع الختم، وتعترف قرنفل بأنها هي التي سرقت الختم، فيحكم عليها الوالي بأن تتيه على ظهر فرس وحشية، فتطلب الرحمة ويطلبها لها أهل القرية، وتنزل إلى جوف البئر وتستعيد الختم، لكن الوالي يصحو نوم ضميره فيسلمها ختم الحكم، وتبدو جمالية المسرحية في بساطتها، وفي عذوبة أغانيها، وقد كان في صدارة الصف الأول بين الحضور صديق

الفن الأستاذ فاروق الشرع الذي وقف طويلاً يصفق، وكنت إلى جواره أهمس (ما أروع مجد الفن!) وقد رحت أتأمل فرح الفن في وجوه الحضور، وكان الأقرب إلي بالطبع زوجتي التي تحفظ المسرحية (وكل مسرحيات فيروز) عن ظهر قلب حواراً وأغنيات، ورأيت تهلل وجه صديقي الفنان المبدع الدكتور سعد الله آغا القلعة (وزير السياحة) وهو أبرع من تحدث عن الموسيقا والغناء على شاشات التليفزيون، وقد تبادلنا التعبير عن ألق الفرح بمجد الفن، كما رأيت نشوة الناس وهم خارجون من المسرح كأنهم يفيقون من حلم سحري أسطوري، ويبدو لي مجد الفن عظيماً حين أجد فيروز، كما صباح فخري ووديع الصافي، يزدادون شباباً مع تقدم العمر، وما زالوا يتألقون ويتدفقون حيوية على خشبة المسرح، ذاك أن مجد الفن يمنح صاحبه من النشاط وقوة الحضور، ما يجعل هزار شباب الفن يبقى صداحاً.

بحيرة البجع في دمشق

أهو سحر الموسيقا التي أبدعها بيتر تشايكوفسكي، أم سحر الجمال الذي يتقاطر ذوباً من أصابع الراقصات وهن تسكبن اللحن من راحاتهن، وتتركن لأجسادهن الرشيقة أن تمور وأن تطير على أجنحة النغم، وأن تحلق إلى ملكوت الرؤى الحالمة، فتقابل السحر الشرير بسحر الخير والحب والفن الرفيع، أم هو توقنا إلى الطفولة وإلى حكايات الجدات، حول الأميرة التي أوقعها الساحر الشرير في فخ سحره، فحولها إلى بجعة، ولن يفك سحر الشر إلا سحر الحب حين تجد فتاها العاشق المدنف الذي يفتديها، أم كلاهما معاً وهما تنهلان من أقاصيص ألف ليلة وليلة شاعرية الحلم المجنح، وصوفية الحب العذري، ورؤية الحلولية للجسد حين تصير الأميرة بجعة طوال النهار، فلا تعود بشراً إلا في الليل، إنها حكاية أسطورية نجد نماذجها الأروع في أقاصيصنا الشعبية، وفي محكياتنا الشفوية، ولكن الإبداع المضاف مع فن الباليه جاء مع بيتر تشايكوفسكي، حين صاغ هذه الحكاية البسيطة المفعمة بالجمال والشاعرية، ألحاناً وموسيقا، وقد ألفها عام ١٨٨٧وهو مؤلف العديد من الباليهات والأعمال الأوبرالية الشهيرة مثل (الجمال النائم، وكسارة البندق، ويفغيني أنيغين، والبنت البستوني وغيرها) وله أعمال سيمفونية شهيرة، ومؤلفات غنائية، وافتتاحيات سيمفونية لهملت وروميو وجولييت، ولعله أشهر مؤلف موسيقي أنجبته روسيا، ولقد أتيح لي أن أستمتع بباليه بحيرة البجع مرتين، ففي العام الماضي استضافت دار الأسد فرقة مسرح البولشوي الروسي الذي قدم هذه الباليه الرائعة، وفي هذا العام استضفنا فرقة البولشوي البيلاروسي ضمن برنامج أيام الثقافة البلاروسية التي افتتحناها في دمشق منتصف نيسان (أبريل) عام ٢٠٠٨ وهو عام احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية، وقد رغبت أن تشاركنا في احتفاليتنا دول صديقة عديدة، كانت أولها جمهورية بيلاروسيا، وقد ضمت هذه الفعاليات بالإضافة إلى عرض بحيرة البجع معرضاً فنياً تشكيلياً شارك فيه خمسة فنانين كبار، من أبرزهم نقيب الفنانين البيلاروس السيد (فلاديمير) وقد تنوعت مدارسهم الفنية واللونية وقدمت نموذجاً فذاً للإبداع التشكيلي في بيلاروسيا، وأعود إلى بحيرة البجع، لأحيي هذه الفرقة الراقية التي قدمت لنا ليلة لا تنسى من سحر الفن وألقه، ولقد قرأت الكثير عن تشايكوفسكي، وأثارني أن أعرف أن أكثر أعماله الموسيقية بهجة هي تلك التي ألفها في مرحلة تعيسة من حياته، فكان يعوض عن أحزانه بنشر الفرح الفني، وقد انتشر هذا الشعور بفرح الفن وأضاء في عيون المتفرجين الذين قابلوا الفرقة بالتصفيق الحار مرات عديدة، وهم يعبرون عن نشوتهم بهذا الفن العريق في أوروبا، الحديث في بلادنا، الجديد على ثقافتنا، على الرغم من بداياتنا المتواضعة فيه منذ أعوام قليلة، فلدينا مدرسة للباليه في أكاديمية المسرح، لكنها لم تصل بعد إلى

السوية التي نرجوها، مع أن بعض من درسوا فيها صاروا عماد فرق راقصة راقية واعدة.

ولقد أسعدني أن أجد إقبالاً ضخماً من جمهورنا المثقف، فقد نفدت البطاقات فور عرضها على الجمهور، وبات البحث عن بطاقة عملية شاقة، مما يدل على ارتقاء الذائقة الفنية، وودت لو أن بوسعنا تمديد أيام العرض كي يتاح لكثير من عشاق هذا الفن أن يحضروه، لكن الفرقة مرتبطة بمواعيد أخرى عبر جولة واسعة، ويبدو أن الذائقة العربية لفن الأوبرا قد اتسعت في كل بلداننا العربية، ولئن كانت أيام الثقافة البيلاروسية قد حققت أهدافها وتركت أثراً فنياً راقياً في نفوسنا، فلابد من أن أثمن زيارة السيد فلاديمير ماتشيفتوك وزير الثقافة البيلاروسي على رأس الوفد الفني، وأن اشد على يد الفنان المبدع يليزاريف مدير الفرقة، وقد أكدنا في مباحثاتنا مع الوفد البيلاروسي على أهمية استمرار التبادل الثقافي بين بلدينا، لتحقيق التفاعل الأعمق بين شعبينا، لأن الثقافة هي جسر التواصل الأمتن بين الشعوب.

صقر قريش

أمتعني عرض صقر قريش الذي قدمته فرقة إنانا احتفاء بدمشق عاصمة للثقافة العربية (وهو إنتاج مشترك بين وزارة الثقافة ووزارة السياحة وأمانة الاحتفالية) وأجدني مندفعاً للكتابة عنه، لأنني أجد هذا العمل المسرحي الغنائي الراقص أهم ما قدمته دمشق من عروض وأنشطة في هذا العام لكونه يعرض سيرة تواصل ثقافي هام حققه صقر قريش والأمويون عامة بين الشرق العربي والغرب الأوروبي، حيث ما تزال شواهد الأندلس حية تحكي تاريخ ازدهار حضاري رفيع الشأن يشكل اليوم إرثاً مشتركاً بيننا وبين أصدقائنا الأسبان.

وصقر قريش هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، خرج من سورية هارباً من بطش العباسيين، وتمكن من الوصول إلى الشمال العربي الإفريقي، حيث أخواله الذين حموه ودافعوا عنه أمام حملة (الفهري) والي المغرب الذي سعى إلى القبض عليه تقرباً من العباسيين، وتستعرض مسرحية صقر قريش المرحلة الأخيرة من العهد الأموي حتى سقوط الدولة، وإعلان أبي العباس أنه لن يترك على ظهر الأرض أموياً، وهنا تبدأ المطاردة وينجو عبد الرحمن بينما يموت شقيقه فيبقى وحيداً، وتتابع المسرحية رحلته إلى سيناء ومنها إلى مصر ثم إلى المغرب العربي، مستفيدة من الإيقاعات الراقصة والموسيقا والفولكلور والأزياء التي يتخصص بها كل بلد عن سواه، وقد استخدم جهاد مفلح مخرج العرض أحدث التقنيات المسرحية، مستعيناً بفن الأكروبات الصيني الذي سبق أن تابعناه معاً وأعجبنا به في أثناء مشاركتنا في مهرجان الفنون العربية الذي أقيم في بكين ونانجين عام ٢٠٠٦ وبدت هذه التقنية رافداً هاماً للتشكيل المسرحي والراقص الذي أدهش به جهاد المتفرجين حيث يطير الممثلون على ارتفاع عشرين متراً وينزلون من سماء المسرح وفضائه إلى خشبته عبر متابعة مبهرة من الإضاءة، وقد وظف جهاد هذه التقنية توظيفاً درامياً غير مجاني، بدا ذلك في مشهد الهروب الأول من نهر الفرات حيث طار الممثل في الفضاء، وفي ذلك تعبير أجمل من الهرب المتستر، لأنه يوحي بالصعود الرحب الذي تجسده هذه اللحظة من حياة عبد الرحمن.

كما أفاد المخرج من إمكانات الخشبة الخاصة التي يعرض عليها حيث يمتد المسرح على عدة مستويات، في كل مستوى منها حدث مواز، يقدم متابعة للحدث بشكل يعتمد على تنسيق الجمالية مع الرغبة بالإبهار الشكلي، ولم تكن الرقصات في تشكيلاتها مجانية، أو تزيينية فقد مكنت مصمم الرقص من التوظيف الموضوعي للفنون الشعبية المعروفة عند كل بقعة جغرافية من مسار رحلة عبد الرحمن. وقد بدا ناجحاً ما سعى إليه العرض من التكثيف الدرامي فخلال ساعة وعشر دقائق تقدم رحلة الصقر الذي أقام دولة بني أمية عبر أهم محطاتها وأبرز ما كان فيها من أحداث دون الإخلال بالسرد التاريخي، ولكون المسرحية استعراضية راقصة فإنه يصعب أن نجري عليها معايير المسرح العادي، فهنا تقوم الموسيقا والأغنية والحركة الراقصة التعبيرية مقام الحوار، ويفيد الممثل من فنون الباليه عبر الرشاقة والقفزات في الهواء بدل الاعتماد على الحركة المسرحية التقليدية، وقد برعت الفرقة كلها في الرقص والأداء وهي فرقة

مجربة قدمت العديد من الأعمال الناجحة مثل هواجس الشام وجوليا دومنا، والسندباد وزنوبيا. وأرجو أن يتاح لنا إرسال هذه العمل سفيراً لثقافتنا إلى بلدان أوروبا، وأن نبدأ من قرطبة حيث مملكة عبد الرحمن الداخل التي استمرت ثمانية قرون وباتت آثارها العظيمة في مسجد قرطبة الأكبر في العالم الإسلامي كله، ومكتبتها الأشهر في التاريخ الوسيط، والرقي العلمي الذي تحقق فيها، وروح التعايش والتسامح الديني والعرقي، مآثر خالدة جديرة بأن تستلهم لبناء مستقبل ثقافي يحقق ما تسعى إليه دول حوض المتوسط من اتحاد ثقافي وتكامل اقتصادي لصالح شعوبنا جميعاً.

أبو حليمة والأحداث الأليمة

كنا على موعد مع مهرجان الشباب المسرحي الرابع الذي استعدنا ألقه قبل أربع سنوات حين بدأناه في إدلب، ثم تابعناه في الحسكة، وفي العام الماضي أقمناه في دمشق لكونها عاصمة الثقافة العربية، وفي مطلع أبريل الحالي افتتحنا الدورة الرابعة في طرطوس، وكنا خططنا أن يكون المهرجان احتفاء بالقدس لكونها عاصمة الثقافة العربية هذا العام، وكان علينا أن نبحث عن نص فلسطيني لعرض الافتتاح، وعند التشاور اقترح مدير المسارح الدكتور عجاج سليم عرض مونودراما لفرقة فلسطينية قادمة من القدس اسمها (الرواد) وكانت مغامرة أن نقدم عملاً يقوم به ممثل واحد، إن أخفق في اجتذاب الجمهور فقد خسرنا نجاح المهرجان في عرض افتتاحه، لكنني فوجئت بمستوى فني رفيع يفوق ما توقعت، فقد فاجأنا العرض من لحظاته الأولى بجرعة قوية من السخرية المتهكمة المرة حين بدأ نشرة أخبار مفبركة تحكي عن حصار الجيش الفلسطيني لمستوطنة صهيونية، وعن صواريخ شاس التي تحاول فك الحصار، كانت النشرة التي نسمعها ضمن برنامج اضحك هذا الصباح لكن الضحك المأساوي سرعان ما ازدادت فيه جرعة مرارة السخرية فتحولت إلى حزن عميق حين بدأ أبو حليمة برواية العذاب النفسي والمعيشي الذي عانته أجيال اللاجئين منذ نكبة عام ٤٨ وما تزال هذه المعاناة تزداد يوماً بعد يوم، وكان الإدهاش الذي قدمه العرض نابعاً من بساطة الأداء الذي قدمه الممثل الوحيد في المسرحية (إسماعيل دباغ) وقد حييته على خشبة المسرح بعد انتهاء العرض، وقلت له أنت تنوب عن فرقة مسرحية كاملة، وأنا أشير هنا إلى هذا العرض لأكرر التحية لهذه الفرقة المسرحية التي تمكنت من أن تقدم مسرحاً فقيراً لكنه كان غنياً جداً بالإبداع، وآيته البساطة والصدق والشفافية، فلا أعباء إنتاجية، ولا حاجة لمساعدات وميزانيات ضخمة، فحتى الديكور كان حقيبة وطاولة وحولهما موهبة الممثل الذي استطاع جذبنا للمتابعة على مدى ساعة وهو يروي لنا قصة معاناته بأسلوب مرح ساخر، تمتزج فيه المأساة بالتهكم، وتلك مزية الفن الذي يُبكي ويضحك، فأما الحدث الرئيس فهو استعراض حلم أبي حليمة (حين كان طفلاً) بشراء حذاء وهو في مخيم للاجئين في بلد عربي، وحين أوشك أن يتحقق الحلم وتمكنت أمه من أن توفر المبلغ المطلوب (وهو عشرون قرشاً) استدانت بعضه من جارتها، وجد الطفل الحالم أن البائع المغربي لم يبق لديه إلا فردتا حذاء للقدم اليمنى، ويتحول الحذاء إلى قضية، وفي براعة عفوية ينتقل الممثل من شخصية إلى شخصية، ويروي انتسابه إلى الجيش وينتقد بقسوة تحوله إلى ماسح أحذية لأحد الضباط، وعجز الجيش عن دفع مرتبه، ولكنه يدعى إلى حفل تكريم له بوصفه محارباً قديماً ليقلد وسام الجمل الصبور.

ولست في وارد كتابة نقد مسرحي للعرض، فهو يحتاج إلى دراسة متأنية تبرز مكامن الجمال التي

أراها باختصار نابعة من البساطة التي أشرت إليها، ومن العفوية والصدق، ومن براعة الأداء، وقوة ضبط الإيقاع المسرحي، لكنني أؤكد ضرورة استلهام التجربة من مسرح بسيط عميق غير مكلف، فحين تتوافر الموهبة الصادقة فلا حاجة للإبهار الشكلي الذي يسعى إليه بعض المخرجين للتعويض عن فقر الإبداع. ولقد علمت أن أصل المسرحية قصة للكاتب الفلسطيني طه محمد علي، أعدها الفنان إسماعيل الدباغ والشاعر المثقف نجوان درويش الذي كان دراماتورغاً في العمل، والمفاجأة أن المخرج هو الإسباني من أصل فلسطيني (جاكوب إمو) وعلمت أن الإسرائيليين صادروا جواز سفره لأنه ينشط في دعم القضية الفلسطينية. ولئن كنت أقترح على الشباب أن يستلهموا تجربة المسرح الفقير البسيط مادياً الغني درامياً، فإنني أجد فكرة اقتباس عمل مسرحي من قصة أو رواية تجربة أخرى جديرة بأن يفيد منها المبدعون الشباب لتجاوز مشكلة غياب النص المسرحي الجيد. ولقد قرأت بعض الآراء التي عتبت على العمل لمبالغته في تصوير الجوانب السلبية، ولكنني أجد مهمة المسرح أن ينبه إلى ما هو سلبي وأن يسلط الضوء على المعاناة، فأما الإيجابيات فحسبها ما تخصها به وسائل الإعلام من مديح.

السمنهرور

كان عرض افتتاح الأيام الثقافية الإماراتية في دار الأوبرا في دمشق يوم الخميس ٢٠٠٨/١١/١٣ معبراً عن حيوية ما وصل إليه المسرحيون الإماراتيون من سوية عالية في التقنية والأداء المسرحي، فقد اختار صديقي الفنان إسماعيل عبد الله نصاً جميلاً للكاتب السوري عبد الرحمن حمادي بعنوان (أخبار سمنهرور وما جرى فيها من شرور)، وقدم له إعداداً مسرحياً جديداً أضفى عليه نكهة إماراتية في اللهجة التي تقربه من المجتمع الإماراتي، وتبث فيه حيوية محلية بالإضافة إلى استخدام واسع للفصحى تجعل الفهم أيسر أمام المتفرج العربي، وقد سررت بهذا الحضور البهيج لثقافة الإمارات، وهي اليوم تحمل دوراً ريادياً في نهوض شامل للثقافة العربية عبر المؤسسات الكبيرة المتخصصة التي أنشأها أصحاب السمو قادة الإمارات وجعلوها قاعدة صلبة ومتينة لبناء ثقافي سيكون هو البرج الأضخم الذي يشمخ في الإمارات ليطل منها على فضاء لا حدود له يكبر فيه مستقبل الثقافة العربية بعد أن توفر الدعم المادي وانطلقت الرؤية نحو الإنسان والإبداع على مستوى الساحتين العربية والإسلامية.

وقد احتفت دمشق ورحبت بأشقائها الأعزاء من الإمارات الشقيقة وهي التي باتت أقرب إليها عبر تواصل شعبي ورسمي يومي، تؤسسه المشاعر الأخوية قبل المصالح، فثمة عشق للشام وجده صديقي الشاعر (معالي وزير الثقافة في الإمارات) عبد الرحمن العويس حين تأمل بذكاء المبدع دلالات حروف دمشق، فوجد الحرفين الأولين يرمزان إلى الإباء وهما رمز الحياة، ووجد فيها (مشق) وهو النموذج المثالي لفن الخط العربي، ثم وجد بطرافة عذبة صلة الحرفين الأخيرين بالعشق، وستذكر الشام عناية أشقائنا الإماراتيين بتحيتهم لها في عرسها الثقافي ومشاركتهم المتميزة عبر اهتمام شخصي من معالي الأخ الوزير الذي حرص على الارتقاء بسوية المشاركة، فكان في الوفد كبار المثقفين والمبدعين الإماراتيين فضلاً عن ممثلي المؤسسات الثقافية الكبرى، ولابد من التنويه إلى حسن الاختيار للأعمال التشكيلية الراقية وإلى جمالية نموذج القرية التراثية الإماراتية التي شيدت في ساحة دار الأوبرا السورية، وقد سررت لحضور صديقي الشاعر كريم معتوق الذي افتتح أعمال الأسبوع الثقافي بقصيدة عذبة قدمها تحية إلى دمشق، فيها رقة شاعريته ويسر غنائيته، وهو الذي حاز لقب أمير الشعراء عبر مسابقات البرامج الشعرية التليفزيونية. وأعود إلى سمنهرور (وقد أثارني أن أقرأ للكاتب حمادي قوله بعد تقديمها في الكويت إنه كتبها تلبية لطلب من مديرية ثقافة حلب لكن قارئاً رفضها وأحل محلها نصاً مترجماً! فوجدت فرصتها عبر النشر في مجلات الخليج العربي، وقدمت مرات في الكويت وفي البحرين)، ويقدم هذا الإعداد الجديد لها من قبل الكاتب إسماعيل عبد الله إضافة فنية متميزة عبر إفساح النص مشاركة لفرقة أورنينا الراقصة، ما جعل المسرحية تتحول إلى استعراض مسرحي جميل، وهي تنهض على طرفة تراثية ذكية

يحكيها الناس عن حمال أكل خبزه قرب شواء، فطالبه الشوَّاء بثمن رائحة الشِّواء التي باتت قيمة مضافة (على حد تعبير الاقتصاديين)، ورأى مستشار القاضي أن الثمن هو رنين النقود فقط، لكن الكاتب حمادي برع في الإفادة من هذه الطرفة حين وظفها توظيفاً سياسياً لاذعاً وهو يصف حال سمنهرور التي غرقت في الشرور بينما الناس يتجادلون حول من صاحب الحق الحمال أم الشواء واللصوص ينهبون والجراد يوشك أن يغزو.

وقد برع الفنان حسن رجب عبر الحلول الإخراجية التي أفاد فيها من تقنيات المسرح، وعبر التشكيلات الحيوية وقدرته الذكية على ملء الخشبة، وضبط الإيقاع المسرحي، ولو أنه اختصر عشر دقائق من العرض لوصل إلى سوية أعلى في ضبط الزمن الدرامي، وأما الأهازيج التي كتبها الفنان عبد الله صالح فقد منحت النص روحاً محلية متدفقة بالمرح والجاذبية. لقد كان العرض موفقاً، وأنا لا أتحدث عنه هنا من موقع دبلوماسي، فقد شدني لاستعادة رؤية الناقد المسرحي، حين كنت أكتب عن المسرح وأهتم بنقد عروضه في الصحافة العربية، وعبر اهتمامي الذي لم أفقده رغم بعد الشقة عنه. تعرفت قبل عشرين عاماً ونيف على الحركة المسرحية في دولة الإمارات، وعرفت عن قرب حيويتها الطامحة، وأجد في انفتاح أصدقائي الفنانين الإماراتيين على شمولية المشهد الثقافي العربي واستعانتهم بكل المبدعين العرب تعبيراً عن وعيهم لما عناه معالي الأخ الوزير العويس مخاطباً أشقاءه: (نحن وأنتم ثقافتنا، لغتنا، ولون عيوننا ستظل عربية بلون شمسنا، نعتز ونفاخر بهذا الجمع من المبدعين الذين سيظل بإمكانهم أن يجمعوا العرب على خارطة واحدة هي خارطة الإبداع).. وهذا الحرص الإماراتي على عروبة الثقافة التي توحدنا تجلى في كل مكونات الأسبوع الثقافي الناجح الذي سيبقى مفعماً بالمحبة في ذاكرة الشام.

سيلينا

قبل نحو ثلاثين عاماً قال الصديق المنتج السينمائي نادر الأتاسي إنه يريد أن يحول مسرحية الرحابنة الشهيرة (هالة والملك) إلى فيلم سينمائي، وكان قد حول إلى السينما أواسط الستينيات ثلاث مسرحيات رحبانية شهيرة هي: (بنت الحارس، وبياع الخواتم، وسفربرلك) لكن الظروف حالت دون أن يتحقق حلم الأتاسي، وظننت أنه نسي الموضوع، لكنه فاجأنا قبل عامين بأنه يريد اعتزال العمل الفني الذي أمضى فيه خمسين عاماً بدأها عام ١٩٥٨ حتى بات من أشهر صناع السينما العربية، لاسيما بعد أن قدم أهم أفلام دريد لحام القديمة والحديثة من «عقد اللولو» مروراً بـ «الحدود» و«التقرير» و«كفرون» ووصولاً إلى «الآباء الصغار»، لكن الأستاذ نادر قال إنه لا يريد أن يعلن اعتزاله حتى يحقق ما يمكنه من بقية أحلامه الثقافية، وهي إنتاج مسلسل عن جبران خليل جبران، وافتتاح مجمع ثقافي سينمائي وسط العاصمة السورية، وإنتاج فيلم عن مسرحية «هالة والملك»، وقد أنجز نادر مشروعه فأنتج مسلسلاً عن جبران، وحدّث «صالة سينما دمشق» فباتت صرحاً ثقافياً يضاف إلى الصروح الثقافية في دمشق، وأنتج فيلم «سيلينا» عن مسرحية «هالة والملك» وتم عرضه الأسبوع الماضي في حفل افتتاح المجمع الثقافي، وكنت أتأمل صديقي الأستاذ نادر فأراه مزهواً لكونه يودع الفن بإنجازات ستبقى للأجيال، وأحسب أن ما فعله نادر الأتاسي سيحفز أصحاب دور السينما القديمة لتجديد صالاتهم، وتنشيط دورهم الثقافي، وأما الفيلم «سيلينا» فقد وجدته ولادة جديدة لسينما غنائية استعراضية سورية افتقدناها من أيام أفلام نادر «بياع الخواتم» و«السفربرلك» و«بنت الحارس»، وقد سررت لكون الفيلم يقدم فناً رفيعاً لا يحتاج معه إلى الإثارة التي تفتعلها بعض الأفلام لتسد غياب الفن الرفيع، فقد مكننا من الإمتاع الهادئ بعذوبة السرد وبساطة الأداء، ولطف الحكاية وعمقها، ونضارة الألوان وزهو الملابس وأناقة الديكورات التي قدمها الفنان الصديق غازي قهوجي، وكان منصور الرحباني «رحمه الله» قد عالج المسرحية قبيل وفاته مع غدي الرحباني وحولها إلى سيناريو سينمائي أبدع في إخراجه الفنان المتميز حاتم علي، ولا أكتم القارئ أنني أعجب من براعة الرحابنة في تحويل الحكايات التي تبدو عادية وشعبية وريفية تشبه حكايات ا كبرى، تضاف إلى الإبداع الإنساني، فهم يقدمون فلسفة عميقة للحياة، من دون أن يشعر المتلقي بزخم الفلسفة وعسر هضمها، وهم يتجرؤون على التهكم السياسي إلى حد السخرية المرة من دون أن يعرضوا أنفسهم لمنع أو حجب، ففيض العبقرية عندهم أوسع من أن يباشر الموضوع بفجاجة أو حدة، ورحابة المخيلة تتيح لهم أن يخترعوا مدناً مثل «سيلينا»، وحكاماً ديكتاتوريين يكتشفون مدى حاجتهم إلى الناس، وهذا ما قالته هالة للملك حين انكشف أمامه قناع حاشيته المخادعة، وقبلها قالت زاد الخير لملك سيرا (المتخيلة أيضاً) في ناطورة المفاتيح وقد بقي وحيداً بعد أن هاجر الناس هرباً من ديكتاتوريته، إنها ستبقى كي يجد

من يحكمه، وهكذا كانت كل مسرحيات الرحابنة تبلغ ذروة الحكمة عبر بساطة وسحر الحكاية ولطفها وشفافية ما فيها من مضامين متينة. ولن أفيض هنا في الحديث عن مسرح الرحابنة الذي تسري ألحانه في عروقنا، وتشكل واحدة من أهم تجليات التواصل الضخم بين سوريا ولبنان، فحسبي هنا أن أقدم تهنئة للفنان المهندس المنتج نادر الأتاسي، ولأسرة الرحابنة التي منحت حياتنا بهجة ونشوة وملأت وجداننا صفاء وشاعرية، ونشرت فرح الفن في قلوبنا.

اللؤلؤة السوداء من أبو ظبي إلى دمشق

كنت سعيداً باللؤلؤة السوداء التي قدمها مهرجان أبوظبي السينمائي عام ٢٠٠٨ تحية وتهنئة لدمشق لكونها عاصمة الثقافة العربية، وقد أحسن منظمو المهرجان حين اختاروا اللؤلؤ رمزاً لأبو ظبي، لكونها عاصمة اللؤلؤ الطبيعي الأعرق، فهي البيئة الأمثل في العالم لإنتاج اللآلئ الطبيعية، وفيها جزر هي الأغنى بإنتاج اللؤلؤ في العالم مثل دلما وبني ياس وداس وصير، وفيها أعرق الأسواق التي يؤمها تجار اللؤلؤ الذي اشتهر به الخليج العربي منذ آلاف السنين، والمؤسسون من جيل الآباء في الإمارات يروون أحاديث فيها من طرائف المغامرات ما يثير المخيلة، وقد حدثني طويلاً قبل رحيله بسنوات شاعر الإمارات سلطان العويس رحمه الله أحاديث وقرت في ذاكرتي عن حكايا الغوص والبحث عن اللؤلؤ وتجارته، كما قرأت في كتاب الصديق سالم السامان (دفتر العمر) معاناة الآباء الذين جعلوا حياتهم مسيرة كفاح شاقة كي ينعم الأبناء اليوم بالرفاهية التي يزهو بها شعب الإمارات والمقيمون فيها، وقد اهتمت أبوظبي باستعادة مكانة اللؤلؤ في تراثها الثقافي، فأقيمت فيها معارض دولية للؤلؤ، أذكر أن أحدها ضم أكثر من مليون حبة لؤلؤ، وقد حملت اللؤلؤة السوداء إلى دمشق التي تزدهي بكونها عاصمة الثقافة الأبدية، وقد أشرت في كلمة الشكر التي ألقيتها تقديراً لهدية أبو ظبي وما ترمز إليه إلى كون الاحتفاء بدمشق لا يخص السوريين وحدهم، فدمشق عاصمة العرب جميعاً مذ تبلورت فيها أول دولة عربية خالصة هي الدولة الأموية التي امتدت حدودها من كاشغر على تخوم الصين إلى جنوبي باريس وكانت تضم أجزاء ضخمة من شمال آسيا إلى جنوبها، ومساحات شاسعة من أفريقيا شرقاً وغرباً وشمالاً، وحين زالت دولة الأمويين وظهرت دولة العباسيين، أسس عبد الرحمن الداخل (صقر قريش الأموي) أهم دولة ثقافية وحضارية عرفتها أوروبا في القرون الوسطى هي دولة العرب في الأندلس، وتاريخ العروبة في دمشق لا يبدأ مع الفتح العربي كما يظن بعض الدارسين، فالعروبة في الشام كنعانية عريقة، وإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف قبل الإسلام تواصل ضخم بين شطري الأمة من الشام إلى اليمن، وقد حرر الفتح العربي الإسلامي سوريا من الاحتلال البيزنطي وأعاد لها وجه عروبتها الصافي، وهذا لا يعني إنكاراً لوجود أمم وشعوب أخرى غير العرب سكنت بلاد الشام، فتاريخ سوريا هو تاريخ العالم القديم والحضارات المتعاقبة عبر التاريخ، وقد أسعدني القول الشهير (إذا أردت أن تقرأ مختصراً لتاريخ الحضارة الإنسانية فحسبك أن تقرأ تاريخ سوريا) وهو بالطبع يقصد سوريا الطبيعية المتصلة بكل أقاليم العرب، وهذا ما يشهد به إلى اليوم اتصال الأنساب الممتدة بين قبائل سوريا وقبائل الخليج العربي والحجاز واليمن ومصر والمغرب العربي، وحديث اللؤلؤة يقودني إلى الحديث عن أبوظبي التي أشعر حين أزورها أنني في بلدي الثاني، فقد أقمت فيها فترة كوني سفيراً لبلادي في دولة الإمارات، وأحببت فيها طيبة شعبها ونبل أخلاقه وفيض بساطته وكرمه، وفتنت بتألقها وسرعة

تطورها الحداثي، وقد أتاحت لي زياراتي المتكررة لها منذ ربع قرن ونيف أن أتابع التطور العمراني والإنساني فيها، وقد انعقدت بيني وبين شواطئها صلة حميمة حين كنت أقضي شطراً من الليل سارحاً في المكان الأرحب على شاطئ الكاسر، وكنت أستعيد موقعه قبل أن يزحف إلى البحر الذي ردم بعضه فاتسعت المدينة حتى بات شاطئها الأرحب من أجمل وأرقى الشواطئ العالمية، وقد سررت لكون مهرجان أبو ظبي السينمائي يقام في قصر الإمارات، وكان طريفاً أن تجد الأوروبيين والأمريكان وسواهم من كبار الفنانين المدعوين والزائرين من أرجاء الأرض يلتقطون الصور التذكارية في القصر الذي يفيض بهاء وجمالاً في تجسيده للعمارة العربية الإسلامية مع حداثة العصر وتقنياته، ولست أقصد هنا دعاية للقصر فهو غني بها، ولكنه بات من أحب الأمكنة التي زرتها إلي، ولاسيما لكوني من أوائل من زاروه قبل أن يفتتح، وقد عرفت بعض أسرار جماله مما شرحه لي المهندسون المبدعون، ولئن كانت اللؤلؤة السوداء التي حملتها إلى دمشق تحية من أبو ظبي قد دفعتني بمعانيها التاريخية والتراثية إلى الكتابة عنها، فإن اللؤلؤة التي تشع عطاء وتضيء بريقاً من الضياء في القلوب هي المشاعر العذبة الصادقة الصافية التي تربط بين دمشق وأبو ظبي، وبين كل عواصمنا العربية، وكانت تفيض عذوبة بين المبدعين والمثقفين العرب وقد وجدوا في مهرجان أبو ظبي السينمائي فسحة جديدة للقاء والحوار، وتمتين الأواصر مع مبدعي العالم الكبار.

معرض العصر الذهبي للعلوم العربية

أدرك أن الحديث عن معرض العصر الذهبي للعلوم، الذي أقامته احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية بالتعاون مع معهد العالم العربي في باريس وأقيم في متحف دمشق بالتعاون مع مديرية الآثار والمتاحف عام ٢٠٠٨، يأتي متأخراً الآن، فقد انتهت الاحتفالية وانتهى المعرض الذي أدهش كل من زاره بروعة المعروضات العلمية النادرة وبأناقة وجمال أسلوب وتقنيات العرض، لكن مناسبة الحديث الآن هي صدور كتاب خاص يوثق هذا المعرض، عنوانه (العصر الذهبي للعلوم العربية)، وقد أسهم معهد العالم العربي مع الأمانة في إصدار هذا الكتاب المهم الضخم، ما يدعونا إلى تكرار التحية لمعهد العالم العربي في باريس الذي يقوم بدور حضاري رفيع الشأن، ونخص بالشكر الصديق دومينيك بوديس مدير المركز ومساعديه من الباحثين الكبار الذين أبدوا اهتماماً بالغاً للوصول إلى هذه السوية العالية للمعرض، الذي استعاد الحقيقة العلمية التي هددت بالنسيان، وهي دور العرب والمسلمين في إنتاج الحضارة العلمية التي تزهو بها البشرية اليوم، وقد يظن بعض القراء أن المعرض والكتاب استمرار في التغني بالأمجاد للتعويض النفسي عن التقصير والتراجع الحضاري العربي، لكننا نجد أن من الضروري أن تتعرف الأجيال الصاعدة إلى تاريخها العلمي، عسى أن يحفزها هذا التعرف على استعادة المكانة والدور، وعسى أن يثيرها حجم ونوعية المساهمة العبقرية الفذة التي أسست للحضارة الأوروبية المعاصرة، ويبدو مؤسفاً أن مناهج التعليم في جل الوطن العربي لا تعنى العناية اللائقة بتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين، فهي حتى في المراحل الثانوية تكتفي بإشارات سريعة تلمح ولا تصرح، ويكاد جيل كامل من الطلاب المتخرجين حتى في الجامعات لا يعرف جيداً أهمية الإسهام العلمي لأمته في حضارة العالم المعاصرة، ربما عدا المتخصصين الذين يقودهم الاختصاص إلى التعرف الأعمق، فطلاب الطب لابد أنهم يدرسون أهمية كتاب القانون لابن سينا، وأهمية ما قدمه ابن النفيس في شرح القانون، وطلاب العلوم لابد أنهم يدرسون أهمية ما قدمه ابن الهيثم في البصريات، وجابر في الكيمياء والبيروني في القانون، والمسعودي في «الجغرافيا» وسواه من العلوم الجمة التي جعلت سارتون يصف هذا العالم الفذ بأنه صاحب أهم عقلية علمية عرفها العالم حتى عصره، والقائمة تطول، لكننا قل أن نجد اهتماماً من مناهج التعليم العامة بتاريخ العلم، في حين أننا نجد اهتماماً أكبر بتاريخ الأدب، فالمناهج تقدم لمحات عن امرئ القيس وزهير، وعن المتنبي والمعري وأبي تمام وأمثالهم، وهذا أمر ضروري، لكنها تكاد تغفل الحديث عن ابن حيان وعن أولاد موسى بن شاكر وعن ثابت بن قرة والبتّاني والطوسي ومن في سويتهم ممن قدموا للبشرية علوماً مستجدة لم تكن الحضارات قد وصلت إليها قبلهم، ويأتي كتاب (العصر الذهبي للعلوم العربية) ليثير الاهتمام، ولكنه بالتأكيد لا يستطيع أن يختصر تاريخ هذه العلوم، وكنت أود أن تضاف إلى عنوانه كلمة (والإسلامية) كيلا ننكر على هذه الحضارة

خصوصية كونها شراكة تاريخية فريدة بين عدة أمم وشعوب اعتنقت ثقافة الإسلام، التي اتسعت لكل الأديان والمذاهب، فكثير من العلماء المسلمين الذين أغنوا هذه الحضارة لم يكونوا عرباً، بل كانوا مستعربين عبر انتمائهم إلى ثقافة العروبة الإسلامية ولغتها، وبعضهم لم يكونوا من المسلمين، فمنهم وفرة من المسيحيين وبخاصة العرب الذين شاركوا في كل تفاصيل حضارة العرب والمسلمين، وهناك عدد من اليهود الذين عاشوا في كنف هذه الحضارة وبينهم أطباء وعلماء مشاهير. ويتحدث كتاب (العصر الذهبي) في مقدمته التي كتبها أحمد جبار عن (العلم العربي بين الإرث اليوناني والهندي والتلقي الأوروبي)، ثم يفصل الحديث عن علم الفلك العربي، بمدونات مشاركة من جورج صليبا ودوني سافوا، ثم يتناول الطب والصيدلة بكتابات من دانيال جاكار ومهناز كاتوزيان - صفدي، ثم ينتقل إلى الحديث عن الميكانيك بمشاركة من محمد الفائز، ومارك سميث، ثم عن العلوم والفنون بمشاركة إيف بورتير وكريستان بورخيه، ثم يقدم الباحث خوليو سامسو رؤيته لانتقال العلوم إلى أوروبا، ويعرف الباحث جان آدوز بموقع العلوم العربية في التاريخ، ذلكم هو الكتاب الذهبي حقاً، تضعه دمشق عاصمة الثقافة العربية بين أيدي الدارسين.

حدائق سورية في المنكب

لئن نسي العرب عبد الرحمن الداخل فإن الإسبان لا ينسونه، وهاهم يحتفلون بذكرى دخوله إلى مدينة المنكب التي كانت أول مدينة أندلسية تستقبل صقر قريش عام ١٣٨ هجرية – ٧٥٦ ميلادية، واليوم تجدد دمشق والمنكب ذكرى عبد الرحمن عبر افتتاح الحدائق الأموية التي زينها النحاتون السوريون بأجمل منحوتاتهم التي ترمز إلى تلك الفترة الخالدة في الذاكرة الإنسانية حيث كانت الدولة التي أسسها صقر قريش أهم دولة عربية حضارية عرفها الغرب عن قرب، وما تزال آثارها الثقافية حاضرة في حياة أوروبا كما هي حاضرة في حياة العرب، تعزز علاقاتنا مع الشعب الإسباني الصديق بوصفنا شركاء حضارة عريقة سبقت نهضة أوروبا المعاصرة، وأسهمت فيها إسهاماً ضخماً تشهد عليه وتؤكده كل المراجع العلمية التاريخية. ولقد أبدع الفنانون النحاتون السوريون الذين أقاموا ملتقى نحتياً في حدائق المنكب، وكان على رأسهم الفنان أكثم عبد الحميد مع نخبة من أساتذة وطلاب معهد الفنون التطبيقية في دمشق وبينهم نحاتات سوريات كن موضع تقدير وإعجاب، نحتوا جميعاً أمام السياح المتدفقين من أنحاء إسبانيا وأوروبا لرؤية إبداعاتهم على مدى عشرين يوماً من العمل المتواصل أجمل الأعمال الفنية المبهرة حيث أنطقوا الحجر، وتركوا لشعب إسبانيا هدية أموية تعيد إلى الذاكرة وهج حضارة قرطبة وتذكر الأجيال الجديدة بتلك المرحلة الخصبة من تاريخ الأندلس.

واليوم حيث نفتتح مع أصدقائنا الإسبان الحدائق الأموية في رحاب المنكب _ المونيكار (في خريف ٢٠٠٦) ونستعيد ذكرى عبد الرحمن فإننا نريد من هذه المناسبة تجديد شراكتنا الثقافية مع الشعب الإسباني العريق ويسعدنا ما نجد من اهتمام رسمي رفيع الشأن بهذا الإرث الحضاري المشترك، حيث يرأس جلالة الملك خوان كارلوس مؤسسة التراث الأندلسي، وكنت قد حظيت في شهر مايو (أيار ٢٠٠٦) بحضور احتفالية ثقافية بذكرى ابن خلدون في إشبيلية برعاية جلالة الملك كارلوس حيث أكد في خطاب الافتتاح على التشاركية الثقافية بين إسبانيا والعرب، وأجد في هذه التجربة الحضارية النادرة مفتاحاً لحوار حضاري وثقافي يمتن أواصر الشراكة الاقتصادية المرجوة، ويرسم آفاقاً جديدة للعلاقات السياسية، حيث آن لأوروبا أن تنهي سوء الفهم الحاصل اليوم بين ثقافتها وبين الثقافة العربية الإسلامية، وأن تنفض عنها وهم (فوبيا الإسلام) الذي اخترعته الصهيونية لتسيء إلى الصلات العميقة التي رسخها التاريخ بيننا وبين الأوروبيين، ولتصور للأجيال الأوروبية الصاعدة أن الإسلام خطر على مستقبلهم، وأن انتشاره في أوروبا سيحول القارة إلى منطقة إرهاب حيث يريد المسلمون فرض دينهم بالقوة كما يزعمون. إن بوسع المفكرين المصلحين الأوروبيين أن يدرسوا تجربة المسلمين في الأندلس فهي وحدها قادرة على إزالة هذا الوهم المزيف للحقائق، وسيجد الدارسون أن

أنضج مرحلة فكرية عرفتها أوروبا في العصور الوسطى كانت تجربة الدولة الأموية في الأندلس، حيث تحققت تعددية دينية راقية، وتنوع ثقافي ثري، ولم يطلب المسلمون من أحد أن يبدل دينه، ولم يفرضوا ثقافتهم على أحد، بل مزجوها مع ثقافات الآخرين، وكانوا هم الذين حموا اليهودية فيما بعد من محاكم التفتيش، وأخذوا اليهود معهم إلى بلادهم العربية بعد سقوط غرناطة.

إننا نريد من احتفالنا في المنكب أن نلقي الضوء على هذه السمات الراقية للحضارة العربية التي حققت أسمى مراتبها في الأندلس، تلك التي ولد فيها ونشط فيها إبداع ابن طفيل (صاحب أول رواية فلسفية عن خلق الإنسانية، «حي بن يقظان») وابن رشد (وهو من قدم أرسطو للبشرية وقدم فصل المقال ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، وأول من قدم رؤية شمولية ناضجة للمدينة الفاضلة) وابن خلدون (وهو مخترع علم العمران) وابن البيطار (وهو شيخ الصيادلة وعالم النباتيين) وابن زيدون (وهو الشاعر الوزير العاشق لولادة بنت المستكفي وهي صاحبة أول صالون أدبي في أوروبا) وسواهم كثر ممن أبدعوا أجمل ما تحتفي به الإنسانية جمعاء من أدب وفكر وعلم وفنون.

لغتنا العربية في القمة

كانت الوصفة العلاجية لمواجهة طوفان العولمة والأمركة الثقافي الذي اجتاح الأمة، وهدد هويتها وحضورها هي تمكين اللغة العربية لكونها المعادل الموضوعي للهوية، فلا أمة بلا لغة، وهذا ما أدركته الحركة الصهيونية منذ نهوضها للبحث عن هوية يهودية بعد قرون من الشتات، وقد وضع أليعازر بن يهودا أسس النهضة القومية اليهودية عبر إحيائه للغة العبرية، وهي في الأساس لهجة من لهجات الكنعانيين، وقد وجدت إسرائيل في اللغة العبرية جامعاً لهذا الشتات الذي لا جامع له غير اللغة التي باتت أقوى من التوراة في قدرتها على تحقيق هوية لأمة لم تكن لها هوية ذاك أن جيل الصابرا اليوم، وهم من الشباب الذي ولدوا في إسرائيل، باتوا يجيدون العبرية التي لم يكن يجيدها آباؤهم، وهي تدرس للجنود لكونها هوية ابتعثها أليعازر بعد موات طال نحو ألفين وثلاثمئة سنة كما يذكر المؤرخون.

والمفارقة أن تعود إلى الحياة لغة عبرية ميتة، وأن تهدد بالضعف والغياب لغتنا العربية التي تميزت بكونها اللغة الكنعانية الأم التي تفرعت عنها اللغات التي حفظت تاريخ البشرية، وشرفها الله حين اختارها لغة قرآنه، ونحن نشهد اليوم تراجعاً كبيراً في حضور اللغة العربية في كثير من مجتمعاتنا، ففي المغرب العربي ثمة مناهضة للتعريب يقوم بها الخائفون من عروبة الشمال الأفريقي العربي، وهم يريدون أن يتعلق المغرب كله بالثقافة الفرنسية أو الإنجليزية عبر اللغة، وقد بات شائعاً أن يختار بعض الكتّاب العرب من الشمال العربي الأفريقي اللغة الفرنسية أو الإنجليزية لمؤلفاتهم بدافع الوصول إلى القارئ الأوروبي، ولئن كان الكتاب قد اضطروا للكتابة بلغات غير عربية في سنوات الاحتلال لجهلهم بالعربية، فإن الأمر يبدو خياراً خطيراً بعد انتشار التعريب، وبعد أن استعادت بلدان المغرب العربي حريتها واستقلالها، وباتت العربية لغتها الرسمية المعبرة عن هويتها وحضورها الفكري والثقافي.

أما في الخليج العربي فقد تبدت المشكلة في ازدياد حجم العمالة العالمية الوافدة التي اضطرت المجتمع العربي الخليجي إلى التحدث بالإنجليزية بدل أن يضطر الوافدون إلى تعلم العربية، وفي بعض أقطار المشرق العربي تراجع حضور العربية ولاسيما عند النخب المثقفة، كما حضرت عدة مؤتمرات عربية كانت الإنجليزية لغة الحوار فيها، وقد أكدت في مناسبات عديدة أن الدعوة إلى تمكين العربية لا تعني عدم تعلم اللغات الأجنبية، فقد بات ضرورياً أن يتعلم الشباب لغات العالم، ولكن دون أن يتم التخلي عن العربية، فقد كان الرواد الأوائل صناع النهضة العربية يجيدون الفرنسية أو الإنجليزية أو سواهما من اللغات الأوروبية، ولكنهم أصروا على أن يتم التعليم بالعربية حفاظاً على الهوية.

ولقد قدمت سوريا في انطلاقتها النهضوية نموذجاً فذاً لقدرة العربية على نقل العلوم المعاصرة فعربت مناهج التعليم العالي، وأصرت جامعاتنا منذ نشوئها على تعليم الطب والهندسة ومختلف العلوم

بالعربية، ووجدت بيسر وسهولة مرادفات لكل الأسماء المتصلة بالعلوم، ولكون العربية قابلة لهضم اللغات الأخرى فلم يكن ثمة ما يمنع تعريب كثير من الكلمات أو المصطلحات وضمها إلى العربية، وقد حدث هذا التعريب منذ قيام الدولة العربية الأولى في دمشق، وشهد ذروته في عهد مروان بن الحكم حين انصرف خالد بن يزيد إلى تعريب علوم الإغريق، فاستقدم من علماء الإسكندرية مترجمين نقلوا إلى العربية علم اليونان، وفي العصر العباسي تم نقل علوم الهند والصين، واستمر الضخ في العربية حتى باتت مع قوة الدولة لغة العلم، فكتب بها كبار علماء المسلمين من غير العرب، وحسبنا أن نذكر أن سيبويه الذي نعتبره أحد مؤسسي علم النحو العربي وضع كتابه الشهير من أجل تيسير تعلم العربية للوافدين الذين وجدوا في العربية مصدراً للعلوم والمعارف الإنسانية.

ولقد انتقد إصرارنا على التعليم العالي باللغة العربية أحد الأصدقاء وقال لي إن الخريجين السوريين لا يكادون يجدون عملاً خارج سوريا لأنهم لا يجيدون غير العربية، فذكرته بأن الأطباء السوريين الذين درسوا الطب في جامعة دمشق باللغة العربية هم اليوم الأكثر حضوراً بين أقرانهم من العرب في أوروبا، وأحسب أن عدد الأطباء السوريين في بلاد المغترب يزيد على ثلاثين ألف طبيب، وقد جمعوا بسهولة بين هويتهم العربية واعتزازهم بعلومهم بها، وبين لغات البلدان التي يعيشون فيها، ولكن إتقانهم للعربية قدم لهم مزية التواصل العميق المستمر مع بلدهم الأم.

والمهم اليوم أن موضوع الاهتمام باللغة بات قضية ينظر فيها قادة الأمة في القمة، وقد شكل هذا الطرح نقلة نوعية في الاهتمام باللغة على صعيد قومي، ولابد لتفعيل هذا التوجه من برامج عمل هي مسؤولية الباحثين واللغويين، وأحسب أن العبء الأكبر يقع على عاتق الإعلام العربي الخاص والرسمي، ولقد ذكّرت في حديث تليفزيوني على الفضائية السورية، بذاك البرنامج التليفزيوني الشهير الممتع (افتح يا سمسم) الذي قدّمته الكويت في الثمانينيات، فقد وحد لغة الأطفال العرب، ولكنه توقف، وأرجو أن ينتج الإعلاميون العرب برامج مشابهة لأن تمكين اللغة يبدأ مع الأطفال، كما أنصح العاملين في التربية بأن يستعيدوا ما كان يسمى درس الاستظهار، وأعني حفظ النصوص الأدبية، وأما الحصن الذي يحفظ اللغة ويصونها فهو القرآن الكريم، وأجد من الضروري في كل مدارس الوطن العربي أن تستعاد دروس تحفيظ نصوص من القرآن الكريم للأطفال، وقد حفظ القرآن الكريم للجزائر لغتها العربية رغم قسوة وطول زمن الاحتلال الفرنسي لها.

هاجس اللغة في الوجدان

تبدو استجابة الدول العربية هذا العام لقرار القمة العشرين التي انعقدت في دمشق حول تمكين اللغة العربية إيجابية وجدية في الاهتمام الكبير الذي أبدته القيادات الثقافية والتربوية والإعلامية، وسيكون لموضوع اللغة نصيب وافر من البحث في مؤتمرات وزراء الثقافة ووزراء الإعلام، ووزراء التربية التي تنعقد في العامين ٢٠٠٨ و٢٠٠٩.

وستقدم جامعة الدول العربية تقريرها للقمم المقبلة عما تم إنجازه لدعم العربية، وقد نشطت مراكز البحث في إقامة الندوات واللقاءات الثقافية لدراسة التحديات التي تواجه لغتنا، وأتيح لي أن أشارك في بعضها، ومنها دعوة كريمة من مركز التراث في العين، وقد سرني أن أجد بين الحضور أجيالاً من الشباب المتحمسين من طلبة جامعة الإمارات فضلاً عن الأساتذة والباحثين الكبار، ممن ينشطون لمواجهة هذه التحديات التي لا تهدد اللغة وحدها، وإنما تهدد الهوية الوطنية والانتماء العربي كله، فاللغة لا تقتصر على كونها وسيلة تعبير وتفاهم، وإنما هي وعاء فكري وحضاري، يتحول إلى جامع وطني وقومي، وهي كائن حيّ يحتاج إلى النمو والتطور كي يتمكن من الحضور المستمر على مستوى عال من الاندماج في الحضارة الإنسانية، والتحدي الأخطر الذي نواجهه هو محاولة طمس هويتنا العربية ومكوناتها، ولا يخفى على أحد أن الانتماء إلى العروبة ليس انتماء عرقياً، وإنما هو انتماء ثقافي حضاري لغوي، وهذا ما حدده رسول الله r حين قال: (ليست العربية لأحد منكم بأب ولا أم، إنما العربية اللسان) يقصد الفكر والثقافة، وحسب لغتنا شرفاً وقدسية أنها لغة القرآن الكريم، وهو الذي جعلها لغة عالمية يتلوها المسلمون في كل مكان يعيشون فيه، ولقد حاول كثير من المستشرقين إيهام العرب بأن لغتهم لا تتسع لعلوم العصر، ولا تستطيع استيعاب معارفه ونصحوهم بأن ينبذوا اللغة الفصحى معتبرين أنها سبب تخلفهم، داعين إلى الاكتفاء بالعاميات، وإلى وضع قواعد لها «والهدف البعيد الذي يتراءى من وراء هذه الدعوات أن تتسع الهوة بين اللهجات العربية العامية فيأتي يوم قريب أو بعيد يحتاج فيه العرب إلى لغة أخرى «كالإنجليزية أو الفرنسية» كي يتفاهموا، ثم يأتي جيل لا يعرف قراءة القرآن الكريم ولا يستطيع أن يحفظ بيتاً من الشعر العربي الفصيح».

وقد أخفقت هذه الدعوات القديمة في القرن العشرين، ولاسيما حين اتجه التعليم العالي إلى العربية في سوريا التي قدمت لطلابها كل علوم العصر بالعربية، وباتت رائدة في هذا المجال، لكن الجامعات العربية اليوم تعلم كلها بلغات غير العربية، ما دعاني إلى التساؤل: هل يعلم الصينيون أبناءهم بلغة غير الصينية؟ وهل يعلم اليابانيون أو الإسبان أو الفرنسيون أبناءهم بلغات غير لغاتهم القومية، فلماذا نحن دون خلق الله

نستهين بلغتنا ونهملها؟ ولا أقصد من هذا التساؤل إهمال تعلم اللغات الحية وهي حقاً لغات العصر مثل الإنجليزية الطاغية، لكن ينبغي ألا يكون ذلك على حساب لغتنا ويكون ثمنه ضياع هويتنا وعروبتنا، ولن نجد بديلاً عن هذه الهوية، فمهما كان العربي بارعاً في الإنجليزية أو الفرنسية فإنه حتى وإن نال الجنسية الغربية سيبقى غريباً في نظر المجتمع الغربي الذي يحاول أن يندمج فيه. وقد كشفت أحداث أيلول الأسود أن التحدث بالإنجليزية ونيل الجنسية لا يبرئ العربي من عروبته حتى وإن تنكر لها، وسيجد نفسه يعاني من ضياع فيصير كالمنبتّ!!

وقد بات ضرورياً أن تسارع الجامعات إلى قرار بتعريب العلوم كلها، والاستفادة من المعاجم العلمية الضخمة التي استند إليها التعليم بالعربية في سوريا ومصر ولبنان في تجربة حضارية نمت بقوة منذ القرن التاسع عشر، وبوسع اللغويين أن يفيدوا من خصوصية النحت بالعربية، وقد أشرت في غير موضع إلى قدرة لغتنا على استيعاب ستة ملايين كلمة، وبوسعهم أن يفيدوا من خصوصية استيعابها للألفاظ الأجنبية من دون تعريب. ولغتنا اليوم لا ترفض أن تستقبل المصطلحات التي باتت لها شهرة عالمية، واستخدامنا لها بالإقرار تعريب، وسنجد أن كثيراً منها له اشتقاق عربي، لأن نهضة العلوم في أوروبا قامت على نهضة العلوم عند العرب والمسلمين، ولابد من الإقرار بأن ما استخدمه ابن سينا في القانون أو البيروني في كتاباته عن أصول إقليدس وفي المجسطي عن بطليموس، قد تعرب بالتداول، وكان خالد بن يزيد قد قام بأهم عملية ترجمة عن اليونانية عبر علماء مدرسة الإسكندرية، وشهدت العربية في ذاك العصر الأموي المتألق حيوية فائقة في التعريب العلمي، كبر شأنها حين تأسست مدرسة دار الحكمة الشهيرة في بغداد.

وحسبي أن أؤكد للأجيال الشابة ممن يحبون أمتهم ويتمسكون بعروبتهم أن لغتهم هي أسمى اللغات الحية، وأنها تمتلك من الخصائص ما يؤهلها لانطلاقة كبرى في الحضارة الإنسانية، وهم وحدهم القادرون على تحقيق ذلك.

لغتنا، حصن العروبة

لم يكن حديث السيد الرئيس بشار الأسد عن اللغة العربية وضرورة الاهتمام بها خارجاً عن سياق حديثه عن المشروع القومي في خطاب القسم الثاني، فاللغة كما قال سيادته، هي (التي تربطنا بتاريخنا وثقافتنا وهويتنا) وقد أشار السيد الرئيس إلى التراجع في الاهتمام العام باللغة العربية، وأكد على ضرورة أن نرى اللغة (كائناً حياً ينمو ويتطور ويزدهر، كي تكون قادرة على الاندماج في سياق التطور العلمي والمعرفي، وأداة من أدوات التحديث، ودرعاً متيناً في مواجهة التغريب والتشويش التي تتعرض لها ثقافتنا) وأشار إلى اهتمام سورية باللغة العربية منذ وقت مبكر، فقد كانت لنا ريادة في التعليم العلمي العالي ولاسيما في الطب والهندسات باللغة العربية دون أن يجد علماؤنا أو الطلاب أي عناء مع المصطلحات، وكان أطباؤنا المتخرجون من جامعات حلب ودمشق من أبرز الأطباء الذين احتفت بهم دول العالم ولاسيما أوروبا وأمريكا) ولكن السيد الرئيس دعانا إلى استكمال جهودنا للنهوض بلغتنا، وبخاصة في هذه المرحلة التي يتعرض فيها وجودنا القومي لمحاولات طمس هويته ومكوناته). وأعتقد أن خطاب السيد الرئيس (وقد وصفته في غير موضع بالسهل الممتنع، لما فيه من بساطة في العرض واتساع في الفكرة وشمولية في الرؤية) قد كفى اللغويين عبء الشرح والتوضيح، وما أظن أحداً يحتاج إلى إقناع بكون اللغة معادلاً موضوعياً للهوية الوطنية والقومية، فالانتماء إلى العروبة ليس انتماء نسب بالضرورة، وإنما هو انتماء إلى اللغة، وهذا ما حدده رسول الله r حين قال (ليست العربية لأحد منكم بأب ولا أم، إنما العربية اللسان) وهذا يعني أنها الفكر والثقافة والانتماء الحضاري، وحسب العربية شرفاً وقدسية أنها لغة القرآن الكريم، وهو ما جعلها لغة عالمية يتلوها المسلمون في كل مكان يوجدون فيه، وقد حظيت بسبب هذه المكانة القدسية بثروة حضارية فريدة حين كتب عباقرة المسلمين من مختلف القوميات والجنسيات آدابهم وعلومهم بها واكتشافاتهم بها، لقد فضلوا لغة القرآن على لغاتهم المحلية، وحققوا بفضلها عالمية ثقافتهم وحضارتهم.

وقد بات أمراً خطيراً أن ينصرف بعض شباب الأمة عن العناية بهذه اللغة التي حباها الله ما ليس للغات العالم من خصائص يجهلها كثير من بعض أبنائنا المنصرفين عنها، وممن يظنون لجهلهم بها أنها عاجزة عن استيعاب معارف العصر، ناسين أنها لغة نحت، تتسع لأكثر من ستة ملايين كلمة بينما المستخدم منها في كل المعاجم قد لا يزيد على مئة وعشرين ألف لفظ ولمن يريد أن يعرف خصائص هذه اللغة، أذكره بالكتاب الشهير (الخصائص لابن جنّي) ليأخذ فكرة عن اشتقاق الكبار كما يسمى أو اشتقاق الملوك، فقد انصرف كثير من علماء اللغة إلى علم النحو، وأهملوا علوم فقه اللغة، وله في ثرائنا اللغوي مكانة عالية، وهو مفتاح تطوير اللغة وضخ الحياة العلمية المعاصرة فيها.ولئن قيل إن لغتنا لا تملك أن تحتوي ما يستجد في كل يوم من مصطلحات علمية في عصر التدفق المعرفي، وأننا مضطرون عبر التواصل المتين مع العالم

إلى استخدام مصطلحات علمية باتت دولية التداول، فإنني أجد لغتنا لا ترفض التعريب، فقد استعاد القرآن الكريم عدداً من الألفاظ التي انشقت عن اللغة العربية الأم في جذرها السامي مثل الأكادية والبابلية والآرامية والعبرية، فأعاد تعريبها لأن العرب استخدموها فباتت عربية قبل ظهور الإسلام، فأقر القرآن الكريم عروبتها، كأسماء الملائكة، وسواها من ألفاظ من مثل (إبريق، إبليس، استبرق، درهم، دينار، صراط، قرطاس، لؤلؤ، مرجان، كافور، ياقوت، جبريل، إسرافيل، إلخ) هي كلمات اعتبرها بعض الدارسين أعجمية، ولكنها كلمات عربها القرآن الكريم حين استعادها من جذر اللغة العربية الأم، ونحن نجد كلمة قرآن كلمة عربية في تجلياتها السريانية، أليست على كلمة (قريانا) السريانية تصريف من تصريفات كلمة قرأ، وقد جاءت على وزن فعلان مشتقة من ذات الجذر السامي العربي، وهذا مصداق قوله تعالى (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) لأن كل الكلمات فيه هي من أم أسرة اللغة العربية المتعددة التجليات، ومما استعاده العرب في آدابهم قبل الإسلام، واستخدموه، فبات عربياً خالصاً، وهو المعهود عن قريش بخاصة، وقد نزل القرآن بفصيح لهجتها التي اختارها شعراء العرب قبل الإسلام. ألم يقل امرؤ القيس (ترائبها مصقولة كالسجنجل)؟ وتبدو الكلمة فارسية بمعنى المرآة، لكن استخدام امرىء القيس لها يدل على أنها كلمة عربية بالمعهود عند قريش، ولا يخفى على الباحثين أن جل اللغة الفارسية هي من جذور العربية، ومن مفرداتها. إن لغتنا اليوم لا ترفض أن تستقبل المصطلحات التي باتت لها شهرة عالمية، واستخدامنا لها بالإقرار تعريب، وسنجد أن كثيراً منها له اشتقاق عربي، لأن نهضة العلوم في أوروبا قامت على نهضة العلوم عند العرب والمسلمين، وكثير من العلوم أوجدها العرب كعلم الكيمياء وعلم التفاضل والتكامل، وعلم المثلثات، وعلم الهيئة، وعلم القطاع الهندسي، وعلم الجبر، وعلم العمران، وعلم الصورة، وسوى ذلك كثير مما سبق لي أن تحدثت عنه طويلاً مع كبار علماء العرب، في برامج تلفزيونية اشتهرت مثل برنامجي (الأوائل) و(الذخائر) اللذين أنتجهما التلفزيون السوري أواخر التسعينيات) وقد أفدت فيهما من دراسات ذات شأن كانت مراجعي الهامة حين قدمت دراستي الأكاديمية عن (المساهمة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية).

ولست أريد الخروج بعيداً عن الموضوع أو الدخول في التفاصيل الفقهية اللغوية، فحسبي هنا أن أشير إلى أهمية أن تجد اللغة العربية ذروة اهتمام بها جسده حضورها المتأني في خطاب قسم لرئيس جمهورية عربية، وهو يرسم في خطابه الهام إستراتيجيات وخطط المستقبل، ويضع الأمة أمام مسؤولياتها الجسام، وقد برز الاهتمام باللغة العربية في صدر الأولويات المستقبلية، لأن اللغة صهوة المشروع القومي الذي هو العروبة في كل تجلياتها وبخاصة في رسالتها الإسلامية الخالدة، وقد أشار السيد الرئيس إلى تجسيد اللغة ارتباطاً بالوطن والهوية والدين.

ويبقى السؤال الأهم، كيف بوسعنا نحن المسؤولين عن الثقافة أن نجسد هذا التوجيه الذي هو من صلب عملنا ورسالتنا؟ هل نريد إلغاء العامية من حياة الناس وفرض التحدث بيننا بلغة فصيحة؟ ما أظن أننا قادرون على تحقيق ذلك في مجتمع يشكو من تزايد عدد الأمية الثقافية فيه فضلاً عن الأمية الكتابية والمعلوماتية!! إننا نريد أن تبقى العامية المهذبة المشذبة مستقاة من الفصحى دون الحاجة إلى استعارة ألفاظ أجنبية في كلامنا العادي مع وجود ما يشاكلها من لغتنا، ونريد أن تبقى اللغة الفصحى البسيطة لغة

الأدب والتخاطب العلمي والإعلامي، وقد بات مخجلاً أن نجد الكثرة من برامج التلفزيون تؤدى بلهجة محلية عامية يستوي عندها الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولكي لا يجد الإعلاميون غضاضة فيما أقول فلأبدأ بالاعتراف بأنني أعيد نصف البريد يومياً لتصحيح ما أجد من أخطاء فادحة في مكاتبات وزارة الثقافة!! وللحديث شجون.

لغتنا في عصر المعلوماتية

انعقد في دمشق في ٢١/١١/ ٢٠٠٦ المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية تحت عنوان (اللغة العربية وعصر المعلوماتية) وقد بات ضرورياً أن يتدارس العرب واقع لغتهم بعد أن عصفت رياح التغريب بالأمة، وطغت مظاهر الانسلاخ الثقافي المبرمج على وسائل الإعلام، فقد ودعت جملة من قنوات التلفزة لغة العرب الفصحى وبات الحديث بالعامية المحلية عادياً حتى في برامج الفكر والأدب، بل إن بعض القنوات بدأت تقدم نشرات الأخبار بالعامية، ولئن كنا قبلنا أن تكون العامية لغة مسلسلات التلفزيون الاجتماعية فإن من الصعب أن نقبل برامج الثقافة والفكر والسياسة بالعامية، وقد بدأت تتسل رويداً حتى إلى الإعلام الجاد، والمفجع أن تختفي لغتنا في بعض الدول العربية من الحياة العامة، فأنت تضطر إلى استخدام الإنكليزية في الأسواق وفي الشارع الذي باتت كل اللافتات فيه بالإنكليزية مع انحسار تدريجي للعربية من عناوين وأسماء المحلات والدلالات الطرقية، بل سأسمح لنفسي بانتقاد قاس لبعض الأسر العربية التي جعلت لغة الحديث في المنزل بالإنكليزية، وقد فجعت ذات يوم حين جلست إلى جواري في أحد المطاعم الخليجية أسرة تضم أباً وأماً وعدة أبناء في زي عربي إسلامي، وكانوا يتكلمون بصوت مرتفع بالإنكليزية فيما بينهم، ولولا الزي والملامح ومرور عابر سلم عليهم بالعربية فاضطروا إلى إجابته بها لظننت أنهم من بلاد الواق واق، والمفارقة المحزنة لهم هي أنهم لو رطنوا الإنكليزية قروناً فإن البريطانيين لن يعتبروهم ورثة شكسبير، ولن يعفيهم الأمريكان من نظرة الامتهان.

والأمر الأكثر إيلاماً في الشعور الدوني اللغوي عند بعض العرب أنهم يتحدثون بالإنكليزية في منظمات الهيئة الدولية التي ناضل آباؤنا عقوداً حتى تمكنوا من فرض العربية لغة رسمية فيها.

وأما الصدمة الحضارية العربية الحديثة مع عصر المعلوماتية فقد سارع المخلصون من العرب إلى تجاوزها حين عربوا الإنترنت، وأكرمنا المخترعون من كل بلدان العالم حين قدموا لنا منتجاتهم في الهاتف النقال وفي الكمبيوتر مترجمة إلى العربية، فلم تعد ثمة حاجة إلى إغفال العربية في حياتنا التقنية بذريعة ثورة المعلوماتية والاتصال، وأما الجامعات وما استجد فيها من علوم فهي مطالبة بأن تدرس الطلاب لغة عالمية يتقنونها جيداً بل إنني أريد أن يتعلم أبناؤنا أكثر من لغة، ولكن ما المانع من الإفادة من تجربة الجامعات السورية العريقة التي دأبت كليات الطب والعلوم فيها منذ تأسست على تعليم كل علوم العصر لطلابها بالعربية دون أن تواجه أية مشكلة في تعريب المصطلحات، وقد ثبت أن الطلاب العرب أكثر فهماً للعلوم التي تقدم لهم بالعربية، وإن زعم قائل أن أطباء سورية لا يجيدون اللغات العالمية الحية فحسبنا أن نعلمه أن عدد الأطباء السوريين المقيمين في أوروبا فقط من المتخرجين من جامعة دمشق والذين درسوا

الطب بالعربية يزيد اليوم على خمسة وعشرين ألفاً وهم من أفضل وأشهر الأطباء في ألمانيا وأسبانيا والنمسا وسواها، بل إن ألوفاً منهم يعملون في الولايات المتحدة، هؤلاء غير خريجي كليات العلوم الذين تعلموا بالعربية وهم اليوم من المغتربين، وهم مهندسون وعلماء بارعون، وقد أجادوا لغات العصر دون أن يفقدوا إجادتهم للغة الأم.

وأرجو ألا يظن أحد بأنني أباهي بالسوريين على سواهم من أشقائهم العرب، فأنا أحترم كل الطاقات والكفاءات العربية، لكنني أستعرض واقعاً اختصت به جامعات سورية حين أصرت على تقديم العلوم بالعربية، ولن أخفي خوفي من تعرض هذه التجربة لانهيار مع الإقبال الشديد على افتتاح جامعات خاصة في سورية أخشى أن يأخذها الاستغراب إلى الاستغناء عن التعليم بالعربية. وبدهي أن الحفاظ على العربية هو حفاظ على الهوية، فالأمة التي تفقد لغتها تضيع هويتها، ولا تبقى لها أية معالم ثقافية أو حضارية فارقة، وينبغي الحفاظ على اللغة من المراحل الأولى في التعليم، كما ينبغي أن يتنبه الآباء والأمهات إلى خطر أن يتعلم الأبناء لغة الخادمات في المنازل ويجهلوا لغة الآباء، ومن أراد أن يوطن اللغة في نفوس أبنائه فعليه أن يعلمهم القرآن الكريم فهو الحافظ المقدس لهذه اللغة التي كرمها الله حين اختارها لغة قرآنه.

التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب

وددتُ أن تكون الندوة الفكرية المرافقة لمعرض الكتاب الدولي في دمشق العام ٢٠٠٨ بحثاً عن التواصل والتكامل الثقافي بين مشرق الأمة العربية ومغربها، وقد عُقدت عدة ندوات في الوطن العربي لدراسة الموضوع ذاته، ولتصعيد الاهتمام بالتكامل الثقافي الذي يحققه هذا الحوار الذي ينبغي أن يستمر، فلابد لثقافتنا العربية من أن تخوض حواراً داخلياً عميقاً يواكب دعوتها إلى الحوار مع الثقافات العالمية الأخرى. ولابد من التوقف عند شيوع نظريات تقدم نفسها على أنها الحداثة المنشودة، تدعو إلى القطيعة أو تؤكد وجودها عبر دراسات فكرية بنيوية أو مادية أو تاريخية تريد أن تؤسس الثقافة العربية المعاصرة على مفهوم القطيعة وليس على أساس التواصل والاستمرار والاستقرار. وبعضها يرى أن تطور العلم يخضع لمتغيرات كبرى تجُبّ كلَّ مرحلة فيها ما كان قبلها من مراحل الارتقاء. وهذا كلام مرفوض جملة وتفصيلاً على صعيد الفكر والعلم، لأن حقائق العقل الواقعة في دائرة الثوابت راسخة رسوخ المنطق الإنساني ورسوخ الغرائز والدوافع والنوازع، مع الاعتراف بتغير أشكال التعبير عنها عبر تحديث مستمر. وكذلك العلم هو سلسلة معرفية متراكمة تتناقلها الحضارات، فكيف إذا كان التناقل في داخل الحضارة الواحدة؟

ويبدو أن بعض المفكرين المشارقة والمغاربة قد أسهموا بقصد، أو بغير قصد، في تكوين رؤية تبحث عن الفوارق أكثر مما تبحث عن التواصل والتماهي والتشابه، فهناك من تحدثوا عن اختلاف في الزمان والمكان المغربيين عن مثيليهما المشرقيين. وهناك من اشتغل بالبحث عن الأسبقية والريادة، وهو أمر لابد من أن يصطنع حساسيات لا تحتاج إليها ثقافتنا الراهنة التي تنفتح أمامها آفاق ثقافات الأرض، وطبيعي أن يكون انفتاحها على جبهاتها الداخلية أرحب وأوسع. ولقد كان هدف ندوتنا أن يتحاور المثقفون من المشرق والمغرب لتوسيع الرؤية المشتركة لمفهوم الوحدة عبر التعدد والتنوع، وهذا المفهوم لا ينكر الخصوصيات الثقافية التاريخية، وهذه الخصوصيات لم تشكل عبر التاريخ كله أية قطيعة مدَّعاة. ولئن كنا نريد البحث عن ذروة هذه الحضارة الواحدة فإننا نجدها في الإسلام الذي يشكل البنية الحضارية المشتركة، ورغم كثير من التباين في التجربة التاريخية، وقد حفل تاريخنا الثقافي بمساجلات طريفة حول التبادل المعرفي، فحين جاءت إلى المشرق كتب أبي علي القالي وابن عبد ربه وسواهما من صناع فن الخبر، قال المشرق العربي «بضاعتنا ردت إلينا». وكان أهل المشرق قد حملوا معهم إلى المغرب العربي كل معارفهم يوم حققوا فتوحاتهم، ولكن اختلاطهم بثقافات جديدة في المغرب أتاح لهم تميزاً بات غنى واضحاً في الثقافة العربية.

ويميل بعض المثقفين إلى اختراع فوارق، فهناك من يظن أن المدارس الفكرية التي انتظمت فيها فلسفات المغرب العربي كانت مختلفة تماماً عن فلسفات أهل المشرق، ويحيل بعضهم الفكر المشرقي إلى

الشيخ الرئيس ابن سينا وإلى الفارابي وإلى فقه الغزالي وتأثر فلسفة المشرق بالفلسفة الأفلاطونية، بينما يرى أن المغرب العربي يحقق فلسفة ابن رشد وابن طفيل وفقه ابن حزم. وهذه الرؤية تغفل عن كون المدرستين تنهلان من الفكر العربي الإسلامي ذاته. فإذا كان ابن سينا والفارابي الملقب بـ «أرسطو العرب» قد درسا فلسفة اليونان وتأثرا بها وقدما نقداً لها، وأرادا الإفادة من حكمتها في دعم الفلسفة الإسلامية، فإن ابن رشد فعل الأمر ذاته حين شرح أرسطو. ولئن كان قد نزع إلى الفصل بين الرؤية التأملية الوضعية وبين الرؤية الدينية الوقفية فإن المعتزلة و«إخوان الصفا» قد أسسوا لذلك، ولا أعني بذلك مفهوم الريادة أو السبق، وإنما أعني وحدة المصدر والمنهل، لتأكيد وحدة الثقافة مع تنوعها الثري.

وفي العصر الحديث تألقت في المغرب العربي دراسات فكرية حول تكوين العقل ودراسة التراث، ولكن كثيراً منها كما في المشرق نظر إلى العقل العربي وإلى التراث بعيون المستشرقين الذين كانوا أساتذة للباحثين الذين درسوا في الغرب، وتأثروا بنظريات أوروبية لا تصلح جملة لتشخيص خصوصية الثقافة العربية. وما زلت أرى ضرورة أن يجد الباحثون منهجاً للبحث مستخرجاً من صلب الثقافة العربية. وأزعم أن المدارس البنيوية والمادية والتاريخانية التي هي نتاج فلسفات غربية لم تستطع أن تصل إلى المضامين العميقة للثقافة العربية أو أن تلتقط الوجدان فيها. ولئن كان فلاسفة الماضي مثل الفارابي وابن رشد قد أفادوا من نتاج فكر اليونان، فإن رؤيتهم الموسوعية التي يفتقدها الباحثون المتخصصون اليوم أنقذتهم من الوقوع في الرؤية الأحادية، ومن فخ التنافر بين الميزان والموزون، وأنا لا أطلق أحكاماً اعتقادية وإنما أثير أفكاراً هي بالضرورة قابلة للنقد والنقض، وهذا ما حرصنا عليه في الملتقى ليس لهدف الوصول إلى الفصل بين الصحيح وغير الصحيح، وإنما بهدف الوصول إلى مزيد من التنوع الحيوي، عبر وفرة من وجهات النظر. كما حرصنا على أن نتأمل تجربة المغرب في مثاقفته مع الغرب، فهو الأقرب إليه في الجغرافيا وفي التاريخ، وقد حقق تمسكاً بثوابته على الرغم من تعرضه لاستعمار طويل ولاسيما في الجزائر. واليوم تحقق الجاليات العربية والمغاربية خاصة في أوروبا حضوراً سياسياً وثقافياً متميزاً (فقد وصل كثير من العرب المهاجرين إلى مواقع سياسية مهمة في أوروبا)، وباتت تجربة الاغتراب بين أهل المشرق وأهل المغرب جديرة بالحوار للإفادة من إيجابياتها، ولتأمُّل ما فيها من سلبيات، ولدراسة تفاعل الأمة مع هذه الحالة المستجدة، ولاسيما بعد أن صارت موضع حوار سياسي داخل أوروبا.

كما وجدنا من الضروري أن يتم تأمل نقدي للاستجابة الثقافية بين كل من المشرق والمغرب لتحديات القرن الحادي والعشرين، بهدف توحيد المواقف التي تعزز مفهوم الأمة الواحدة. و بين السياسة والفنون - م ١٣ في الندوة إلى أن أهل المغرب لم يشغلهم موضوع الإثنيات أو الطائفية التي تقلق أهل المشرق، ربما لاختلاف طبيعة النسيج الاجتماعي بين الجهتين، مع أن المغرب العربي في تاريخه شهد كل ما يعرفه المشرق اليوم من تنوع جعل ابن حزم يؤلف كتاباً عن «الملل والنحل».

وأجد من الضروري أن تطلع الأجيال الجديدة في المشرق والمغرب على عمق التواصل بين صفحتي كتاب الثقافة العربية لترى الجذور المعرفية التي توحِّد الرؤية العامة إلى درجة التمازج، فلم يكن المؤسسون الكبار لثقافتنا يتوجهون إلى ثقافة مشرقية أو مغاربية، فابن عربي وابن خلدون وابن البيطار وأمثالهم كثر حتى عصر الأمير عبد القادر الجزائري وما بعده، عاشوا بين مشرق الأمة ومغربها، ليؤسسوا ثقافة عربية

إسلامية واحدة في مصادرها الكبرى، متنوعة في إبداعاتها. ولقد عانت الثقافة العربية من فصام غير مسوَّغ في القرن العشرين. وأذكر أنني في الثمانينيات من القرن الماضي شعرت بقسوة جهلنا في المشرق بما يبدع أهل المغرب ولاسيما في الميدان الفكري، فقمت بجولة واسعة في دول المغرب العربي (قبل ظهور الفضائيات) لإجراء حوارات تلفزيونية كان هدفي منها تعريف أهل المشرق بإبداع أهل المغرب، وقدمت عشرات الحلقات التلفزيونية التي عرضت في القنوات العربية التلفزيونية ولقيت نجاحاً في مضامينها. وأعتقد أن ظهور الفضائيات في مطلع التسعينيات قد حقق كثيراً من التواصل، ولكنه في كثير من الأحيان تواصل شكلي تأخذ دراما التلفزيون النصيب الأوفر فيه، ولا يصل بعمق إلى المعرفة الفكرية التي لا يحققها إلا الكتاب، وما يزال الكتاب ضعيف الحضور والانتشار. وأحسب أن إفادتنا من معارض الكتاب في إقامة ملتقيات فكرية تقود إلى الهدف العريض وهو تعميق الحوار داخل الثقافة الواحدة.

إعلان القيروان

مرة أخرى أعود إلى القيروان عاصمة الثقافة الإسلامية هذا العام ٢٠٠٩، وأنغمس في تاريخها الثري لأقرأ فيه صفحات من الفكر لا تزال جديدة رغم مرور الزمان، وما كان يتاح لي تأملها لولا أن المكان ينطق بها، وحسبي صوت الأذان الذي ينطلق من جامع عقبة المتاخم للفندق الذي نزلت فيه يدعوني إلى مزيد من تأمل هذه المعجزة الإلهية التي منحت هذا الأذان سر البقاء صوتاً يتردد في الفضاء، فلا يكاد ينتهي أذان في مكان حتى يبدأ في مكان، فأما الفندق فكان قديماً ثكنة عسكرية، ومن الطريف أن قبوها الذي كان سجناً تحول إلى مقهى يؤمه السائحون ليتنفسوا فيه هواء الحرية ربما تعويضاً عن معاناة المئات وربما الآلاف ممن ضاعت أعمارهم خلف جدرانه، وفي فسحة الجامع الأشهر في المغرب العربي بوصفه أول مسجد بناه المسلمون فيه، بعد أن بنى عقبة القيروان معسكراً لجنده وقاعدة للدعوة وسط المغرب العربي بعد خمسين عاماً فقط من الهجرة، وبعد ثلاثين عاماً من فتح مصر وبناء المسجد الأول في أفريقية الذي سمي مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، وقفت أتأمل عظمة ما فعل الأجداد، وعظمة حفاظ أمتنا على تراثها، على الرغم من كل ما نعيبه على أنفسنا من ضعف وتخلف وانهيار، وهانحن بوصفنا أمة العروبة والإسلام نأتي من كل أنحاء عالمنا الكبير، ومن أصقاعه البعيدة، لنستعيد ذكرى عقبة وصحبه في القيروان، ولنحاور العالم من موقعه، ولا نزال وسنبقى نرفع الشعار الذي رفعه، وهو ما تضمنه إعلان القيروان بعد ثلاثة أيام من الحوار العالمي حول الحضارات وتنوع الثقافات في مطلع شهر حزيران (يونيو ٢٠٠٩) فقد جاء الإعلان مستمداً من القيم الإنسانية السامية التي دعا إليها الإسلام الذي استوعب عطاء كل الحضارات، فلم يلغ أية حضارة ولم يقمع أية ثقافة، بل أفاد مما أنجزته، ولم يجبرها على اتباع رسالته، بدليل وجود كل الحضارات القديمة وما فيها من فلسفات وأفكار وقيم وعادات وهي التي زامنته ومازالت حية في أرضه وتحت يافطته، وقد يرفض الإسلام منها ما لا ينسجم مع عقيدته لكنه لا يمنع أتباعها من ممارسة حريتهم في الاعتقاد بها أو تكوين حياتهم حسب برنامجها الفكري، ولقد كان مؤتمر القيروان الدولي لحوار الحضارات غنياً بحضور دولي فكري وفلسفي ضخم، وكانت دعت إليه المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، وقد مثلها مديرها العام الصديق المثقف الكبير الدكتور عبد العزيز التويجري، وشاركتها المنظمة الدولية الفرانكفونية، ومثلها السيد عبدو ضيوف الأمين العام لمنظمة الفرانكفونية وهو رئيس السنغال السابق، وحضر الحوار عدد كبير من ممثلي المنظمات الدولية وبخاصة الأوروبية والأفريقية، ومن أهمها اليونسكو، وعدد من الشخصيات الدولية مثل الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي والسيدة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية في سورية، ولقد كان لي شرف رئاسة الجلسة الأولى من هذا المؤتمر وقد أطلقت في كلمتي أسئلة أجد الإجابة عنها ضرورة لمواصلة الحوار وهي موجهة إلى صناع القرار في العالم، وأهمها كيف يستمر هذا الحوار وغزة لا تزال تحت الحصار؟ وكيف سنحول المتوسط إلى بحيرة سلام وأساطيل

القتل والدمار تسد آفاقه؟ وكان الأمر الإيجابي في المؤتمر أنني سمعت من مثقفين أوروبيين كبار تأييداً لحقنا، بل إن أحدهم أعلن يأسه من إقامة السلام في منطقتنا ما دامت إسرائيل مستمرة في بناء المستوطنات، وغير عابئة بكل النداءات، والمهم أن إعلان القيروان بتأكيده احترام التنوع الثقافي واحترام الآخر وترسيخ التسامح ومبادئ العيش المشترك بين الأديان والثقافات المختلفة، جاء بمواصفات جوهر ما قدمه عقبة وصحبه في القيروان من مبادئ إنسانية حفظت للناس خصوصياتهم ولم تجبرهم على معتقد أو على طراز عيش.

الصداق القيرواني

أتيح لي أن أشارك في إطلاق احتفالية القيروان عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٩، وكنت أتأمل المدينة بدهشة من عظمة الإرادة الإسلامية التي جعلت الفاتحين يبنون مدينة إسلامية صرفة خالصة بعد خمسين عاماً فقط من الهجرة، فإذا اقتطعنا منها أحد عشر عاماً كان فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يبني دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة وفي الجزيرة العربية، فإن المسلمين إذن حرروا كل بلاد الشام والعراق ووصلوا إلى أذربيجان وأرمينيا وخراسان وانطلقوا إلى ما خلفها في الشرق بعد مرور تسع سنين على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد انطلقت جيوشهم في اتجاه الغرب إلى مصر وفتحتها سنة عشرين هجرية، وبعد عامين انطلق عقبة بن نافع لمتابعة فتح المغرب العربي وخلال ثلاثين عاماً كان المسلمون قد أنجزوا مشروعاً ضخماً وصلوا فيه إلى بناء أول مدينة إسلامية هي القيروان. ولقد جلست في صحن جامع عقبة أتأمل صرحاً ضخماً من صروح هذه الثقافة التي لا تزال حية إلى اليوم، وقد أتاحت لي هذه الزيارة أن أتعرف أكثر إلى مكانة القيروان في تاريخنا وفكرنا العربي الإسلامي، وكان أكثر ما أثار اهتمامي أن أستذكر ما يسمى (الصداق القيرواني) الذي اختصت به نساء القيروان في فقههن، ومنه ما يسمى (الجعل التحريمي)، وقد اشتهر هذا النوع من عقد الزواج حتى بات يكتفى بأن يذكر العاقد على امرأة قوله (على شرط نساء القيروان)، وكن قد حفظن لأنفسهن حق أن يشترطن في ملحق عقد النكاح شروطاً تضاف إليه كحق الزوجة بتطليق نفسها (أي أن تكون العصمة في يدها) أو حقها باشتراط ألا يتزوج زوجها امرأة أخرى، فإن فعل فإن لها حق تطليق الزوجة الجديدة، ويسمونه التمليك، وعلى الرغم من الاختلافات الفقهية حول شروط عقد النكاح، فإن نساء القيروان جعلنه مدرستهن الفقهية، وقد عزز موقفهن كون أساتذة الفقه في القيروان كانوا من كبار صحابة رسول الله والتابعين، وممن درسوا على الإمام مالك بن أنس، وأسسوا المذهب المالكي، ولم تكن نساء القيروان بمعزل عن التفقه والاجتهاد، فقد برزت منهن نساء فقيهات مشهورات، مثل خديجة بنت الإمام سحنون بن سعيد التنوخي، وهو شامي من أهل حمص، وكانت ابنته خديجة قد أخذت الفقه عنه، وباتت تعلم النساء وترشدهن، وهي مدفونة في فسقية الأغالبة إلى جوار قبر أبيها وقبر الصحابي أبي زمعة البلوي رضي الله عنه.

وكذلك كانت أسماء بنت أسد بن الفرات التي اشتهرت بالرواية على مذهب أبي حنيفة، وفاطمة الفهرية أم البنين التي بنت جامع القرويين في فاس، ومثلهن كثيرات عبرن عن مكانة عالية لدور المرأة في الإسلام. ولقد قرأت دراسة وافية عن الشرط القيرواني قدمتها الباحثة نرجس دبش تحت عنوان «قراءة تاريخية في مسألة فقهية»، تناولت فيها الشرط القيرواني وأشارت إلى مرجعياته الفقهية التي لا يتسع المجال هنا لاستعراضها، ولابد من التأكيد على أن الشروط القيروانية لم تكن من مفسدات العقد وإن كانت

موضع خلاف فقهي، فلا يحق للمرأة مثلاً أن تشترط على الزوج ألا يعاشرها معاشرة الأزواج أو أن يشترط أحد الزوجين عدم الإنجاب، ولا يحق للزوج أن يشترط على المرأة أن تنفق على نفسها من مالها الخاص، فمثل هذه الشروط تجعل عقد الزواج فاسداً، فأما القيروانيات فقد اشترطن ما لا ينكره إجماع الفقهاء وما لا يقبله كثير منهم، فمنهن من اشترطت على زوجها أن ينفق على أولاد لها من زواج سابق، ومنهن من اشترطت ألا يتزوج بثانية، وبما أن القضاء لا يمنع الزوج فقد ملّكت نفسها حق الطلاق إذا فعل، ومنهن من تملكن حق تطليق سواهن من زوجات بعدهن، ولم تكن هذه الشروط تأتي في صيغة العقد المؤسس وإنما كانت شبه ملاحق عليه، لكن المسلمين في المشرق والمغرب تعارفوا على تسمية هذا النوع من عقود النكاح بقولهم (على الطريقة القيروانية)، وأحسب أن ما حققته نساء القيروان منذ قرون بعيدة هو الذي أسس لما نالته المرأة التونسية من خصوصية في قوانين الأحوال الشخصية اليوم.

رباط الفتح في المغرب

استمتعت مرات بزهو المغرب وزرت بعض مدنه أواسط التسعينيات، وكانت زيارتي للرباط أواخر نيسان (أبريل ٢٠٠٩)، مع وفد ثقافي كبير حيث أقمنا أسبوعاً ثقافياً سورياً أتاح لنا أن نلتقي بعض كبار مثقفي المغرب، وقد حرصت على أن يكون بينهم صديق عرفته منذ أواسط السبعينيات هو الفنان الكبير الطيب العلج الذي أبدع أول عرض مسرحي مغربي شاهدته عبر مشاركته التي لا تنسى في مهرجان دمشق المسرحي أواسط السبعينيات بمسرحية «النشبة»، ثم شاهدت له مسرحية «السعد»، وحين زرت الرباط عام ١٩٩٦ زرته في مسرح محمد الخامس، وقد التقيته مؤخراً وقد تجاوز الثمانين من العمر، لكنه لا يزال يحتفظ بحيوية المبدع وصفاء وجدانه، وكنت قد علمت أن الصديقة الفنانة الكبيرة ثريا جبران وزيرة الثقافة في المغرب قد أصيبت بعارض صحي مفجع، وقد أسعدني أن تعود إلى العمل معافاة بحمد الله حين خرجت لاستقبالنا ومشاركتنا افتتاح الأسبوع الثقافي السوري تكريماً لنا وهي تعاند المرض، وكنت قد عرفت الفنانة ثريا منذ زمن بعيد، حيث كرمتها وزارة الثقافة السورية في مهرجان دمشق المسرحي عام ٢٠٠٦، قبل أن تتولى الوزارة، تقديراً لمكانتها الفنية العالية، وقد زرت في الرباط صرحين حضاريين كبيرين، أولهما المكتبة الجديدة، وفيها أحدث مختبرات ترميم المخطوطات، فضلاً عن حداثة التقنية في كل أرجائها الواسعة، وأما الصرح الثاني فهو المتحف الافتراضي، وفيه من تقانة العروض ما يدهش، وهو متصل بمعرض للفنون التشكيلية، التي وجدت بينها لوحات غاية في الإبداع، ولاسيما تلك التي أفادت من تجارب التواصل مع الفنانين الأوروبيين الذين يجدون في المغرب نكهة الحضارة الإسلامية المتفردة بخصوصياتها، مثل فن الخط الذي احتفى المعرض بلوحات نادرة من تجلياته، رسمها فنان ألماني مسلم استوحى من فلسفة الخط العربي وفضاءاته ما يثير الفكر ويمتع النظر، وكانت فرقة أورنينا الراقصة قد أحيت حفل افتتاح أسبوعنا الثقافي، واختتمته فرقة غناء من مبدعي الطرب في حلب، أحيت تراثنا العربي المشترك وهو في الموسيقا أكثر وضوحاً لناحية انتمائه إلى التشاركية الضخمة التي عاشتها بلاد الشام والمغرب معاً في المرحلة الأندلسية، تلك الفترة الزاهية التي لا تزال أفياؤها الوارفة تظلل العلاقات العربية الإسبانية بفيض من نشوة الأندلس فناً وإبداعاً، ولا تزال موحية ومحفزة للأمتين على استعادة ما شهده المتوسط من تلاقح للثقافات عبر العصور، ولئن كانت الرباط مدينة حديثة بالقياس مع المدن التاريخية لكونها بنيت في القرن الثاني عشر الميلادي فإن ما قدمته للتاريخ العربي والإسلامي يرتقي بها إلى مكانة رفيعة في وجدان الأمة، فقد بناها المرابطون وأضاف إليها عبد المؤمن رباط الفتح فتحولت إلى معسكر وحصن ضخم، وقد استمتعت بتحول القلعة إلى مقصد سياحي يؤمه الزائرون من كل صوب، ويقرؤون فيه تاريخاً حضارياً يملأ النفس اعتزازاً، ويعيد إلى ذاكرة العرب بخاصة أطياف البناة المؤسسين مثل أبي يوسف المنصور الذي يعتبر

الباني الأساسي للرباط، وهو الذي أقام الأسوار والأبواب، وللأبواب جمالية خاصة في ذاكرة المغرب المعمارية، وما زلت أذكر متعتي بلوحات فنية خلدت فيها الأبواب المغربية الفنانة التشكيلية لطيفة التيجاني، التي تفردت بهذا اللون الفني الذي يحفظ ذاكرة لا تزال حية في معمار الأندلس والمغرب العربي، وهي عميقة التواصل مع ذاكرة الشام.

هل حقاً يكره العرب النساء؟

أثارني مقال يحمل عنوان (ما هي أسباب كراهية العرب للمرأة؟) كتبته امرأة عربية مثقفة تبحث عن أسباب هذه الكراهية التي تراها ظاهرة سياسية واجتماعية، تتمثل في جرائم الشرف التي يتواطأ فيها القضاء ضد المرأة لصالح الرجل كما تقول، وفي موقف بعض البرلمانات العربية التي ترفض مشاركة المرأة في الانتخابات، وفي كون المرأة هدفاً لبعض الحركات المتطرفة السادية، وفي جعل الطلاق أمراً صعباً كما في محاكم مصر، وفي منع المرأة من حق العيش وحيدة بعيداً عن السلطة الزوجية أو الأبوية، وما إلى ذلك من إشارات لتأكيد كون العربي عدواً تاريخياً للمرأة.

والعجيب أن الكاتبة المحترمة تحاول أن تنبش أصول هذه الكراهية من المصادر الدينية، وهي تبدأ من فهم خاطئ لقصة حواء التي أغوت الرجل وأغرته حتى أخرجته من الجنة، فهي تقول (حوّاء التي خلقت من أجل آدم لتؤنسه في وحدته الفردوسية أبى عليها طبعها الشرير إلا أن تغرّر به وتتسبب في طرده من الجنّة التي كان خالدا فيها! وهكذا تبقى المرأة في المخيال العربي مصدرا لكل الشرور والمصائب، مسؤولة عن جرم لم ترتكبه ومطالبة بتسديد ثمن جريمتها الشنعاء).

ثم تشير الكاتبة إلى قصة زليخة (الخائنة) زوجة العزيز التي عشقت الفتى الجميل يوسف وقامت بفعل الإغواء له، فصارت قصتها كما تقول الكاتبة (تعبيرا عميقا عن مكنون اللاشعور الجمعي للشعوب العربية فقد وقع إقصاء الخلفية الرمزية للقصة والوقوف عند «كيدهنّ العظيم» ليجعل اللاوعي الجمعي من الكيد صفة ملازمة للمرأة من حيث هي أنثى.

ثم تشير إلى هند بنت عتبة التي لعبت دوراً مركزياً في المعارضة المكية ضد الرسول (ص) حتى إنها أكلت كبد عمه حمزة، وتقول الكاتبة (لقد شكّل سلوك هند في المخيال الجمعي صورة الأنثى كرمز لغريزة الموت وكاندفاع نحو الفناء)!!

وأخيراً تشير إلى ما تسميه عقدة عائشة وموقعة الجمل وتخلط الحابل بالنابل في تفسير الدين والتاريخ لتؤكد أن العرب يكرهون النساء وأنهم متأثرون بهذه المثيولوجيا الدينية والأسطورية التي كرست الكراهية في الوجدان العربي.

ولا أدري كيف يغيب عن السيدة الكاتبة أن وجداننا العربي والإسلامي يصل في تكريم المرأة أحياناً إلى حد التقديس، فنحن عرباً ومسلمين نعتقد أن الجنة تحت أقدام الأمهات، وأن الرحم الأنثوي موصول بعرش الرحمن، ونرى النساء شقائق الرجال، والخطيئة عندنا فردية (لانرث من آدم ولا من حواء ذنباً

فنكفر عنه) ويقيننا أن كل نفس بما كسبت رهينة، ولاتزر وازرة وزر أخرى، ونعتقد أن ما يحدث من قهر للنساء العربيات هو بسبب بعد المجتمع العربي عن قيمه الأصيلة، وبسبب تخلفه الفكري، فجرائم الشرف ليست تنفيذاً لأوامر الإسلام الذي وضع حدوداً للعقاب على الزنا لاتفرق بين رجل وامرأة، وقد قيد الشهادة حول الزنا بأربعة شهود يرون الفعل بتفاصيله، بحيث يبدو الحد عقاباً على الإشهار والمجاهرة، وأما رفض بعض البرلمانات العربية مشاركة النساء في الانتخابات فهو نتاج تخلف راهن لا علاقة له بالتاريخ أو الموروث الثقافي الذي يجد في زنوبيا وبلقيس وخولة وأسماء ونسيبة وشجرة الدر وسواهن ممن يصعب حصر أسمائهن ممن عملن في السياسة والحكم والفقه مصدر فخر واعتزاز بمكانة المرأة العربية حين كان كثير من شعوب الأرض يعاملها معاملة مهينة، ولم تمنع الثقافة العربية قبل الإسلام أو بعده مشاركة المرأة في شؤون الحكم، لكن حجم هذه المشاركة محدود بقدرة المرأة على التفرغ للشأن العام وهي التي تقضي جل شبابها في الحمل والولادة والإرضاع ورعاية المنزل وتربية الأطفال وهذا الحجم المحدود ليس حكراً على العرب وإنما هو شأن إنساني لدى كل الأمم، وقد بدأ هذا الحجم يزداد ويكبر مع تطور الخدمات الاجتماعية التي تتيح تفرغاً للنساء العاملات.

ولست في معرض مناقشة تفاصيل ما فاض به مقال السيدة الكاتبة من فهم ضيق لموقف العرب من المرأة تاريخياً، ولكنني أعجب كيف تتوهم كاتبة مثقفة بأن العرب يكرهون النساء حقاً، وهي التي تعصر ذاكرتها وذاكرة التاريخ، وتلوي عنق الحقائق فلا تجد غير قصة الغواية عند حواء أو الخيانة عند زليخة، دون إيضاح علاقة العرب (بخاصة) بهاتين القصتين اللتين وردتا في الكتب السماوية، وقد يتأثر بهما من الشعوب من يعتقدون بوراثة الخطيئة، ولكن المسلمين بخاصة لا يعتقدون بذلك.

ويبدو تفسيرالكاتبة لموقف حواء عجيباً حين تقول (إن التفسير الحديث الذي يعتمد على الميثولوجيا، أي تشريح الأساطير، يميّز الأبعاد الرمزية للقصة، ويرى في حنين البشرية إلى الجنّة الضائعة، حنينَ الفرد إلى المرحلة الجنينية عندما كان الطفل في رحم الأم أي امتدادا بيولوجيا لجسد الأم وقطعة منها يأتيه رزقه رغدا. أما الطرد من الجنّة فهو (صدمة الانفصال عن الأم) وليتها فهمت القصة فهماً فلسفياً على نحو تفسير (سؤال المعرفة) كما في أسطورة بروميثيوس لكان أكثر عقلانية (مع احترامي العميق لرؤية المفسرين الدينية) ثم يأتي التفسير الأكثر إدهاشاً لموقف زليخة حين تقول (حادثة الإغواء يمكن اعتبارها تعبيرا عن رغبة وعن هوام وليست حقيقة. فهي ارتداد ونكوص إلى مراحل مبكرة للتطور الإنساني وهي كذلك تعبير عن رغبات مكبوتة لا واعية متعلقة بنكاح المحارم والفضول الجنسي والخوف من الخصاء، وقد شكل المرور من الطبيعة إلى الثقافة مرورا من مجال الغريزة إلى مجال القانون أي مجموعة المحرمات والممنوعات. بيد أن الطبيعة الحاضرة دائما في الرغبة المحرمة اللاواعية ستطبع الثقافة السائدة وستنعكس وجوبا في إشارات اجتماعية يخضع ترميزها وفك رموزها لنفس القواعد السائدة بالنسبة لإنتاجات اللاوعي).

أعترف للسيدة الكاتبة أنني لم أفهم هذا الشرح فهو يحتاج لشرح، حول علاقة القصة القرآنية بما سمته الرغبة بالهوام والخوف من الإخصاء، ولماذا كل هذا اللف والدوران لتجنب فهم البعد الأخلاقي المحض في موقف النبي يوسف عليه السلام، وعبارة كيدهن عظيم التي قالها العزيز في نهاية التحقيق لا تحمل أي دليل على كراهية مطلقة للنساء فهي مقيدة بخصوصية القصة، والعجب أن تختار الكاتبة قصة

امرأة شغفها فتاها حباً وتتجاهل قصة مريم التي فضلها الله سبحانه وتعالى على نساء العالمين وجعلها آية الطهر الإنساني، وعلام ترى أن المخيال العربي محقون بكراهية للنساء بسبب زليخة ولا تراه مفعماً بالحب من أجل العذراء مثلاً؟؟

وقد زجت الكاتبة بهند بنت عتبة دون رابط بين المقدمات والنتائج، وهند تكاد تنفرد بموقفها بين جملة ضخمة من النساء اللواتي بايعن الرسول عليه الصلاة والسلام وكن من أوائل الداعيات للدين الجديد، ولم يكن ما فعلته هند من تحريض على قتل حمزة رضي الله عنه ومحاولتها أكل كبده افتراء عليها فالحادثة مشهورة في أحد، ولا أدري كيف تكون قصة هند دليلاً على كراهية العرب للمرأة، مع أن بوسع متفيقه دعي أن يجعل منها دليلاً على كراهية المرأة للرجل إلى حد أكل كبده!!

لقد توقفت عند هذا المقال دون ذكر اسم الكاتبة لأن المهم هو مناقشة الأفكار فقط، والأهم عندي ألا تصدق فتياتنا الشابات أن قومهن العرب يكرهون النساء.

امرأة من هذا العصر

لست مطمئناً إلى تقسيم الأدب حسب الجنس إلى أدب رجال وأدب نسوان، لكنني لا أنكر على النقاد أن يقسموه بدافع درسي أو لتحديد خصوصية في أدب المرأة لا يملكها أدب الرجال، فثمة مساحة عميقة في نفس المرأة لا تعرفها إلا المرأة، وحتى الكاتبات من النساء المحافظات لا يجرؤن على اقتحامها في الأدب، وحين تجرأ نزار قباني على الدخول إلى مناطق الحساسية في علاقة المرأة بالرجل أنكر عليه النقاد المحافظون هذه الجرأة، وكذلك واجه إحسان عبد القدوس نقداً قاسياً لجرأته الروائية في تصوير أحاسيس النساء، وقد قبلوا أن تكون رواياته سيناريوهات للسينما ولكنهم لم يصنفوها مع الأدب الراقي، ولكن الرجلين وسواهما ممن غسلوا أدبهم بماء الأنوثة كانوا ذكوراً يتفاعلون مع قضايا المرأة من موقع الرجل، فأما الكاتبات اللواتي يقتحمن اليوم مساحة الممنوع أو المحظور أو المسكوت عنه فهن يخرجن على أدبنا العربي بقضايا لم يسبق أن اقتحمها أحد، ويطرحن قيماً إشكالية يصعب الحسم في رفضها أو قبولها، ولكنها هي التي تؤكد وجود أدب نسوي له من الخصوصية السردية ما لا نجده في أدب الرجال إلا نادراً، ومن ذلك روايات الكاتبة السورية الطبيبة هيفاء بيطار التي قرأت لها قبل بضع سنين روايتها «امرأة مطلقة»، فوجدت فيها من البوح بتفاصيل المعاناة ما لا تجيد التعبير عنه إلا امرأة عرفت هذه المعاناة العميقة الشفافة عن قرب، وحين قرأت روايتها «امرأة من طابقين» أدهشتني جرأة العنوان، لكنني أدركت مدى الأسى الذي تعيشه المرأة حين يغفل الرجال عن التفاعل مع عقلها وفكرها وثقافتها ولا يرون منها إلا ما يثير الغريزة، وقبل شهر قدّمت لي الدكتورة هيفاء روايتها الجديدة (امرأة من هذا العصر)، وبدا العنوان مثيراً كذلك، فرحت أتصفح الرواية فإذا هي تطرق موضوعاً مأساوياً هو من مآسي عصرنا حقاً، فهي تتحدث عن مريم التي واجهها الطبيب بأن السرطان يتفشى في ثديها وعليها أن تستأصل الثدي، وأحسب أن هذه هي المرة الأولى التي يحضر فيها الثدي بطل رواية في أدبنا، وأول مرة يكون فيها الثدي بطلاً تراجيدياً.

ولا أنكر أنني وكثير مثلي عرفنا من خلال البيئة المعاشة نساء يعانين من مرض سرطان الثدي، ولكننا لم نعرف عمق الألم الذي تعانيه المرأة حين يواجهها الطبيب بقرار استئصال ثديها، وأنا مندهش من جرأة الكاتبة على هذا البوح الذي أطلقته مريم وهي تطلق ذاكرة النهد المستأصل لتحكي سيرة حياة امرأة من هذا العصر الذي تداعت فيه القيم الأخلاقية.

ولعل المفارقة أن صدق مريم البطلة هو الأمر المريب في الوقائع، لكن المضمون قريب من الواقع، وهو ما لا أنكره على الكاتبة في التعبير عن بوح امرأة من هذا العصر، لكنني أميل إلى إدانة قيم هذا العصر إن كانت تبيح هذا النحو المجنون اللاهث خلف الرغبة دون رادع أخلاقي أو إطار أسري.

أعلم أنه ليس من حقي أن أعترض على صدقية الرواية في سرد الأحداث، وليس من حقي أن أفرض قيماً أخلاقية على بطلة الرواية مريم، ولكنني وسط أحداث تسيطر عليها ثنائية الموت والحياة، الرجولة والأنوثة، أتساءل عن صدقية الدخول إلى عالم امرأة تواجه الموت وتغيب عنها أسئلة المواجهة الكبرى، وقد يكون غياب مثل هذا السؤال الفلسفي هو بعض خصوصيات أدب النساء اللواتي لم يقتحمن بقوة إلى اليوم في أعمالهن الأدبية عالم الفلسفة.

هـوى

يثيرك عنوان رواية هيفاء بيطار (هوى) وتظن للوهلة الأولى أنك ستقرأ نوعاً من الغواية التي يقود إليها الهوى، فلابد أن الرواية ستحكي قصة حب يغيب فيها صوت الحكمة والعقل وتشتعل فيها نيران الهوى، هكذا ظننت حين قدمت لي الكاتبة الصديقة الدكتورة هيفاء نسخة من روايتها الجديدة (هوى) وكانت هي الرواية الثانية التي تقدمها لي هيفاء قبل أن أصعد إلى الطائرة، فأقرؤها في الفضاء، كانت الأولى (امرأة من هذا العصر) قدمتها لي ونحن في طريقنا إلى القاهرة ضمن وفد أدبي سوري لنقدم التعزية بوفاة نجيب محفوظ، وكانت الثانية (هوى) قدمتها لي وأنا عائد بالطائرة من اللاذقية إلى دمشق، وكنت أحسب أني سأكتفي من الرواية بالصفحات التي يتيح لي زمن الرحلة القصيرة أن أقرأها، ولم يخطر لي أني سأقع في هوى (هوى) وسأقتنص الوقت لمتابعة قراءة الرواية التي جذبتني من سطورها الأولى. فأما المفاجأة فقد كانت في مضمون الرواية وقوة السرد فيها، فقد بدا لي أن هيفاء بيطار كتبت رواية كثفت فيها عمراً من معاناتها وتجربتها الخاصة مع التفجع الداخلي أمام وطن تراه يسرق ولا تملك أن تصرخ في وجه من يسرقونه، سوى أن تحول الصراخ المدوي في الوجدان إلى رواية تكشف أن الهوى الذي يستبد بالكاتبة هو هوى الحقيقة التي يصير الحديث عنها بصدق وجرأة مغامرة تشبه مغامرات الهوى المتقد. فأما بطلة الرواية فهي تأسر القارئ وتكاد تدفعه إلى غفران خطاياها الكبرى بقوة ما تملك من ذرائع ومبررات، فهي لا تحلم بأكثر من منزل متواضع تطمئن إلى الحياة فيه مع ابنها الصغير الذي يشكل الهوى الحقيقي في حياتها، وهي موظفة بسيطة براتب لا يسد رمقاً، تعمل ممرضة في مشفى حكومي، يصطادها قاسم سمسار الفساد، ويحرضها على سرقة أدوات جراحية من المشفى لصالح مشاف خاصة مقابل مبالغ بسيطة تسد بها إيمان أقساط الجمعية، وهي تعيش صراعاً ضخماً بين مبادئها وقيمها، وبين الإغراء والإغواء والحلم بعيش آمن مطمئن، فأما روحها فقد باتت خاوية لا رعشة حب فيها ولا بريق فرح، حتى باتت تضيق بوالديها العجوزين اللذين تفوح منهما رائحة الشيخوخة التي تحاصر الصبية المشتاقة للحيوية والشباب. لكن إيمان تمرغت في وحل الفساد واعتادت عليه، واصطنعت مبادئ وقيم تفعل، فالمجتمع هو الظالم، والحكومة التي لا تقدم من الأجور إلا فتاتاً هي المسؤولة، بل إنها تجد مبرر اختلاسها متعة عابرة للجسد، وتحاكم أولئك الذين يحاصرون رغباتها، ولقد تمكنت أخيراً من أن توفر ثمن المنزل البسيط عبر سرقاتها الصغيرة، لكنها سرعان ما واجهت السجن الذي تمكن أن يفر منه الفاسدون الكبار، وجاءها الفرج حين عرض عليها محاميها بأن يحصل لها على البراءة مقابل المنزل، فكانت المفارقة المرة أنها فقدت كل ما تملك وعادت عبئاً على والديها العجوزين، حتى جاءتها مصادفة أحدثت في حياتها تحولاً ضخماً حين تعرفت إلى مفكر عجوز ثري مشهور يعيش في الولايات المتحدة، وقد عرض عليها الزواج

والعيش في بيروت، وهناك عاشت إيمان تجربة جديدة مع الحياة المترفة في الوسائل والأدوات، ولكنها حياة فقيرة في إشباع رغبات الروح والجسد. عبر الرواية تحاكم هيفاء بيطار المجتمع والدولة، من خلال امرأة تسير نحو الهاوية وتبدو ضحية مجتمع الذكورة والرجال، وفي كل روايات هيفاء نجد هذه المرأة التي تحاول أن تتحرر من عقد المجتمع وأحكامه الصارمة، وهي لا تنكر أن الرجال محكومون كذلك بهذه الأحكام والظروف القاسية، وقد حرصت الكاتبة أن تضيف إلى شخوص الرواية ذاك الطبيب الشاب الذي جاء من اللاذقية إلى بيروت باحثاً عن مستقبل يطمئن إليه فلم يجد غير نوع مماثل من المعاناة والاستلاب، وقد وجدت إيمان فيه معادلاً لمأساتها، لكن الصنف الآخر من الرجال يتمكن من أن يمر بسلام، فحين عادت إيمان إلى اللاذقية بعد تجربة الخواء في بيروت، وجدت قاسم وقد بات وزيراً، فلم تملك سوى أن تتعلق بزهرة من غصن شجرة كي تتمكن من الاستمرار في الحياة. وتبدو لي تجربة هيفاء بيطار الروائية قد بلغت من النضج ما يؤهلها لأن تمسك بالقارئ وتقوده إلى الموافقة على كل أفكارها، وهي أفكار ما تزال موضع حوار اجتماعي صاخب، لكن قوة السرد، واتساع مخيلة الكاتبة وقدرتها على ملء الرواية بالتفاصيل المثيرة، وهي تكتب روايتها بقلم البطلة وترى العالم بعينيها، تجعل المتلقي يتصالح مع شخصية إيمان ويشفق عليها كما كانت هي تشفق على الشيخ المفكر العجوز الذي لم تقدم لنا الكاتبة رؤيته لورطته في الزواج من صبية في عمر أحفاده، ربما كان حسبها إدانة له أن ترينا نوعاً من فظاعة أنانيته. أحسب أن القارئ سيشعر بعد أن ينتهي من قراءة (هوى) أنه أمام تقرير سياسي واقتصادي وإنساني صادق ودقيق، يوصف ما تعاني منه المجتمعات والحكومات العربية من مشكلات لابد من أن نجد لها حلولاً عادلة قبل أن تسقط آخر منظومة للقيم. أهنئ الصديقة الكاتبة هيفاء بيطار بهذا النضج الفني الذي ارتقت إليه روايتها، فهي تسهم عبر الإبداع الأدبي بتقديم قضايا المرأة العربية في شفافية نادرة.

ضد الاغتراب

لم يفاجئني المستوى الرفيع الذي حققه صديقي الدكتور محمد فاتح زغل في كتابه (أوراق من ذاكرة الاغتراب) وقد سماها في مقدمته أوراقاً ضد الاغتراب، فقد عرفت محمد فاتح قبل أكثر من أربعين عاماً، وكنا التقينا في دار المعلمين في حلب أوائل الستينيات من القرن الماضي، وكانت مواهب فاتح تتفتح وتزهر، وكان يتلمس مساراتها فيطلقها في الموسيقا التي درسها وبرع فيها، حتى بات نجم سهراتنا حين يصدح الكمان المسترخي على كتفه تداعبه بقوس لين رقيق أنامل بارعة ينساب منها نبع إحساس مرهف، لكن الموسيقا قربت صاحبي إلى الشعر فساقه الشعر إلى الأدب كله، فبات يكتب القصة القصيرة، ثم يهتم بالدراسات الأدبية والنقدية، حتى اختارت موهبته أن يكون كاتباً وباحثاً وأديباً، وقد تفرغ للبحث منذ أن مضى إلى دولة الإمارات العربية فعمل في مركز جمعة الماجد للتراث، ولكن نشاطه كبر واشتد حين عمل في نادي التراث في العين، وأصدر العديد من الدراسات والكتب التي تعنى بتراثنا العربي الإسلامي، وبتراث الإمارات الأدبي والشعبي.

وكتابه (أوراق من ذاكرة الاغتراب) مجموعة من المقالات والدراسات الأدبية التي تشف عن القاص الذي خبأه محمد فاتح بين سطور دراساته، وقد قسم الكتاب إلى موضوعات تتسق مع مضامينها، فثمة فصل للتراثيات، وآخر للدوريات، وثالث للدراسات النقدية والأدبية.

وقد شاقني بحثه في التراثيات، ووجدت فيه مادة غنية أغفلها كثير من الباحثين، وهو لا يكتفي بتقديم المعلومة جافة مجردة، وإنما يطلق موهبة القص عنده، ويكسوها بالدعابة والطرافة والسخرية اللطيفة، كي يقرب القراءة عن التراث إلى عامة الناس فلا يكون بحثاً يهتم به المتخصصون وحدهم.

كتب محمد فاتح بعذوبة وشاعرية مرهفة وبسخرية عصرية عن القهوة العربية، مقارناً لحظة ارتشافها بارتشاف الأميركان كوفي، ولم يكن هدفه على ما أحسب أن يعقد تلك المقارنة لولا أنه يريد أن يمنح موضوعه تشويقاً، ويجعل بحثه معاشاً، فأما الهدف الذي وصل إليه فهو تقديم جملة من المعلومات الهامة عن القهوة لغة واشتقاقاً وزراعة وأصنافاً وطقوساً، وارتباطها بالعادات والتقاليد الشعبية، ولم ينس توظيف البحث توظيفاً فكرياً سياسياً، ولاسيما حين جعل مقدمته مقطعاً شعرياً لشاعر من الإمارات هو إبراهيم محمد يقول في مطلعه (ما اعتدنا أن نشرب قهوتنا باردة، فالأوطان لها نار لا تخبو أبداً في الليل) وأما بحث فاتح في التنجيم والتبصير والأبراج في الصحافة واهتمام الناس بها، وحديثه القصصي عن صاحبه الذي يهتم بقراءة الأبراج في الصحف وهو العارف في المهنة كيف تكتب، فقد جعله مادة طرية عذبة تشد القارئ إلى فخ لطيف هو التعرف إلى عظمة دور العلماء العرب والمسلمين في علوم الفلك، ولئن ابتعد

عن فن القص في دراسته لفن الخط العربي وفي بحثه عن خزائن الكتب العربية وتاريخ المكتبات، وفي حديثه عن المدونات وعن الزجاجيات والزخارف فإن لغة القص السهلة الرشيقة بقيت تشد القارئ إلى المتابعة وهو يأخذ المعلومة بيسر ولطف.

وفي القسم الثاني من الكتاب يتحدث الدكتور محمد فاتح عن الدوريات الصحفية الرائدة مستفيداً من تعرفه إليها عن قرب حين عمل في خزائن التراث، وهو يستطلع المادة المعلوماتية عبر اختيار مشوق للمعلومة، فهو يتحدث عن فن الإعلان الصحفي كيف كان في مجلة الزهرة أواخر القرن التاسع عشر، ثم يعرفنا إلى مؤسسي الأهرام المصرية، والنفائس العصرية، وصحيفة حمص، والشفاء والحقوق والأستاذ وطرابلس الغرب وسوى ذلك مما أوشك تاريخ الصحافة أن ينساه، ثم يختم كتابه بدرة أبحاثه الأدبية فيتوقف عند غسان كنفاني وقفة نقدية مطولة يستعرض فيها أبرز أعمال غسان (عائد إلى حيفا) ثم يبحث في (قيام وانهيار آل مستجاب) وفي ضحك زكريا تامر، وينوع في موضوعاته قبل أن يختم بنداء الخليج للشاعر سالم بن علي العويس.

ولقد قرأت الكتاب بمتعة ما أقرأ من فن القص، متأملاً براعة صديقي فاتح في جذب القارئ إلى المعلومة الجامدة، عبر ما يضخ فيها من لطف البيان، وعذوبة اللغة الرشيقة، والشاعرية التي تشف عن حس أدبي مرهف وثقافة عالية رفيعة.

من مفكرة طبيب

ثمة صلة خفية بين الطب والأدب، وقد بدأت تأمل هذه الصلة منذ أن بدأت قراءة تراثنا العربي فعرفت أن الشيخ الرئيس ابن سينا طبيب وأديب، وأن ابن النفيس الدمشقي طبيب وأديب، وقائمة الأطباء الأدباء طويلة جداً في تراثنا الأدبي والعلمي، ولعل الأحفاد قد ورثوا هذه الصلة الإبداعية بين الطب والأدب، وقد عرفنا في القرن العشرين أطباء باتوا من أكبر الشعراء أو القصاصين أو الروائيين في أدبنا المعاصر، حسبنا أن نذكر منهم يوسف إدريس وعبد السلام العجيلي، وإبراهيم ناجي ووجيه البارودي، ولست في معرض الإحصاء بالطبع، لكنني في موضع تأمل الصلة العريقة بين الطب والأدب، حيث أجد بعض السر فيما فاجأنا به صديقنا طبيب القلب المعروف في دمشق (الدكتور محمد العاسمي) حين كشف عن موهبة قصصية تنهل من نبوغ الطبيب واجتهاده أولاً، ثم من خصوصية التجربة الإنسانية التي تمنحه القدرة على التأمل والتفكر، ومن قدرته على التقاط المفارقة في سلوك الناس وفي طرائق تفكيرهم

يروي لنا العاسمي كيف صار طبيباً، ويعترف بأن ضيقه بطبيب لم يحسن علاج والدته التي توفيت وربما كان بالوسع إنقاذها طبياً، لم يدفعه إلى كراهية الطب والأطباء، بل حول مشاعر الضيق والنقمة إلى حالة إيجابية دفعته إلى أن يكون طبيباً عساه أن ينقذ ما بوسعه أن ينقذ من إهمال بعض الأطباء أو أخطائهم، وبوسعنا أن نقدر ونحن نقرأ حكاياته كيف تجلت لديه موهبة الأدب، فتلك المشاعر التي تمور في الدواخل لابد لها من أن تجد وسيلة للتعبير عن نفسها، وأجمل وسائل التعبير هو القص والحكاية، ولعلي أكرر تعبير الحكاية لأنني أجد فيما كتب صديقي العاسمي فن الحكاية أكثر مما أجد فيه فن القصة الأدبية من حيث التكنيك أو خصوصية السرد، فالعاسمي يقص حكاياته على السجية الأدبية الصافية الخالصة دون أن يرهق نفسه في محاكاة الأساليب المعقدة من القص، وهذا ما سيجعل القراء (ولاسيما البسطاء منهم) يجدون متعة تأمل هذه الحكايات، فضلاً عن عمق ما فيها من التقاط ذكي للموقف الجدير بالقص، ومن تأمل لأعماق الحدث، ومن عذوبة ولطف في التعبير، وسر العذوبة في حكاياته أنه يملؤها بمشاعر المحبة لشخوصه، حتى أولئك السلبيين من أمثال العشاب الذي حارب الطب بشعوذاته حتى اضطر أن يلجأ إلى الطبيب، والعاسمي يتأمل في الحكاية أسرار الحياة الخفية، ففي حكايته عن الطبيب الذي توفي قبل أن يموت مريضه المحتضر تهكم مرير من سخرية المفارقات، ولا أريد أن أكشف سر الحكايات ولكنني أشير إلى رؤية الكاتب وما تختزنه من تهكم يخفي السخرية التي يوحي بها التأمل.

وفي أسلوب الحكاية عند العاسمي التقاط للغة الشعب دون أي بحث عن لغة أدبية منمقة، فهو يقص سجية أبطاله، وقد تقوده هذه السجية إلى التداعيات بما قد يظنه القارئ ابتعاداً عن جوهر الحكاية، ولكنه

ما يلبث أن يدرك حاجة الحكاية إلى التفاصيل التي تعمق الفكرة وتلم بالبيئة القصصية، وبما يكشف عن بعد روائي قد يكتشفه العاسمي إذا حاول كتابة الرواية الشعبية.

وليس سراً أن العاسمي لا يقدم حكاياته على أنها قصص قصيرة، فهو يدرك أن لفن القصة القصيرة تاريخاً مع فنون السرد، ولها قوانين استخلصها النقد الأدبي فجعلها شبه نواظم لبنية الحدث والشخوص والحوار واللغة، ولعل تخوفه من الخروج عن نواظم فن القص جعله يضع حكاياته تحت عنوان (من مفكرة طبيب) وكان بوسع العاسمي أن يسميها قصصاً قصيرة ففي الفن سعة لكل فنان وأديب أن يضع قوانينه الخاصة، مادام يغرف من تجربة صادقة، فالصدق الفني أهم شروط الفن، وهذا ما يتحقق بقوة في حكايات العاسمي، فهو يحكي ما حدث دون تدخل تخييلي، ودون تلاعب لفظي، ودون إقحام للفكرة الصافية في افتعال أو تثاقف في غير موضعه، إنه يقدم تجربته الإنسانية الثرية ويحكي ببساطة ما رأى وما سمع وما أحس، وهو يعيش هموم الناس وآلامهم في عيادته، ويتأمل انفعالاتهم ومشاعرهم وهم أمام الطبيب وفي عيادته أو مشفاه يكشفون كثيراً من المخبوء، بعضهم يحاول ستر ضعفه بكبرياء مقاومة الضعف والانكسار، وهو شعور ما يلبث على الغالب أن يتلاشى أمام حنان الطبيب وإنسانيته، ولست أدري أمن حسن حظ الطبيب أم من سوء حظه أكثر من سواه من البشر أنه يرى الناس في لحظات الضعف، وفي ساعات الحزن وربما البكاء، ولكنه كثيراً ما يراهم مبتهجين في لحظات الشفاء فينال من البسمة الرضية التي تعود إلى الشفاه جزاء ما عانى مع مرضاه وما أشفق.

وفي حكايات العاسمي تجسيد لتلك اللحظات، وتعبير نبيل عن أخلاقيات الطبيب الإنساني، ولعل ما يسعد القارئ وهو يتأمل هذه المفكرة الغنية بالأحداث أنه سيمتلئ شعوراً بالتفاؤل والرضا، فالعاسمي لايغلق الباب وراء حكايته، بل يتركها مشرعة للتأمل ولاكتشاف الهدف من انتقاء الحكاية للتدوين في مفكرة طبيب قاص يمتلك حساً إنسانياً واسع الطيف، ورؤية فسيحة للحياة، مثلما يقدم عبر الحكايات نثرات من سيرة كفاحه الذاتية، وأحسب أنها جديرة بأن تفرد لها مفكرة روائية أرجو أن أقرأها ذات يوم.

الثقافة فعل شعبي

أسعدني أن ينهض الشباب بمشروع ثقافي عنوانه (اقرأ وارتق) وقد أكدت في كلمتي في افتتاح الندوة على أن (الثقافة فعل شعبي) ولم ينغص سعادتي بهذا المشروع الثقافي الخاص الذي أطلق عليه اسم (كنوز سورية) ما قرأت من شكوك أحدهم بصدق ما أعنيه حين أكدت على كون الثقافة والإبداع ليسا عملاً رسمياً حكومياً، وعلى أن دور الحكومة هو تقديم الدعم والمستلزمات المادية لعملية الإبداع، فقد قرأت بعناية في إحدى نشرات الانترنت مقالة بعنوان (الوزير والثقافة وآخرون) وأقتطف من مقالة الكاتب وأحسب أنه من جيل الشباب، قوله (الخشية أن تكون قولة السيد الوزير عبارة ظرفية راهنة ترتبط بالفعالية التي يتحدث عنها. وما يجعلني أشكك بجدية هذا القول ليس لمعرفتي بعجز وزارة الثقافة عن تبني إستراتيجية كهذه، هي أصلاً من مهام السلطة الثقافية وليست الوزارة، وكذلك لأن الوزارة ما زالت تمانع خصخصة الثقافة أو وجود أي نتاج أو نشاط ثقافي خارج حدود سيطرتها الثقافية، بل يتأتى هذا التشكيك من أن المشروع مستكمل لجميع شروطه المَشْرَعَة من رعاة ووزير ومركز ثقافي ومطبوعات... الخ، لكنه يفتقد لأهم عنصر: فهو مجهول المنبت والأصل) وأكتفي بهذا القدر من الاقتباس من المقالة، حيث بوسع من يشاء أن يقرأ كل ما جاء فيها عبر البحث في الإنترنت، وقد توقفت عند هذا التشكيك لأسباب عديدة أصارح بها قراء (شرفات) أولها كوني أهتم كثيراً بكل ما يكتب من نقد لوزارة الثقافة، حتى ولو كان من لغو الكلام، وتقتضي مهمتي أن أسمع واقرأ ما تنتقد به الوزارة عسى أن أفيد منه، فإن كان صادقاً سعيت مع طاقم الوزارة لإصلاح ما ينبغي إصلاحه، وإن كان لغواً فإنني أهمله، ولا أنكر أنني أتأذى نفسياً من بعض ما يكتب من كذب وتلفيق مهمته الإثارة واجتذاب القارئ أو من بعض ما يتجاوز حد النقد إلى المس بكرامة العاملين، كذلك لا أنكر أنني أضيق بمن يقفز فوق الحقائق والإمكانات، والمثل يقول (إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع) وعلى الرغم من أن حدود الاستطاعة واسعة إلا أن الأحلام والطموحات أوسع بكثير، وعلى الرغم كذلك من كوني لا أحب أن أرد على المقالات التي تكتب بغزارة ضد الوزارة، إلا ما أجد فيه صدق نية واحترام توجه، فهذه أرد عليها باحترام، وهذا ما أجده في مقالة الكاتب حيث اشعر أنه جاد في مناقشته، وهو يعلن شكه في صدق توجه الوزارة في اعتبار الثقافة فعلاً شعبياً، وأنا أستغرب شكه، فما أعلنته مرات في كون الإبداع (ليس عملاً حكومياً) هو ليس اختراعاً من عندي، ولا هو شعار أتفرد بإعلانه، إنه حقيقة الحياة وطبيعة الأشياء، ولا أذكر أنه في عصر من العصور كان الإبداع أو الفعل الثقافي رسمياً حكومياً، وعلى صعيد الثقافة العربية لا نعرف مرحلة أبدعت فيها الدولة، ولكننا نعرف جيداً أن الدولة ترعى الثقافة وتعنى بالمثقفين، بل إن تاريخ ازدهار الدول ورقيها يقاس بمقدار عنايتها بالثقافة بحيث يزدهر الإنتاج الثقافي حين يلقى المبدعون والمثقفون والمفكرون رعاية رسمية، ونحن حين نذكر مرحلة مروان

بن الحكم بوصفه المؤسس الثاني لدولة بني أمية، فإنما نشيد بدوره في دعم مشروع خالد بن يزيد في ترجمة العلوم، وكذلك الحال حين نذكر العصر العباسي فإننا نجد ذروته في مرحلة تأسيس دار الحكمة، وذروة العصر الأندلسي في تأسيس جامع قرطبة، وذروة دولة الحمدانيين في بلاط سيف الدولة، وذروة دولة الظاهر بيبرس في بناء المدارس والمكتبات، وهذه مجرد شواهد لو شئنا إحصاءها في تاريخنا لما اتسع لها مجال، ولا أعرف مرحلة كانت فيها الثقافة عملاً حكومياً محضاً، لكن الأمر الطبيعي أن تقوم الحكومة أو لأقل الدولة ببناء المسارح والمكتبات وبتوفير الحياة الكريمة للمفكرين والمبدعين، ولا أعرف حقيقة أبعاد ما ذهب إليه الكاتب حين تحدث عن خصخصة الثقافة (التي تمانعها الوزارة) على حد قوله، وأستغرب حديثه عن رفض الوزارة أي نشاط ثقافي يقع خارج حدود سيطرتها الثقافية، وأقول بصدق إن كان الأخ الكاتب يعرف بدقة ما يعنيه من خصخصة الثقافة فإنني أرجو أن يشرحه لي، فإن كان المطلوب أن ينهض القطاع الخاص بدور ثقافي فإن هذا ما ندعو إليه بل ما نطمح إليه، ونحن نحث أصحاب الفعاليات الاقتصادية الخاصة على المساهمة في دعم المشاريع الثقافية، ونشجع أولئك المقتدرين مادياً الذين يمنحون الإبداع جوائز نقبلها ونكرمهم من أجلها رغم كون بعض هذه الجوائز ضئيلة، ولكننا نريد أن يتشجع أصحاب المناشط الخاصة للمساهمة، ونخطط لإنشاء صندوق للتنمية الثقافية، ولسنا نشترط على أحد مواصفات لقبول مساهمته سوى أن تكون الثقافة التي يدعمها وطنية ملتزمة بقيم المجتمع ومبادئه وثوابته، وسأعترف للكاتب بأنني مثله لا أعرف شيئاً عن أصحاب المشروع الذي افتتحته في المركز الثقافي في المزة، سوى أنهم شباب سوريون لديهم مشروع ثقافي طلبوا مني رعايته وتقديم فضاء مكاني له، فرحبت بهم وأثنيت على جهدهم، ولابد أن الكاتب يعلم أننا في الوزارة ندعم الكثير من مثل هذه الأنشطة الخاصة، فقد رعينا على سبيل المثال مهرجان الهواة المسرحي وهو خاص، وقدمنا له الدعم المطلوب، وكذلك دعمنا مشروع شبابلك، ونقدم دعماً مستمراً لكل النوادي والجمعيات الخاصة التي تقدم أنشطة ثقافية، ونعتبر أن من أهمها جمعية العاديات، ولن أسرف في تقديم الشواهد، ولكنني أردت التوضيح عسى أن يزول الشك عند الكاتب، ولا أنكر أنني وجدت مقالته فرصة لكي أؤكد مرة أخرى على كون الثقافة فعلاً شعبياً ونشاطاً اجتماعياً مهمة الدولة أن تقدم له الوسائط والمستلزمات، ولكن الثقافة بوصفها إبداعاً تبقى مسؤولية المبدعين.

إن بوسع مؤسسة السينما مثلاً أن تقدم الميزانيات والكاميرات وكل مستلزمات الإنتاج، ولكنها ليست هي التي تبدع التمثيل والإخراج، كذلك مديرية المسارح تقدم الخشبة ومستلزمات المسرحية لكن مسؤولية نجاح العرض تقع على عاتق المبدعين ممثلين ومخرجين، ونحن نرحب بأي نشاط ثقافي يقدمه القطاع الخاص أو يبدعه فنانون غير موظفين أو مرتبطين بعمل حكومي، ونعلن استعداد الوزارة لتقديم كل الدعم الممكن، وليس لنا مطلب السيطرة الثقافية التي توهمها الكاتب، لكن لنا شرط الحفاظ على الأخلاق العامة، وعلى الثوابت الوطنية، وهي لا تتعارض مع حرية التعبير، لأن من يريد التعبير عن مشاعر ضد بلده أو ضد قيمها المعلنة فلن نقبل إبداعه، ولكننا نقبل النقد ونحترمه بمقدار ما يكون نقداً موضوعياً ومحترماً.

فنوننا الشعبية تراث ثقافي غني

أسدل الستار على خشبة مسرح إدلب الصيفي وقد شهدت خلال شهر تموز (يوليو) مهرجان الفنون الشعبية السورية الأول، ولكن الستارة ستفتح خلال شهر آب (أغسطس) الحالي على مهرجان بصرى الدولي للفنون على المسرح الروماني الكبير، وهو أكبر مسرح تاريخي ما يزال يشهد مهرجانات الثقافة والفن على صعيد دولي، وأنا أكتب عن هذا المهرجان الذي تقيمه وزارة الثقافة في سورية سنوياً منذ عشرين عاماً، لأذكر به القادمين إلى سورية من منطقة الخليج العربي ولأدعوهم إلى زيارة بصرى الواقعة في محافظة درعا، واثقاً من أنهم سيجدون فيه ما يسعدهم من رؤية للآثار الفريدة التي تحكي تاريخاً عظيماً بات مباركاً حين أسبغت عليه زيارة رسول الله ورحلاته التجارية إلى الشام وإلى بصرى بخاصة قدسية تجعله جديراً بالزيارة والتأمل، فأما مهرجان الفنون الذي سيبدأ على مسرح بصرى الأثري التاريخي في تاريخ ٢٥/ ٨/ ٢٠٠٨ فهو مهرجان تشارك فيه عدة دول من العالم، تقدم خصوصياتها الثقافية الفنية، حيث تعبر الفنون الشعبية عن إبداع الوجدان الشعبي، وكثير من هذه الفنون لا تعرف الشعوب لها مؤلفين، فقد توارثتها الأجيال، وحفظتها بأغانيها العذبة ورقصاتها الرشيقة، وأشعارها الغنائية الشهيرة، فصارت تراثاً تعتز به الأمم، وتسعى للحفاظ عليه، وقد بات جزءاً من هويتها الثقافية. وفي عالم اليوم الذي تسعى إلى السيطرة عليه ثقافة كونية واحدة، تحاول أن تحل محل الثقافات الوطنية للشعوب، وأن تنشر موسيقاها وأغانيها ورقصاتها لتمحو من ذاكرة الشعوب خصوصياتها الوجدانية، نجد من الضروري أن تدافع الثقافات المحلية الوطنية عند كل شعب عن هويتها، دون أن يعني ذلك انغلاقاً أو رفضاً للتفاعل الثقافي مع الثقافات الكونية الكبرى.

لكن الخطر أن تنسى الأجيال الشابة ما ورثها الأجداد من فنون، وأن يجهل الشباب ما لدى أمتهم من غنى حضاري، وكم هو مؤسف أن نجد بعض الشباب يعرفون عن الثقافة الفرانكفونية أو الأنكلوسكسونية أو الثقافة الأمريكية أكثر مما يعرفون عن ثقافة أوطانهم، وتشكل الموسيقا والفنون الشعبية بوابة رحبة واسعة للاختراق الثقافي، فالشعب الذي ينسى فولكلوره الوطني يفقد ذاكرته بالتدرج، ويصير سهلاً أن يذوب في ثقافة الآخرين، ورويداً يفقد انتماءه ويجد نفسه في ضياع ثقافي، وقد يقول دعاة العولمة الثقافية إن الثقافة فعل إنساني لا هوية له، وإن الإبداع لا وطن له، لكن هذا ليس صحيحاً، فالثقافة سمة خصوصية، وبوسعنا أن نجد هذه الخصوصية عبر التاريخ الثقافي للإنسانية، وبوسع القارئ أن يعرف من أشعار طاغور أنه هندي، ومن روح حكمة كونفوشيوس أنه صيني، ومن عناوين مسرحيات شكسبير أنه بريطاني، ومن مضامين تولستوي أنه روسي، ونعرف من وهج شعر المتنبي أنه عربي، وهكذا نجد الخصوصية الإبداعية سمة لا يمكن محوها أو تجاهلها، فلكل إبداع نكهة ثقافية ذات مذاق خاص، وسر

عالمية كثير من المبدعين المشاهير هي في كونهم محليين، فحين غنى رسول حمزاتوف لداغستان، كان كل من يقرؤه أو يسمعه يتغنى معه بداغستان ويغني لوطنه، وحين كتب المبدعون الأوائل أقاصيص ألف ليلة وليلة عن بغداد، كانت الحضارة الإسلامية حاضرة في كل ثنايا الأقاصيص، ويصعب تصور ألف وليلة خارج سياقها الحضاري، وهذا ما يجعل الخصوصية بل المحلية باب الدخول إلى العالمية، ويخطئ كثيراً أولئك الذين يظنون أن المحلية انتهت، وأن هناك موضوعات عالمية حلت محلها وأن الطريق إلى العالمية هي اقتحام موضوعات لا هوية محلية لها، وهذا لا يعني رفضنا للموضوعات الإنسانية، بل إننا نجد في ثقافتنا العربية نخبة من الأعمال الإبداعية ذات الطابع الإنساني المحض، ولكن النكهة العربية رحيقها الإبداعي، من ذلك قصة حي بن يقظان لابن طفيل، وقصائد المعري، ومجنون جبران خليل جبران، وأشعار إيليا أبي ماضي وسوى ذلك كثير، وبالعودة إلى حديث مهرجان بصرى الشام، وحرصنا على الفنون الشعبية المحلية، أجد أن الرقص والغناء الشعبي عنصران رئيسان في تكوين الوجدان، ولقد تلقينا مراسلات من أكثر من أربعين دولة في العالم تعرض رغبتها في المشاركة في المهرجان، وذلك دليل على حرص العالم كله على عرض خصوصيته الثقافية، وليس سراً أن العولمة في الأغنية قد أضرت كثيراً بموسيقانا العربية، ولاسيما بعد افتقار العرب إلى ملحنين كبار من طراز القصبجي والسنباطي وزكريا أحمد وعبد الوهاب وأقرانهم، واكتظاظ الساحة الغنائية بملحنين صغار لا يمتلكون موهبة كبيرة ولا ثقافة عميقة، ولهذا تأتي جل ألحانهم كفقاعات الصابون، لا يرسخ منها في الأعماق شيء، وهم يشاكلون الأغنية الغربية الحديثة، وقد زاد الأمر سوءاً انتشار الفيديو كليب الذي بدأ يخل بالآداب العامة ويجعل الإثارة بديلاً عن الفن العظيم. إننا في مثل مهرجان بصرى الدولي، نريد أن تستعيد فنوننا الشعبية العربية ألقها وحضورها وتأكيدها على هويتنا الثقافية الوطنية والقومية.

مفارقات درامية

حين حقق مسلسل باب الحارة نجاحاً غير مسبوق كان تفسير نجاح المسلسل كونه يستعيد القيم العربية الأصيلة ويذكر الناس بالشهامة والمروءة ومعايير شرف الكلمة والوعد، والحفاظ على الأسرة برعاية الأبوين وهما يجسدان بنية المجتمع الأولى عبر ما توارثته الأمة من مكارم الأخلاق من قبل الإسلام ومن بعد، وكنت حين يسألني الصحب أو الزملاء من الصحفيين عن سر هذا النجاح لا أجد تفسيراً غير شوق الناس لتلك الألفة التي كان يعيشها آباؤنا في جو اجتماعي حميم، التي بدأ المجتمع العربي يفقده بعد أن عاش حياة عصرية كان من سلبياتها ما نشهده من تفكك اجتماعي وتغريب وقد بات أحدنا يسكن في عمارة مزدحمة سنين طويلة ولكنه لا يعرف جيرانه فيها، بل إن بعضهم يشاركونك في المصعد فلا يلقون عليك التحية وإن بادرتهم يردونها بتمتمة باهتة، وكانت مثل هذه الحالات من الغربة الداخلية حديث طرافة عند أهلنا قديماً، وأذكر في الخمسينيات أن أحد أبناء عمي وكان يدرس الطب في إحدى عواصم أوروبا، سأله جدي عن جيرانه وعن رعايتهم له بوصفه غريباً، فضحك ابن عمي وقال نحن في بلد لا يعرف فيها أحد جيرانه، فقال جدي بئس تلك البلد، ولو أن جدي يعيش اليوم لوجد ما حدث في مجتمعنا من الغربة أسوأ مما كان ينكره على الأوروبيين، وقد أعادت ذكريات الحارة هذا الحنين إلى التكاتف الاجتماعي والتعاطف والتكافل، لكن المفارقة الدرامية التي أفسدت تفسيرنا لنجاح باب الحارة وإقبال الناس عليه، ما نجده من نجاح مذهل وإقبال عجيب على المسلسلات التركية (المدبلجة) التي تقدم النموذج المعاكس تماماً لقيم باب الحارة، وقد راعني أن أجد بناتنا الصغيرات تتعلقن بمتابعة هذا المسلسل الذي يقدم أحداثاً مثيرة عن مجتمع يفترض أنه إسلامي لكن الإسلام منه بريء، مما يدعوني إلى الريبة في الهدف من إنتاج مسلسلات من هذا النوع المثير المشوق لترويج قيم اجتماعية جديدة تخترق المجتمع الإسلامي عامة، وتجعل قضايا العلاقات الجنسية في المجتمع خارج شرعية الأسرة أمراً مباحاً ومتاحاً، ذاك أن هذا الموضوع يبدو الشغل الشاغل للغرب، فبعد أن تهدم مفهوم الأسرة في أوروبا وأمريكا، وبعد أن حقق الغرب انتصاراً ساحقاً للشذوذ الجنسي وبات الشاذون موضع تقدير واحترام من البرلمانات التي شرعت قوانين لحماية الشذوذ، بات بعض الغرب يريد أن يسوق هذا الرضا عن الشذوذ (وهو موجود في كل المجتمعات الإنسانية ولكنه مرفوض أخلاقياً) ويبدو هذا الرفض الأخلاقي مزعجاً للشاذين، وهم يصرون على أن يجعلوا الشذوذ عن القيم قاعدة وأن تصير العلاقات الطبيعية استثناء، وأن يهدموا ما لدى المسلمين والمسيحيين العرب من تمسك بالقيم التي حرصوا عليها قروناً، ولهذا نجد دعوات حتى من هيئة الأمم تضغط على الدول العربية من أجل التوقيع على اتفاقيات تنص فيما تنص على واجب الأبوين بتأمين حرية جنسية لأبنائهن وبناتهن خارج إطار الحياة الزوجية، ويعجب المرء من انشغال الغرب بقضايا الجنس أكثر من انشغالهم بقضايا

الجوع، حيث هناك ملايين الناس ممن يموتون جوعاً، وهم يحدثوننا في كل لقاء عن تمكين المرأة العربية ونحن نرى كيف حولوا المرأة على الغالب في الغرب إلى سلعة إعلانية، وقد روت لي إحدى الأمهات في ألمانيا أن ابنها يرسل إليها بطاقة معايدة في كل رأس سنة ولكنه لم يزرها منذ سنين طويلة، قلت أين يعيش أهو في قارة أخرى، قالت إنه يعيش في الشارع الخلفي وراء منزلي، وأعود إلى الحديث عن المفارقة الدرامية بين إعجاب الناس بقيم باب الحارة، ثم إعجابهم بقيم سنوات الضياع، وفتنتهم بهذه المسلسلات التركية التي تقدم طبيعة جميلة، وممثلين جذابين، ولكنها تبث نمطاً من السلوك والعيش يهدم الحارة ويدمر قيمها، وما أظن ذلك يأتي عفو الخاطر، ذاك أنني مشبع بالاعتقاد بنظرية المؤامرة، لدرجة أنني أعتقد أن إنكارها مؤامرة، بهدف أن يصير الناس بلهاء يظنون أن ما يحدث لهم من مصائب هو من صنعهم وحدهم، وأنه لا يوجد لهم عدو همه الأكبر اليوم أن يدمر الأسرة العربية المسلمة والمسيحية تماماً كما دمرت قيم الصهيونية مجتمعات الغرب، ومن لا يصدق أن هذه المسلسلات تهدف إلى هذا التدمير بوسعه أن يسأل عن مصدر ملايين الدولارات التي تنفق على هذه التفاهات، بينما يمنع من العرض على القنوات العربية أي عمل مثل التغريبة الفلسطينية أو فارس بلا جواد أو الشتات.

مهرجان أبي العلاء في معرة النعمان

أقيمت في معرة النعمان (بلدة أبي العلاء المعري في الشمال السوري) الدورة العاشرة لمهرجان المعري السنوي الذي حضر أولى دوراته تلميذ المعري الأنجب طه حسين الذي جدد ذكراه في رسالته الشهيرة (في ذكرى أبي العلاء) لنيل درجة العالمية.

والعالمية سمة جديرة بالمعري، فهو ليس واحداً من أبرز أعلام الأدب العربي على مرّ العصور فحسب، وإنما هو أديب عالمي كوني، لأن ما قدمه من إبداع في الشعر والفلسفة حقق السوية المطلوبة فيما يستحق أن يكون أدباً إنسانياً خالداً، وأهم مقاييس هذه السوية العالمية هو الصلة مع الكون العام، وهذا ما نجده سمة واضحة في أدب أبي العلاء الذي حملت إبداعاته الخالدة رؤى الوجود العربي والإسلامي بأوسع أبعادها الثقافية والمعرفية، ومثّلت أبرز السياقات التاريخية والاجتماعية والإنسانية في عصر اتسم بالوعي والحكمة والعقلانية في ذروة العطاء المتدفق للحضارة العربية الإسلامية .

لقد اقتحم أبو العلاء إشكاليات الفكر العربي، وطرح الأسئلة الصعبة على العقل الإنساني المطالب إسلامياً بالتأمل والتفكر، وسخر من كثير من السائد في التفكير بأسلوب كوميدي بارع، نجد أرقى صوره وأمثلته في رسالة الغفران التي استقى منها دانتي رائعته الشهيرة (الكوميديا الإلهية).

لقد عبر المعري في سخريته المريرة الهادئة عن تأزمات الضمير، وأشار إلى خلل العقائد المتوارثة شعبياً، وانخرط في مآسي الوجود المقهور وهو المصاب بعمى البصر ولكنه المعوض عنه ببصيرة حادة نافذة، ولقد ترسّخت مكانة المعري العالمية في العشرات من المؤلفات الأكاديمية والنقدية التي نهلت منه وأضاءت إبداع هذا الفكر المبدع الأصيل الجليل.

ونحن ما نزال نقرأ في مؤلفات المعري العديدة، ولاسيما في «رسالة الغفران» وفي «اللزوميات»، ما نجد فيه فسحة تتسع كل يوم لمزيد من الفهم والإدراك، مما ينم عن سعة المعري المعرفية الموسوعية، وتخصصه التأملي في تشريح طبائع الناس، وفي قراءة الوجود، حتى قال عنه النقاد محقين إنه فيلسوف الشعراء. وقد درجت وزارة الثقافة في سورية على تنظيم مهرجان سنوي يحتفي بأبي العلاء المعري يقام في المدينة التي ولد فيها، وحمل اسمها، وما نزال نحرص على أن يستمر هذا المهرجان السنوي وأن يكون مهرجاناً ثقافياً عربي الحضور، بمشاركة الباحثين والنقاد والشعراء العرب، ولاسيما أشقاءنا النقاد المصريين الذين كانت مشاركتهم على الدوام موضع اهتمام وتقدير، نستعيد معهم ذكرى أبي العلاء، ونوسع دائرة الضوء على فكره وإبداعه، ونستكشف المزيد من خفايا سيرته الشخصية. ولقد رفدت وزارة الثقافة كل دورة من دورات هذا المهرجان بعناوين ومحاور جديدة، ونحن في الدورة العاشرة نتأمل عصر أبي العلاء،

ونناقش الخطاب السردي والثقافي عنده، وندرس حضوره الإبداعي في الكتابات المعاصرة، شعراً ونصوصاً أدبية وفلسفية، كما نتأمل النقد الخاص بالمعري قديماً وحديثاً.

ولقد رفدنا برنامج المهرجان بنشاطات ثقافية وفنية موازية، منها معرض للكتاب ومعرض للفنون التشكيلية وفيلم تلفزيوني عن أبي العلاء، وحفل فني موسيقي وغنائي تحية لذكرى المعري.

ونرجو أن يقترح علينا عشاق المعري، ما يرون من أفكار للارتقاء بسوية المهرجان إلى المستوى العالمي الذي هو مستوى المعري.